

# من أفعال الخلق في القرآن الكريم

(دراسة معجمية وموضوعية)

خلق، عملت أيدينا، فطر، جعل، أنشأ، ذرأ، برأ، بثّ، أنبت،  
حفّ، زرع، فجّر، فتق، بديع، صنع

عبد المجيد بن محمد بن علي الغيلي

٢٠١٣ / ١٤٣٤ هـ

موقع رحى الحرف

من أفعال الخلق  
في القرآن الكريم  
(دراسة معجمية وموضوعية)

عبد المجيد بن محمد بن علي الغيلي

٢٠١٣م / ١٤٣٤هـ

موقع رحي الحرف

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف.  
(ترقيم الكتاب موافق لنسخة المؤلف)

للاقتباس:

من أفعال الخلق في القرآن الكريم (دراسة معجمية وموضوعية)، عبد المجيد بن محمد  
الغيلي، ٢٠١٣م / ١٤٣٤هـ، منشور على موقع المؤلف: رحي الحرف، ص ...

## الفهرس:

- الفهرس: ..... ٣
- مقدمة: ..... ١٤
- خلاصة الدلالات: ..... ١٥
- المبحث الأول: (خلق) في القرآن الكريم ..... ١٧
- خلاصة الدلالات: ..... ١٧
- المطلب الأول: مفهوم (الخلق): ..... ١٩
- أولاً: المعنى اللغوي لدى اللغويين والمفسرين: ..... ١٩
- ثانياً: التحقيق في الدلالة: ..... ٢٠
- ثالثاً: شرح الدلالة: ..... ٢١
- المطلب الثاني: المخلوقات في القرآن: ..... ٢٣
- [السموات والأرض] ..... ٢٤
- [المخلوقات الأخرى] ..... ٢٥
- (يخلق ما يشاء) ..... ٢٥
- (خلق كل شيء): ..... ٢٦
- (ويخلق ما لا تعلمون): ..... ٢٧
- (والله خلقكم وما تعملون): ..... ٢٩
- (مَنْ خَلَقَ، وَمَا خَلَقَ): ..... ٣٣
- المطلب الثالث: المفرد والجمع: خالق، خلاق، خالقون .... ٣٥
- الخالق والخلق: ..... ٣٥
- الخالق والخالقون: ..... ٣٦
- تخلق من الطين كهيئة الطير: ..... ٣٦
- وتخلقون إفكا: ..... ٣٧
- لم يخلق مثلها في البلاد: ..... ٣٨

- أحسن الخالقين: ..... ٣٩
- أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون: ..... ٤١
- المطلب الرابع: إضافة الخلق إلى (الله، الرحمن) ..... ٤٢
- خلق الله: ..... ٤٢
- فليغيرن خلق الله: ..... ٤٢
- لا تبديل لخلق الله، هذا خلق الله: ..... ٤٢
- خلق الرحمن: ..... ٤٧
- المطلب الخامس: بدء الخلق وإعادته ..... ٤٨
- يبدأ الخلق ثم يعيده: ..... ٤٨
- كما بدأكم تعودون: ..... ٥٠
- المطلب السادس: أول خلق، وخلق جديد، والخلق الأول، وخلق آخر ..... ٥٢
- أول خلق (كما بدأنا أول خلق نعيده): ..... ٥٢
- مع المفسرين: ..... ٥٢
- التحقيق في المسألة: ..... ٥٤
- (خلق جديد): ..... ٥٨
- (الخلق الأول): ..... ٦١
- ثم أنشأناه خلقاً آخر: ..... ٦٢
- خلقاً من بعد خلق: ..... ٦٣
- سرد الآيات الدالة على أن خلق النسل مرحلتان: ..... ٦٣
- أولاً: (تسمية المرحلة)، ..... ٦٤
- ثانياً: مكونات المخلوق، ..... ٦٥
- ثالثاً: غيوض الأرحام وما تزداد ..... ٦٦
- رابعاً: وصف الرحم بأنه (مستقر ومستودع) ..... ٦٦

- ٦٨ ..... من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة:
- ٧٠ ..... الخلق الأول والخلق الآخر:
- ٧٠ ..... الفرق بين الرحم والبطن:
- ٧٢ ..... وهنا على وهن:
- ٧٥ ..... المطلب السابع: الزيادة في الخلق
- ٧٥ ..... يزيد في الخلق ما يشاء:
- ٧٨ ..... وزادكم في الخلق بسطة:
- ٨٢ ..... المطلب الثامن: التنكيس في الخلق
- ٨٢ ..... (مع المفسرين):
- ٨٣ ..... التحقيق في الآية:
- ٨٣ ..... أولاً، دلالة التعمير في القرآن الكريم
- ٨٤ ..... ثانياً: مفهوم الأجل،
- ٨٦ ..... ثالثاً: حالات التوفي
- ٨٨ ..... رابعاً: الدلالة على الهرم
- ٨٨ ..... خامساً: لفظ (الخلق) معرفة
- ٨٩ ..... سادساً: مفهوم التنكيس
- ٩٠ ..... سابعاً: سياق الآيات:
- ٩٢ ..... ثامناً: دلالة الآية:
- ٩٣ ..... تاسعاً: التنكيس في الخلق سيكون في الآخرة: ...
- ٩٧ ..... المطلب التاسع: وربك يخلق ما يشاء ويختار
- ١٠١ ..... المطلب العاشر: تراكيب أخرى
- ١٠١ ..... وما كنا عن الخلق غافلين:
- ١٠٣ ..... (أعطى كل شيء خلقه):
- ١٠٤ ..... المبحث الثاني: عملت أيدينا

المطلب الأول: (مما عملت أيدينا) تفسير الآية ومفهومها

١٠٤.....

أولاً: الفرق بين (خلق) و(خلق من): ١٠٤.....

ثانياً: تفسير قوله: (مما عملت أيدينا): ١٠٦.....

ثالثاً: (ما الأصول السابقة)؟ ١٠٨.....

رابعاً: (أكبر من خلق الناس) ١٠٩.....

المطلب الثاني: الماء والتراب وعلاقتهما بأصل الخلق ١١١.....

أولاً: الماء مخلوق قبل السماوات والأرض: ١١١.....

ثانياً: الماء أصل / أو سبب لكل شيء حي ١١٣.....

(١): ما يتعلق بسبب الأصل: ١١٣.....

الآية الأولى: (وجعلنا من الماء كل شيء حي):

١١٣.....

الآية الثانية: (وهو الذي خلق من الماء بشرا):

١١٧.....

الآية الثالثة: (خلق كل دابة من ماء) ١١٨.....

(٢): ما يتعلق ببيان السبب ١٢٠.....

ثالثاً: ما أصل كل شيء إذن؟ ١٢١.....

(١) التراب أصل للبشر: ١٢١.....

(٢) هل التراب أصل كل شيء؟ ١٢٣.....

(٣) (إشكال والإجابة عنه): ١٢٧.....

المبحث الثالث: (فَطَرَ) في القرآن الكريم ١٣٠.....

المطلب الأول: مفهوم (فطر) واستخدامها في القرآن الكريم

١٣١.....

الدلالة اللغوية: ١٣١.....

- ١٣٢..... استخدامها في القرآن الكريم:
- ١٣٢..... الصيغ المستخدمة:
- ١٣٢..... دلالات استخدام القرآن لـ(فطر):
- ١٣٥..... المطلب الثاني: (فِطْرَةُ اللَّهِ)
- ١٣٥..... (مع المفسرين):
- ١٣٧..... (التحقيق في المسألة):
- ١٣٧..... المراحل الدالة على الفطرة:
- ١٣٩..... الفطرة والأمانة التي حملها الإنسان:
- ١٤٠..... إني جاعل في الأرض خليفة:
- ١٤٢..... القدرة على الانتفاع بالأعضاء:
- ١٤٤..... الفطرة نظام خَلَقِي:
- ١٤٥..... المنتفع بهذا النظام وغير المنتفع به:
- ١٤٨..... المطلب الثالث: الأمانة:
- ١٤٨..... ما الأمانة إذن؟
- ١٤٩..... الأمانة وديعة مستردة:
- ١٥٣..... (ولقد كرّمنا بني آدم):
- ١٥٥..... المطلب الرابع: لا تبديل لخلق الله:
- ١٥٥..... لا تبديل لخلق الله:
- ١٥٦..... فليغيرن خلق الله:
- ١٥٧..... الفرق بين التبديل والتغيير:
- ١٥٩..... المبحث الرابع: (جعل) في القرآن الكريم
- ١٦٠..... المطلب الأول: الدلالة العامة لـ (جعل)
- المطلب الثاني: استخدام ودلالات (جعل) في القرآن الكريم
- ١٦٣.....

أولاً: التصيير: ١٦٣.....

(١) حين يكون لها مفعولان: ١٦٣.....

(٢) [جعل على]، ١٦٤.....

(٣) [جعل تحت/فوق]، ١٦٥.....

(٤) [جعل بعد]، ١٦٦.....

(٥) [جعل مع]، ١٦٦.....

(٦) [جعل لـ]، ١٦٦.....

(٧) [جعل من]، ١٦٧.....

ثانياً: الظرفية: ١٦٨.....

(١) [جعل في]، ١٦٨.....

(٢) [جعل بين]، ١٦٨.....

(٣) [جعل أمام/خلف]، ١٦٩.....

(٤) [جعل حيث]، ١٦٩.....

المطلب الثالث: استخدام (جعل) التي بمعنى (خلق) ١٧٠.....

أولاً: الصيرورة: ١٧٠.....

(١) [حين يكون لها مفعولان]، ١٧٠.....

(٢) [جعل تحت]، ١٧١.....

(٣) [جعل بعد]، ١٧١.....

(٤) [جعل لـ]، ١٧١.....

(٥) [جعل من]، ١٧٢.....

ثانياً: الظرفية: ١٧٥.....

(١) [جعل في]، ١٧٥.....

(٢) [جعل خلال]، ١٧٦.....

(٣) [جعل بين]، ١٧٦.....



- المطلب الرابع: قوله ( وجعل الظلمات النور) ١٧٧.....
- المطلب الخامس: موازنة بين استخدام (خلق) و(جعل) ١٨١..
- المبحث الخامس: (أنشأ) و(ذراً) و(برأ) و(بثّ) في القرآن الكريم
- ١٨٤.....
- المطلب الأول: (أنشأ) في القرآن الكريم ١٨٤.....
- أولاً: دلالة الإنشاء في المعاجم: ١٨٤.....
- ثانياً: دلالة الإنشاء وإيضاحها: ١٨٥.....
- ثالثاً: النشأة الأولى والنشأة الأخرى: ١٨٧.....
- رابعاً: أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع: ١٨٨
- خامساً: هو أنشأكم من الأرض: ١٩٢.....
- سادساً: كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين: ١٩٣.....
- سابعاً: مفعولات الإنشاء في القرآن الكريم: ١٩٤.....
- (١) الإنسان وأجزأؤه: ١٩٤.....
- (٢) نساء أهل الجنة: ١٩٤.....
- (٣) القرون من الناس: ١٩٤.....
- (٤) النبات والأنعام: ١٩٥.....
- المطلب الثاني: (ذراً) في القرآن الكريم ١٩٧.....
- أولاً: ذراً في المعاجم: ١٩٧.....
- ثانياً: دلالة (ذراً) وإيضاحها: ١٩٧.....
- ثالثاً: ولقد ذرأنا لجهنم: ١٩٨.....
- رابعاً: ذراً من الحرث والأنعام: ١٩٨.....
- خامساً: يذرؤكم فيه: ١٩٩.....
- المطلب الثالث: (برأ) في القرآن الكريم ٢٠١.....
- أولاً: برأ في المعاجم: ٢٠١.....

- ٢٠٢..... ثانياً: دلالة (برأ) وإيضاحها:
- ٢٠٢..... ثالثاً: من قبل أن نبرأها:
- ٢٠٤..... رابعاً: البارئ:
- ٢٠٦..... المطلب الرابع: بثّ
- ٢٠٦..... أولاً: الدلالة اللغوية والمصطلحية:
- ٢٠٩..... ثانياً: استخدام اللفظ في القرآن الكريم:
- ٢١٢..... ثالثاً: (بث) المسندة إلى الله تعالى
- ٢١٦.. المبحث السادس: (أنبت)، و(حفّ)، و(زرع) في القرآن الكريم
- ٢١٦.... المطلب الأول: الدلالة اللغوية والمصطلحية ل(أنبت)
- ٢١٦..... أولاً: الدلالة اللغوية:
- ٢١٦..... ثانياً: الدلالة المصطلحية عند المتقدمين:
- ٢١٧..... ثالثاً: النبات عند المعاصرين:
- المطلب الثاني: استخدام القرآن الكريم ل(نبت) ومشتقاتها
- ٢٢٠.....
- ٢٢٠..... أولاً: استخدام القرآن للفظ النبات:
- ٢٢٢..... ثانياً: سياق (الإنبات) المسند إلى الله:
- ٢٢٥..... المطلب الثالث: مفهوم (الإنبات) المسند إلى الله
- ٢٢٥.: أولاً: المفهوم العام ل(الإنبات) المسند إلى الله تعالى:
- ٢٢٧..... ثانياً: الفرق بين أنبت به، وأنبت فيها:
- ٢٣١..... ثالثاً: الفرق بين أنبت، وأخرج نبات..:
- ٢٣٢..... المطلب الرابع: (زرع) و(حرث) في القرآن الكريم
- ٢٣٢..... أولاً: الدلالة اللغوية:
- ٢٣٤.... ثانياً: استخدام (زرع) و(حرث) في القرآن الكريم
- ٢٣٦..... ثالثاً: الفرق بين (حرث) و(زرع):

- ٢٣٩..... رابعاً: أفريتم ما تحرثون:
- ٢٤٠..... خامساً: نساؤكم حرث لكم:
- ٢٤١..... سادساً: حرث الدنيا وحرث الآخرة:
- ٢٤٥..... المطلب الخامس: (حفّ) في القرآن الكريم
- ٢٤٥..... أولاً: الدلالة اللغوية:
- ٢٤٥..... ثانياً: استخدام القرآن الكريم للفظ
- ٢٤٦..... وحفظناهما بنخل:
- ٢٤٨..... المبحث السابع: (فجر) و(فتق ورتق) في القرآن الكريم
- ٢٤٩..... المطلب الأول: فجر
- ٢٤٩..... أولاً: الدلالة اللغوية:
- ٢٥١..... ثانياً: التحقيق في دلالة (فجر) ومشتقاتها:
- ٢٥٣..... ثالثاً: استخدام القرآن الكريم للفظ:
- ٢٥٥..... رابعاً: (فجر) المسندة إلى الله
- ٢٥٥..... الأولى: دفع الماء المنحبس (وفجرنا نهرا)
- ٢٥٥..... الثانية: تصديق الأرض
- ٢٥٥..... (وفجرنا الأرض عيونا)
- ٢٥٧..... وإذا البحار فجرت:
- ٢٥٩..... وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار:
- ٢٦١..... خامساً: (فجر) المسندة إلى البشر
- ٢٦١..... يفجرونها تفجيرا:
- ٢٦١..... فتفجر الأنهار:
- ٢٦٤..... سادساً: فجر الإنسان فجوراً:
- ٢٦٤..... ١/ الحافظ التدبير:
- ٢٦٤..... ٢/ الحافظ الابتلائي:

- واقٍ من الله: ..... ٢٦٩
- ليفجر أمامه: ..... ٢٧١
- المطلب الثاني: فتق ورتق ..... ٢٧٤
- أولاً: الرتق: ..... ٢٧٤
- ١/ في معاجم اللغة: ..... ٢٧٤
- ٢/ في كتب التفسير: ..... ٢٧٤
- ٣/ التحقيق في دلالة اللفظ: ..... ٢٧٥
- ثانياً: الفتق: ..... ٢٧٨
- ١/ في معاجم اللغة: ..... ٢٧٨
- ٢/ التحقيق في دلالة اللفظ: ..... ٢٨١
- أ: الشيء المفتوق ..... ٢٨١
- ب: طبيعة الفتق: ..... ٢٨٢
- ج: بم يكون الفتق؟ ..... ٢٨٣
- ٣/ بيان الآية (كانتا رتقا ففتقناهما): ..... ٢٨٤
- المبحث الثامن: (بديع) و(صنع) في القرآن الكريم ..... ٢٨٦
- المطلب الأول: بديع ..... ٢٨٦
- أولاً: الدلالة اللغوية والمصطلحية: ..... ٢٨٦
- ثانياً: استخدام اللفظ في القرآن الكريم ..... ٢٨٨
- ثالثاً: بديع السماوات والأرض: ..... ٢٨٩
- المطلب الثاني: صنُع ..... ٢٩٦
- أولاً: الدلالة اللغوية والمصطلحية: ..... ٢٩٦
- ثانياً: استخدام القرآن الكريم للفظ: ..... ٢٩٧
- ثالثاً: التحقيق في دلالة اللفظ: ..... ٢٩٩
- رابعاً: صنع المسندة إلى الله: ..... ٣٠٢

قوله: صنع الله الذي أتقن كل شيء: ٣٠٢.....

قوله: ولتصنع على عيني: ٣٠٤.....

خامساً: وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا: ٣٠٩.....

## مقدمة:

أدرس في هذا البحث (أفعال الخلق في القرآن الكريم). وقد درست: خمسة عشر لفظاً، وهي: خلق، وعملت أيدينا، وفطر، وجعل، وأنشأ، وذرأ، وبرأ، وبث، وأنبت، وحفّ، وزرع، وفجّر، وفتق، وبديع، وصنع. وهذا عدا عن الألفاظ المتصلة بها.

وهذه دراسة معجمية في الأساس، إلا أنني توسعت في دراسة بعض الألفاظ دراسة موضوعية. وكان تركيزي في وجه إسناد هذه الأفعال إلى الله سبحانه وتعالى، وقد توسعت أحياناً في بعض الآيات، ذات الصلة بالدراسة.

اللهم أنتَ فطرتنا، وأنشأتنا من الأرض، وبثتتنا فيها، وأنتَ أنشأتنا من نفس واحدة، وأنشأت لنا من الأنعام ومن كل الثمرات، آمنّا بك، وبما أعددت لمن آمن، فلا تجعلنا ممن ذرأتهم لجهنم، ولا تحشرنا على وجوهنا عمياً وبكماً وصماً. وأسكننا في جنتك وارفعنا فيها.

عبد المجيد محمد علي الغيلي

الرياض

جمادى الثانية - ١٤٣٤هـ / أبريل ٢٠١٣م

abdmmys81@hotmail.com

## خلاصة الدلالات:

- الخلق: الإنشاء الأول للشيء، في طورٍ ما.
- الخالق: هو الذي يخلق الشيء، والخالق: هو الذي يقدر على الخلق بدءاً وإعادة.
- البدء في الخلق: هو خلق أصل الشيء لا نسله، أما الخلق: فهو خلق أصل الشيء ونسله. وأما الإعادة، فهي الإنشاء الثاني لأول خلق.
- أول خلق: هو خلق الأصل لا النسل، والإعادة تكون مثل خلق الأصل.
- خلق جديد: مغاير تماماً للخلق الذي عليه الإنسان.
- الخلق الأول: المرحلة الأولى في خلق الجنين.
- خلق آخر: المرحلة الثانية في خلق الجنين.
- الفطر: بدء خلق الشيء، مزوداً بنظام قابلية الفطرة.
- الفطرة: هي إنشاء خاصية الانتفاع بالأعضاء في الإنسان، وهي خاصية تمكنه من تسخير المخلوقات، والانتفاع بها في الخلافة في الأرض.
- جعل (الدالة على الخلق): خلق الشيء مع بيان صيرورته أو ظرفيته.
- الإنشاء: بدء في خلق أول الشيء وتنميته، أو إعادة أوله.
- الدرء: خلقٌ كثيرٌ مبثوثٌ من الشيء الواحد.
- البرء: إظهار شيءٍ مخلوقٍ لم يكن ظاهراً.

- البتّ: إظهار نسل الدواب من أصولها، وتضيقها
- إنبات الله للشيء: خلق الشيء من الأرض، بالماء، وتنميته شيئاً فشيئاً.
- فجّر: إخراج الماء المنحبس في الأرض، بدفعه، أو تصديع الأرض.
- فتق: شق الجرم، كما يشق النسيج، وهذا الشق يبدأ بفرجة تتسع شيئاً فشيئاً، حتى تصبح شديدة الاتساع.
- البديع هو: البادئ الأول في خلق أول المخلوقات.
- الصنع: إتقان الفعل، مع العلم التام بأسبابه ونتائجه ومآلاته (والفعل يشمل: الخلق والأمر).





## المبحث الأول: (خلق) في القرآن الكريم

سأتناول في هذا المبحث: لفظ (خلق) في القرآن الكريم، وكل التراكيب التي ورد فيها، ودلالاتها المختلفة.

### خلاصة الدلالات:

- الخلق: الإنشاء الأول للشيء، في طورٍ ما.
- الخالق: هو الذي يخلق الشيء، والخالق: هو الذي يقدر على الخلق بدأً وإعادة.
- البدء في الخلق: هو خلق أصل الشيء لا نسله، أما الخلق: فهو خلق أصل الشيء ونسله. وأما الإعادة، فهي الإنشاء الثاني لأول خلق.
- أول خلق: هو خلق الأصل لا النسل، والإعادة تكون مثل خلق الأصل.
- خلق جديد: مغاير تماماً للخلق الذي عليه الإنسان.
- الخلق الأول: المرحلة الأولى في خلق الجنين.
- خلق آخر: المرحلة الثانية في خلق الجنين.
- القرآن الكريم يستخدم لفظ (الأرحام) للدلالة على مرحلة الخلق الأول، فهو قرار للنطفة حتى تتخلق، ويستخدم لفظ (البطن) للدلالة على الخلق الأول والخلق الآخر، ففيه الظلمات، وفيه يكون الخلق الآخر بعد الخلق الأول.
- الرحم مستقر النطفة، تثبت فيه، فيهيئ لها أسباب

الاستقرار، حتى تصبح خلقا آخر. المستودع هو البطن الذي  
يُحفظ فيه الخلق الآخر.



## المطلب الأول: مفهوم (الخلق):

أولاً: المعنى اللغوي لدى اللغويين والمفسرين:

قال الأزهري في تهذيب اللغة: (الخلق في كلام العرب: ابتداء الشيء على مثال لم يُسبَق إليه، وكل شيء خلقه الله فهو مبتدئه على غير مثال سبق إليه).

وقال أبو بكر ابن الأنباري: (الخلق في كلام العرب على ضربين، أحدهما: الإنشاء على مثال أبدعه، والآخر: التقدير، وقوله "أحسن الخالِقين"، أي: أحسن المقدرين، والعرب تقول: "خلقتُ الأديم" إذا قدرته وقسته، لتقطع منه مَزادة أو قربة أو حُفا).

وقال في الصحاح: (الخلق: التقدير، يقال: خلقتُ الأديم، إذا قدرته قبل القطع).

وقال الفخر الرازي: (الخلق التقدير، وكونه تعالى خالقا إشارة إلى صفة العلم)، يقصد أن التقدير لا يكون إلا من عالم بالشيء.

وقال الراغب الأصفهاني في المفردات: (الخلق: أصله: التقدير المستقيم، ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء، ويستعمل في إيجاد الشيء من الشيء. وليس الخلقُ الذي هو الإبداع إلا لله تعالى. والخلق لا يستعمل في كافة الناس إلا على وجهين: أحدهما في معنى التقدير، والثاني: في الكذب نحو قوله: {وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا}

وقال الحرالي: (الخلق: تقدير أمشاج ما يراد إظهاره بعد

الامتزاج والتركيب، صورة).

### ثانياً: التحقيق في الدلالة:

وبتتبع الآيات الكريمة يتبين أن الدلالة الدقيقة للخلق هي: الإنشاء الأول للشيء، وهذه دلالته في اللغة أصلاً، أما "التقدير" فلاحق لذلك، ولذلك نجد القرآن الكريم يستخدم لفظ التقدير بعد الخلق، كقوله: (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا)، وقال (مَنْ نُطْفِئِهِ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ)، وقال (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَرَ فَهَدَى)، وقوله (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ). فثمة تباين دلالي بينهما، وسأتحدث عن لفظ التقدير في موضع آخر إن شاء الله. ولا شك أن الإنشاء الأول يقتضي العلم والقدرة والإرادة.

وأود أن أشير إلى ثلاثة أخطاء ترد بكثرة عند الحديث عن الخلق،

الأول: هو القول بأن الخلق: ابتداء إيجاد الشيء، والصحيح أن نقول: بدء وليس ابتداء، فالله يبدأ الخلق ولا يبتدئه، وسأتحدث عنه عند الحديث على: بدء الخلق.

والخطأ الثاني استخدام لفظ (إيجاد)، والصحيح: إنشاء، كما يتبين لنا في هذا البحث.

والخطأ الثالث: القول بأن الخلق إيجاد الشيء من عدم، فلفظ عدم خطأ محض، والله سبحانه وتعالى يقول غير ذلك، فهو يخبرنا في القرآن الكريم أن من الأشياء ما خلقها من أشياء أخرى،

وسكت عن بعضها، فلا يدل لفظ الخلق على ذلك.

وسأتحدث عن الفرق بين (خلق) و(خلق من)، عند قوله: (عملت أيدينا). حيث بينت أن (خلق) فقط تطرد مع خلق الأصول التي لا نعلم مم خلقت، كالسموات والأرض، وهل خلقت من شيء أو من غير شيء، أما (خلق من) فتأتي مع الأشياء التي لها أصول سابقة مبينة.

### ثالثاً: شرح الدلالة:

إذن تعريف الخلق: الإنشاء الأول للشيء، في طور ما.

(الإنشاء): الخلق إنشاء، كما تبين آيات القرآن الكريم، والقرآن يستخدم لفظ الإنشاء، أما لفظ (الإيجاد) فهو غير مستخدم في القرآن الكريم، والأولى العدول عنه للفظ القرآني، قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)، كما قال: (الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ).

(الإنشاء الأول): الخلق هو الإنشاء الأول، أما إذا كان الإنشاء ثانياً فهو إعادة، قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ). وتجد أن القرآن الكريم يستخدم لفظ (بدأ) مع الخلق، كقوله تعالى: (وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ)، وقوله: (يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)، وقوله: (بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ)، وكذلك لفظ (أول مرة): (وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)، و(لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)، و(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ).

(في طور ما)، يعني أن أي إنشاء أول في أي طور يسمى خلقاً، وإذا

كان ذلك الإنشاء في طور آخر فهو خلق آخر. قال تعالى: (وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا). ودلالة المرحلة واضحة في كثير من الآيات التي تتحدث عن الخلق، كقوله: (يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ)، وقوله: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ)، أي: ثم خلقكم من نطفة، ثم خلقكم من علقة، فالإنشاء الأول في كل طور سماه خلقا. وهذا تفسير قوله (خلقنا من بعد خلق)، وبينت هذه الأطوار سورة المؤمنون: (ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ)، فطور النطفة خلق، وطور العلقة خلق، وطور المضغة خلق، وطور العظام خلق، وطور كساء العظام لحما خلق، ثم تنشئته خلقا آخر خلق.

ولدلالة الطورية في الخلق فإنه يأتي معه بيان المراحل والعدد، كخلق السماوات والأرض في ستة أيام، كما في آيات كثيرة. فإذا اختلف الطور فقد اختلف الشيء، فالنطفة شيء، والعلقه شيء، وهكذا.

## المطلب الثاني: المخلوقات في القرآن:

الأشياء التي جاءت مفاعيل لفعل الخلق في القرآن الكريم، هي:

(١) السماوات والأرض: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)، وما بينهما:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا)، وما فيهما: (إِنَّ فِي

اِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)،

وما في الأرض: (خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا).

(٢) الليل والنهار والشمس والقمر: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ

وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ).

(٣) الإنسان: (خَلَقَ الْإِنْسَانَ)، وجاء بالضمير المفرد والجمع.

(٤) الجن: (وَخَلَقَ الْجَانَّ).

(٥) الأنعام (وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا)، والإبل: (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ

كَيْفَ خَلَقْتُمْ)، وما يركبون: (وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا

يَرْكَبُونَ)، والمقصود بها الأنعام، فلم يذكر سواها من

الحيوانات مقترنا مع الخلق.

(٦) كل دابة: (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ).

(٧) الأزواج: (خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا)، والزوجين: (خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ

الذَّكَرَ وَالْأُنثَى)، والذكر والأنثى (خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى).

(٨) الموت والحياة: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ).

(٩) كل شيء: (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ).

(١٠) من شيء: (أَوْلَمَ يَرَوُا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ)

(١١) ما يشاء: (يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ).

(١٢) ما لا تعلمون: (وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ).

(١٣) (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ).

### [السموات والأرض]

وقع فعل الخلق على: السموات والأرض وما بينهما وما فيهما،  
واطرده ذلك، ولكن لم يقع على المخلوقات التي فيهما.

ومن ثم فلم يقع الفعل على الجبال ونحوها من المخلوقات  
الكائنة في السموات والأرض، فلا تجد في القرآن: خلق الله الجبال أو  
الرواسي، أو الأنهار، أو الأشجار، أو النجوم، أو الظلمات والنور... بل  
تقترب بألفاظ أخرى، غالباً (جعل)، وغيرها، نحو: سَخَّرَ الْقَى، أنشأ...  
الخ.

ولم يرد من ذلك إلا: (الليل والنهار والشمس والقمر) في قوله:  
(لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ)، وقوله  
(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ  
السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ  
يَعْلَمُونَ)، وقوله (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ  
فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ). أما الآية الأولى فقد جاءت لبيان أن السجود لا  
يكون إلا لمن خلق لا لمن خلق، والآية الثانية لبيان أن خلق كل شيء



كان بالحق. والآية الثالثة جاءت في سورة الأنبياء بعد الحديث عن فتق السماوات والأرض.

### [المخلوقات الأخرى]

لم يقع فعل الخلق على شيء مما على الأرض إلا: الإنسان، والجان، ولم يقع على حيوان إلا الأنعام، وفي موطن سمى منها الإبل. ووقع على الزوجية مطلقا، والقرآن الكريم يربط كثيرا بين الإنسان والأنعام والزوجية. ووقع على عمل الإنسان.

كما وقع على الموت والحياة. (وسأتحدث عنه في الإحياء والإماتة).

ويرتبط هذا بما ذكرته في بحثي: السماء والسماوات في القرآن الكريم، حيث تحدثت عن المراحل الفاصلة فيها، والأفعال المستخدمة فيها.

### (يخلق ما يشاء)

وقع فعل الخلق على ما يفيد المشيئة: ما يشاء. فالله خلق ما شاء.

وقد وردت الآيات التي تنص على أن الله يخلق (ما يشاء) في ستة مواضع، آيتان ارتبطت بالقدرة (عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)، وآيتان قرنت بالعلم والقدرة (عَلِيمٌ قَدِيرٌ)، وآية ارتبطت بالقضاء (إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)، وآية بالاختيار (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ).

فإن الله يخلق ما يشاء كيف شاء بعلمه وقدرته وقضائه، وكما يخلق ما يشاء فإنه يختار ما يشاء مما خلق (وسأتحدث عن هذا لاحقاً).

(خلق كل شيء):

وقع فعل الخلق على ما يفيد الاستغراق: كل شيء، من شيء. ووردت الآيات التي تنص على أن الله خلق كل شيء، في مقام الاستدلال على وحدانيته سبحانه وتعالى، وتنزّهه عن اتخاذ الولد والشريك، فهو الذي خلق كل شيء، وليس بحاجة إلى ولد أو شريك.

(من شيء) جاءت في آيتين: (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ)، و(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ)، وكلاهما في سياق الدعوة إلى النظر في ملكوت السماوات والأرض، وما خلقه الله فيهما من شيء. قال الطبري: (وفيما خلق جل ثناؤه من شيء فيهما)، وقال الزمخشري: (وفيما خلق الله مما يقع عليه اسم الشيء)، وقال ابن عطية: (وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ} لفظ يعم جميع ما ينظر فيه ويستدل به من الصنعة الدالة على الصانع ومن نفس الإنس وحواسه ومواضع رزقه، و«الشيء» واقع على الموجودات)، وقال الشوكاني: (أي: لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض ولا فيما خلق الله من شيء من الأشياء كائنا ما كان).

(ويخلق ما لا تعلمون):

قال تعالى: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٤) وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ).

اختلف المفسرون في دلالتها، فبعضهم قال بأن ذلك في الآخرة، في الطبري: (ما لا تعلمون مما أعد في الجنة لأهلها وفي النار لأهلها مما لم تره عين ولا سمعته أذن ولا خطر على قلب بشر).

وبعضهم فسرها بعمومها، قال مكي بن أبي طالب في الهداية: (والأحسن في هذه الآية: كونها على العموم، أن الله يخلق الأشياء لا يعلمها ولا يعرفها [أحد] وأنه هو العالم بها وحده لا إله إلا هو). إلا أن الآية تنفي العلم عن المخاطبين (ما لا تعلمون)، ولا تنفيه عن كل أحد.

قال الزمخشري: (يجوز أن يريد به: ما يخلق فينا ولنا مما لا نعلم كنهه وتفاصيله ويمن علينا بذكره، كما منّ بالأشياء المعلومة مع الدلالة على قدرته. ويجوز أن يخبرنا بأن له من الخلائق ما لا علم لنا به، ليزيدنا دلالة على اقتداره بالإخبار بذلك، وإن طوى عنا علمه لحكمة له في طيه). والقول الأول للزمخشري يخصها بما ينتفع به الناس، والقول الثاني يفسرها بالعموم.

أما الرازي فقد خصها بالأشياء التي لا ينتفع بها الإنسان، يقول: (اعلم أنه تعالى لما ذكر أولاً: أحوال الحيوانات التي ينتفع الإنسان بها انتفاعاً ضرورياً، وثانياً: أحوال الحيوانات التي ينتفع الإنسان بها انتفاعاً غير ضروري، بقي القسم الثالث من الحيوانات وهي الأشياء التي لا ينتفع الإنسان بها في الغالب، فذكرها على سبيل الإجمال، فقال: (ويخلق ما لا تعلمون)، وذلك لأن أنواعها وأصنافها وأقسامها كثيرة خارجة عن الحد والإحصاء).

وقال أبو حيان: (والظاهر نفي العلم عن ذوات ما يخلق تعالى، فقال الجمهور: المعنى ما لا تعلمون من الأدميين والحيوانات والجمادات التي خلقها كلها لمنافعكم، فأخبرنا بأن له من الخلائق ما لا علم لنا به، لنزداد دلالة على قدرته بالإخبار، وإن طوى عنا علمه حكمة له في طيه، وما خلق تعالى من الحيوان وغيره لا يحيط بعلمه بشر. وقال قتادة: ما لا تعلمون أصل حدوثه كالسوس في النبات والدود في الفواكه. وقال ابن بحر: لا تعلمون كيف يخلقه).

وخصها بعض المتأخرين بالأشياء التي تكون من جنس ما ينتفعون به، فتابع الزمخشري، وخالف الرازي، وهو قول السعدي. وبعض المتأخرين كابن عاشور، والشنقيطي، خص تلك المنافع بالمركوبات، وفسر بها ما صنعه الإنسان من وسائل النقل كالطائرات والسيارات والقاطرات...، باعتبار أن الله ألهم الإنسان فكرتها، كما ألهمه صناعة الفلك، وأيضاً لأن موادها من حديد ونحوه هي مما خلقه الله.

وإذا رجعنا إلى الآيات، فس نجد أنها تحدثت أولاً عن خلق السماوات والأرض، ثم عن خلق الإنسان، ثم عن خلق الأنعام التي ينتفع بها الإنسان، ثم قال: (وَيَخْلُقُ مَا لَّا تَعْلَمُونَ)، وبذلك فهو قسيم رابع، ولا يندرج ضمن الحديث عن الأنعام ومنافعها، وبذلك فلا وجه لتخصيصه بالأشياء التي ينتفع بها الناس، سواء بالركوب أو بغيره. ومن حملها على عمومها فقولته أولى، وأنسب للمقام، والمعنى: ويخلق ما لا تعلمون، وقد يعلمه غيركم من البشر، وقد يعلمونه في عصور لاحقة، وقد لا يعلمه البشر ويعلمه غيرهم، وقد لا يعلمه أحد من خلقه. فالآية عامة ولا وجه لتخصيصها.

### (والله خلقكم وما تعملون):

قوله تعالى: (قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)

المقولة جاءت على لسان خليل الله إبراهيم عليه السلام يخاطب قومه. وقد اختلف المفسرون، في (ما) من قوله: وما تعملون، فذهب بعضهم إلى أنها موصولة، والتقدير: والله خلقكم وخلق الذي تعملون، أي: الأوثان التي تعملونها. وذهب بعضهم إلى أنها مصدرية، والتقدير: خلقكم وخلق أعمالكم. وهناك من قدرها استفهامية أو نافية، وهي تقديرات ضعيفة. وأغلب المفسرين والمحققين يرجحون كون (ما) موصولة، ويعرضون أدلتهم، ويمكن الرجوع إلى ذلك في كتب التفسير، وابن تيمية في منهاج السنة النبوية.

والذي يترجح لدي أنها موصولة، كما ذكر المفسرون،  
والتقدير: والله خلقكم وخلق أوثانكم التي تنحتونها. ويؤيد ذلك:  
السياق، والاستخدام، والمطرّد في القرآن الكريم، والسرد.

أما السياق، فإن إبراهيم يقول لقومه: أتعبدون هذه الأوثان  
المنحوتة، والله خلقها وخلقكم؟! فالسياق يقتضي أن يكون الإنكار  
منصباً على الأوثان، وأن تكون دلالة الحال متعلقة بها، أي: كيف  
تعبدونها، والحال أنها مخلوقة؟! فالله خلق العابد والمعبود.

قال ابن تيمية:

(ومن قال: إنها مصدرية والمراد والله خلقكم وعملكم فهو  
ضعيف؛ فإن سياق الكلام إنما يدل على الأول؛ لأنه قال: {أتعبدون ما  
تنحتون - والله خلقكم وما تعملون} فأنكر عليهم عبادة المنحوت،  
فالمناسب أن يذكر ما يتعلق بالمنحوت وأنه مخلوق لله... ولأنه لو  
قال: والله خلقكم وعملكم، لم يكن في هذا ما يقتضي ذمهم على  
الشرك، بل قد يقال: إنه إقامة عذر لهم. وذلك لأن الواو في قوله:  
{والله خلقكم وما تعملون} واو الحال. والحال هنا شبه الظرف،  
كلاهما قد يتضمن معنى التعليل، كما يقال: أتذم فلانا وهو رجل  
صالح وتسيء إليه وهو محسن إليك؟ فتقرر بذلك ما يوجب ذمه  
ونهيه عما أنكرته عليه. وهو سبحانه ينكر عليهم عبادة ما ينحتون،  
فذكر قوله: {والله خلقكم وما تعملون} متضمناً ما يوجب ذمهم  
على ذلك ونهيهم عنه، وذلك كون الله تعالى خلق معمولهم، ولو  
أريد والله خلقكم وعملكم الذي هو الكفر وغيره، لم يكن في ذلك ما

يناسب ذمهم، ولم يكن في بيان خلق الله تعالى لأفعال عباده ما يوجب ذمهم على الشرك).

وأما استخدام القرآن الكريم، فيأتي هذا في عديد من الآيات التي تنكر عبادة آلهة هي مخلوقة، كقوله تعالى: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ)، أي: والحال أنه خلق الجن، فكيف يكون المخلوق شريكا للخالق؟! وكقوله: (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَأَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ)، وقوله: (أَيُشْرِكُونَ مَا لَأَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ)، أي: والحال أنهم يُخلقون فكيف يكونون آلهة يشتركون مع الخالق!؟

وأما المطرد في القرآن الكريم، فإن فعل الخلق لم يقع على عمل الإنسان، وكل ما وقع في القرآن الكريم فقد وقع على الذوات، أو كان مطلقا على ما يشمله لفظ الشيء، ووقع على الموت والحياة لوهما لا ندري كنههما!.

وأما السرد، فقصة إبراهيم في القرآن الكريم، تبين أن إبراهيم كان يركز أثناء إنكاره على قومه في الأوثان التي ينحتونها، وقال لهم: (إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا)، (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ)، (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ)، ومن ثم فهو يخبرهم أن ما ينحتونه إنما خلقه الله فكيف يصير معبودا، ولا يريد إخبارهم أن عملهم يخلقه الله، فهذا يأباه السياق والمعنى.

وعليه ففعل الخلق في الآية لم يقع على عمل الإنسان، ولا يوجد في القرآن الكريم دليل صريح على أن عمل الإنسان مخلوق.

وبعضهم استدل بقوله: (وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ)، على أن الفلك مخلوق، وهذا استدلال غير صحيح ففعل الخلق، لم يقع على الفلك، وإنما وقع على الأنعام، والمعنى: وخلقنا لهم من الأنعام ما يركبون، والأنعام هي (مثل الفلك)، كما قال: (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ).

ولا دلالة على الخلق في مثل قوله: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ)، قال بعضهم: بأن فعل الخلق وقع عليها، وكلها مصنوعات لبني آدم. وهذا غير صحيح، فالآية تتحدث عن تصييرها كذلك، وليس عن خلقها، وسأبسط القول فيها عند الحديث عن (جعل).

وهناك أدلة أخرى ليس هذا مقام ذكرها، إلا أن الخلاصة أن القرآن الكريم لم يتحدث عن خلق أفعال العباد، لا بإثبات ولا بنفي، ولم يرد ما يدل على ذلك مع أي من الأفعال التي استخدمها القرآن الكريم للدلالة على الخلق. وقد بليت الأمة بخلاف طويل الذيل حول هذه القضية، ونحن في غنى عن جر أذيالها، فلا نقول أن الله خلق أفعال العباد، ولا نقول: أن الله لم يخلقها، فكلهما قول ليس عليه إثارة بينة من الكتاب العظيم، وهو جدل لفظي، ومن غير



الصحيح أن نجعل (الفاعل الإنساني في مقصلة ثنائية)، فيما نقول بهذا أو بهذا!! فمن الخطأ إيقاع الخلق على فعل الإنسان. والقرآن الكريم يقول: (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)، فلماذا نقول: وما تفعلون إلا ما يخلقه الله؟

يسعنا أن نقول كما قال تعالى: (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ)، وأن نقول: (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ)، وأن نقول: (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا)، مع إقرارنا بأن للعبد مشيئة وإرادة وقدرة، وأنه لا يشاء العبد إلا أن يشاء الله. (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ).

ولهذه القضية بحث آخر إن شاء الله.

### (مَنْ خَلَقَ، وَمَا خَلَقَ):

لم يرد في القرآن الكريم لفظ: المخلوق، أو المخلوقات، وإنما وردت الدلالة عليهما بصيغة أخرى، وهي: المجيء بـ(من/ما) قبل الفعل.

ومن أمثله [من خلق]: (بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)، (وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً)، (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاَهُمْ فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)، (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)، (فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا). [ما خلق]: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا)، (وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١))

مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)، (لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا  
وَأَنَاسِيًّا كَثِيرًا).

وكذلك المجيء بالمصدر (خلق)، كما في قوله: (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ  
فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ)، فهو يشير إلى مخلوقاته: السماوات  
وما خلق في الأرض.



## المطلب الثالث: المفرد والجمع: خالق، خلاق، خالقون

### الخالق والخالق:

الخالق هو الذي يخلق الشيء، والخلاق: هو الذي يقدر على الخلق بدءاً وإعادة، ف(الخالق) يتعلق بالفعل، و(الخلاق) يتعلق بالقدرة على الفعل، ولا يستخدم إلا في إثبات القدرة، لا في الفعل.

قال تعالى: (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ). فاقترن مع القدرة على الإعادة، وليس مع الخلق نفسه. وقد ورد (الخلاق) في القرآن مرتين، هذه الآية في يس، وفي الحجر: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)، وكلاهما مقترن بالقدرة على الإعادة، كما هو واضح في يس، وفي الحجر جاء مقترنا بمجيء الساعة، فالمنى: إن الساعة آتية، ولا تظنوا أن الله يعجزه إعادة خلقكم، فربك هو الخلاق العليم (أي القادر على إعادة الخلق).



## الخالق والخالقون:

هذا ولم يرد لفظ الخلق في القرآن الكريم إلا منسوبا إلى الله،  
إلا في ثلاثة مواضع،

### تخلق من الطين كهيئة الطير:

الأول، نسبته إلى عيسى (وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَيْدِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِأَيْدِي)، وقوله: (وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ). وقد فسر المفسرون الآية على التصوير، قال ابن عباس: (أخذ طينا، وصنع منه خفاشا، ونفخ فيه، فاذا هو يطير). وبعضهم فسرها بالتقدير، قال أبو السعود: (أي: أقدّر لكم أي لأجل تحصيل إيمانكم ودفع تكذيبكم إياي من الطين شيئا مثل صورة الطير).

والذي يبدو أن الخلق على معناه، وهو الإنشاء، فالله منحه القدرة على أن ينشئ من الطين لوهو مادة الأصل للطير، ينشئ كهيئة الطير، ثم ينفخ فيه فيصير طيرا. فهو لم يقل أنه خلق لهم من الطين طيرا، بل قال: (كهيئة الطير)، وهذا يدل على أن البشر لا ينشئون الشيء على غير مثال، بل على مثال موجود وسابق، أما الله فهو الذي ينشئ الأشياء على غير مثال. ومن ثم فمن غير الصحيح القول أن عيسى خلق طيرا، بل نقول: خلق كهيئة الطير، ثم نفخ فيه فصار طيرا.

## وتخلقون إفاكا:

والثاني قول إبراهيم لقومه: (وإبراهيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَانْتَفُوا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)، فقوله (تخلقون إفاكا)، قال الطبري: (واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: (وَتَخْلُقُونَ إِفكًا) فقال بعضهم: معناه: وتصنعون كذبا. وقال آخرون: وتقولون كذبا. وقال آخرون: بل معنى ذلك: وتنحتون إفاكا لأي: أوثانا)، ونقل قول ابن عباس: (تنحتون تصورون إفاكا)، وقول ابن زيد (الأوثان التي ينحتونها بأيديهم). وقال الزمخشري: (واختلافهم الإفاك: تسميتهم الأوثان آلهة وشركاء لله أو شفعاء إليه. أو سمي الأصنام: إفاكا، وعملهم لها ونحتهم: خلقا للإفاك).

والأولى كما يبدو أن تظل (تخلقون) على معناها دون تحويلها إلى اختلق، وتفسير ابن عباس هو الأولى، فتخلقون إفاكا، أي: تنشئون أوثانا وتتخذونها آلهة، فكأنهم خلقوا آلهتهم!! وهو تعجيب من حالهم، فبدلاً من أن يعبدوا من يخلقهم إذا بهم يخلقون من يعبدونه، وهي صورة تدعو إلى العجب. ويدل على سياق الآية، فإبراهيم يقول لهم: أنكم تعبدون أوثانا، وهذه الأوثان أنتم من خلقها وهي إفاك وباطل، ثم بين لهم ذلك التناقض فقال: إن هذه الأوثان التي تخلقونها لا تملك لكم رزقا، فكيف تعبدونها؟! وهكذا كقوله: (قَالَ اتَّعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ). فالخلق في الآية بمعناه: الإنشاء الأول، فهو يقول لهم: أن هذه الآلهة التي تعبدونها

أنتم من أنشأها، ولم ينشئها أحد قبلكم، ثم تعبدونها!!

### لم يخلق مثلها في البلاد:

والموضع الثالث قوله: (إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)، فالى أين يعود الضمير في قوله (مثلها). هناك قولان لأهل التفسير، قال الطبري أنه يعود على عاد، والمعنى: (لم يخلق مثل [عادا] في العظم والبطش والأيد). ثم نقل الطبري عن بعضهم عودة الضمير إلى (ذات العماد)، أي: (لم يخلق مثل الأعمدة في البلاد). ولخص ذلك ابن الجوزي: (وفي المشار إليها قولان: أحدهما: لم يخلق مثل تلك القبيلة في الطول والقوة، وهذا معنى قول الحسن. والثاني: المدينة لم يخلق مثل مدينتهم ذات العماد، قاله عكرمة.)

وسياق الآيات واضح أنه يتحدث عن المدينة لا عن القبيلة، وعن أفعال فعاد بنو مدينة ذات أعمدة، لم يخلق مثل مدينتهم في البلاد، وشمود جابوا الصخر فنحتوا بيوتا، وفرعون بنى مدينة ذات أوتاد... فالسياق كله عن ما شيده أولئك. كما أن لفظ (البلاد) لا يدل على الأرض، كقوله (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ).

وعليه فقوله (لم يخلق مثلها في البلاد)، أي: مثل مدينتهم. فلماذا استخدم لفظ (يخلق)؟ لعل ذلك والله أعلم يكشف لنا عن تلك المدينة التي بناها أهلها، واعتقادهم أنهم خالدون فيها، ومن ثم فقد شيدها تشييد من يعتقد أنه يخلق لا يبني، وهذا ما قاله هود عليه السلام لهم: (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ

لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)، وقد بلغ من كبريائهم أنهم اعتقدوا في أنفسهم قوة الخالق وقدرته، فقالوا: (فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً)، أي ذ(الذي خلقهم) هو أشد منهم قوة، وهم اعتقدوا أنهم خالقون وأنهم أشد قوة في الأرض. ولذلك فقد كانت عقوبتهم هي تدميرهم وإبقاء مساكنهم، وفي هذا تهكم بهم وآية لمن بعدها، فأبقى ما اعتقدوا أنهم خلقوه، ودمر ذلك (الخالق) المزعوم، قال تعالى: (تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ)، وقال عن الريح (تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ)، وقال: (وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوهَا أَهْلِ الْبَرِّ صِرَاصٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ) فأى خالق هذا؟! وأي مخلوق ذاك!؟

### أحسن الخالقين:

الموضع الرابع قوله (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)، وقوله (أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ)، وقد اختلف المفسرون في ذلك، فقيل: أحسن الصانعين، فالخالق صانع، وقيل: أحسن المقدرين، من الخلق بمعنى التقدير، وقيل إنه ذكر ذلك لأن عيسى كان يخلق. وهناك قولان جديران بالاعتبار، أولهما ذكره مكي ابن أبي طالب في الهداية، قال: (وقيل المعنى، أن المشركين صنعوا تماثيل ولا ينفخون فيها الروح فخلق الله آدم ونفخ فيه الروح، فهو أحسن الصانعين، إذ لا يطيق أحد نفخ الروح غيره). والثاني ذكره الرازي في تفسيره نقلا عن أحدهم: (فوجب حمل هذه الآية على أنه أحسن

الخالفين في اعتقادكم وظنكم، كقوله تعالى: (وهو أهون عليه) أي هو أهون عليه في اعتقادكم وظنكم).

والذي يترجح لي ما ذكره الرازي ومكي، من أن الآية جرت على ما يعتقدونه، حيث يعتقدون أن ثمة من يخلق، وتقدم معنا قول إبراهيم لقومه (وتخلقون إفاكا)، فهم اعتقدوا أنهم بنحتهم التماثيل يخلقونها، فالمعنى: أن الله هو الخالق ولا خالق غيره، وهذا خلقه فماذا خلق الخالقون من دونه كما تعتقدون، كما قال: (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)، أي فهم ظالمون حين يعتقدون أن ثمة خالقا غير الله. وقال: (أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)، فالخطاب جرى بما تشابه عليهم، أي: هل تشابه عليهم الأمر فظنوا أن ثمة خالقين آخرين. ومنه قوله: (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَّا يُوقِنُونَ)، وقال: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ) أي: فالله أحسن من هؤلاء الذين تعتقدون، فلو كان هناك خالقون فماذا خلقوا؟

وقد نفي نسبة الخلق إليهم مطلقا، قال تعالى: (أَيُشْرِكُونَ مَا لَّا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ)، وقال (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ)، (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ). وأعجزهم عن أن يخلقوا حتى ذبابا (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ



الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ).

**أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون:**

وأما قوله: (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ)، فقد جرى مجرى المقابلة للمخاطبين، فهو يقول لهم: أنتم الخالقون أم نحن الخالقون؟!، كما يقول مدير شركة لموظفين يعترضون على قراراته: أنتم المديرون أم نحن المديرون؟! وهذا جار مجرى استخدام العرب للغتهم، في التعبير بالجمع عن الواحد، إذا اقتضى المقام ذلك. ولذلك جاء في سياق هذه الآيات كلها الحديث بلفظ الجمع: (أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ)، (أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ)، (أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ).

وأما قول من قال من المفسرين، أنه جمع (أحسن الخالقين)؛ باعتبار أن عيسى كان خالقا، فهذا القول لا يصح، فعيسى لم يكن خالقا، وإنما قال الله عنه أنه (يخلق من الطين)، فالفعل يدل على الحدوث، أما اسم الفاعل فيدل على الحدوث والثبوت، كما قال بعض النحاة. فإسناد الفعل إلى الفاعل لا يدل على أن ذلك الفاعل ثبت اتصافه بالصفة، وإنما يدل على حدوثها منه. فالخالق هو من ينشئ الشيء لأول مرة على غير مثال، وهو من ينشئه بقدرته وعلمه وقوته وإرادته، فصفة الخلق ثابتة له، أما عيسى - عليه السلام - فأنشأ من الطين على مثال، وأنشأه بإذن ربه، فالله منح عيسى القدرة على الفعل، ولا يعني ذلك أنه أصبح خالقا.

## المطلب الرابع: إضافة الخلق إلى (الله، الرحمن)

خلق الله:

أضيف (خلق) إلى فاعله لفظ الجلالة (الله) في ثلاثة مواضع، وهي قوله في النساء: (وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَأَمْرُنُهُمْ فَلَيُبْتِئَنَّ أَذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَأَمْرُنُهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ)، وفي سورة الروم: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)، وفي سورة لقمان: (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ).

**فليغيرن خلق الله:**

أما آية لقمان، فلفظ الخلق على معناه، وقد أوله بعضهم بالمصدر، قال ابن كثير: (أي: هذا الذي ذكره تعالى من خلق السموات، والأرض وما بينهما، صادر عن فعل الله وخلقته وتقديره، وحده لا شريك له في ذلك). وأوله بعضهم على أنه مفعول، كأبي حيان والشوكاني وغيرهما، أي: هذه مخلوقات الله، فأروني المخلوقات التي خلقها من دونه.

**لا تبديل لخلق الله، هذا خلق الله:**

وأما (خلق الله) في سورتي النساء والروم، فقد اختلف المفسرون في دلالتها، فبعضهم فسرها بمعنى الخلق، وبعضهم فسرها بمعنى: دين الله.

قال ابن الجوزي في تفسير آية النساء: (وفي المراد بتغيير "خلق الله" خمسة أقوال: أحدها: أنه تغيير دين الله. وقيل: معنى تغيير

الدين: تحليل الحرام وتحريم الحلال. والثاني: أنه تغيير الخلق بالخصاء. والثالث: أنه التغيير بالوشم. والرابع: أنه تغيير أمر الله. والخامس: أنه عبادة الشمس والقمر والحجارة، وتحريم ما حرموا من الأنعام، وإنما خلق ذلك للانتفاع به).

فمن فسرها بتغيير خلق الله، حملها على ثلاثة وجوه،

الأول: التغيير الظاهر، كإخصاء البهائم، أو قطع الآذان، أو فقء العيون، أو غيره من التغيير الظاهر كالوشم ووصل الشعر، قال ابن عطية: (وملاك تفسير هذه الآية: أن كل تغيير ضار فهو في الآية، وكل تغيير نافع فهو مباح).

والوجه الثاني: تغيير منفعة الخلق، قال الرازي في بيان هذا الوجه: (حكى الزجاج عن بعضهم أن الله تعالى خلق الأنعام ليركبوها ويأكلوها فحرموها على أنفسهم كالبحائر والسوائب والوصائل، وخلق الشمس والقمر والنجوم مسخرة للناس ينتفعون بها فعبدها المشركون، فغيروا خلق الله).

والوجه الثالث: تغيير وظيفة الخلق، فقالوا بأنه: التخث أو السحاق، قال الرازي في بيانه: (التخث عبارة عن ذكر يشبه الأنثى، والسحق عبارة عن أنثى تشبه الذكر). وقال أبو حيان: (وقيل: تغيير خلق الله هو أن كل ما يوجده الله لفضيلة فاستعان به في رذيلة فقد غير خلقه. وقد دخل في عمومه ما جعله الله تعالى للإنسان من شهوة الجماع ليكون سببا للتناسل على وجه مخصوص، فاستعان به في السفاح واللواط، فذلك تغيير خلق الله. وكذلك المخث إذا نتف

لحيته، وتقنع تشبها بالنساء، والفتاة إذا ترجلت متشبهة بالفتيان.)

والوجه الرابع: وهو تغيير ما فطر الله عليه خلقه، وقد قال بذلك الرازي رحمه الله، وخلاصة قوله: أن الله خلق الناس وفطرهم في الدنيا على صفة معينة، وهي أن يستعدوا لمقامهم الأبدي في الدار الآخرة، فمن نسي المعاد، وأقبل في الدنيا على اللذات العاجلة، فقد غير خلق الله.

ومن فسرهما بتغيير دين الله، فقد قرروا فيها وجهين،

الأول: حملها على التحليل والتحريم، واستدل على ذلك بأية الروم، كالتطري وغيره. واستدلوا بالحديث الذي في صحيح مسلم: (واني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا)، ولفظه عند النسائي: (وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا، وأمرتهم أن يغيروا خلقي).

والثاني: حملها بعضهم على الكفر، قال الرازي في تقرير هذا الوجه: (أن الله تعالى فطر الخلق على الإسلام يوم أخرجهم من ظهر آدم كالذر وأشهدهم على أنفسهم أنه ربهم وآمنوا به، فمن كفر فقد غير فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «كل مولود يولد على الفطرة، ولكن أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه»).

وقد جمع تلك الأقوال ابن عاشور، ودمجها في قول واحد، فقال:

(وقوله: "ولأمرنهم فليغيرن خلق الله" تعريض بما كانت تفعله أهل الجاهلية من تغيير خلق الله لدواع سخيفة، فمن ذلك ما يرجع إلى شرائع الأصنام مثل فقء عين الحامي، وهو البعير الذي حمى ظهره من الركوب لكثرة ما أنسل، ويسيب للطواغيت. ومنه ما يرجع إلى أغراض ذميمة كالوشم إذ أرادوا به التزين، وهو تشويه، وكذلك وسم الوجوه بالنار. ويدخل في معنى تغيير خلق الله وضع المخلوقات في غير ما خلقها الله له، وذلك من الضلالات الخرافية. كجعل الكواكب آلهة. وجعل الكسوفات والخسوفات دلائل على أحوال الناس. ويدخل فيه تسويل الإعراض عن دين الإسلام، الذي هو دين الفطرة، والفطرة خلق الله فالعدول عن الإسلام إلى غيره تغيير لخلق الله).

ثم قال: (وليس من تغيير خلق الله التصرف في المخلوقات بما أذن الله فيه ولا ما يدخل في معنى الحسن فإن الختان من تغيير خلق الله ولكنه لفوائد صحية، وكذلك حلق الشعر لفائدة دفع بعض الأضرار، وتقليم الأظفار لفائدة تيسير العمل بالأيدي، وكذلك ثقب الأذان للنساء لوضع الأقراط والتزين، وأما ما ورد في السنة من لعن الواصلات والمتنمصات والمتفلجات للحسن فمما أشكل تأويله. وأحسب تأويله أن الغرض منه النهي عن سمات كانت تعد من سمات العواهر في ذلك العهد، أو من سمات الشركات، وإلا فلو فرضنا هذه منهيًا عنها لما بلغ النهي إلى حد لعن فاعلات ذلك). ثم قال: (وملاك الأمر أن تغيير خلق الله إنما يكون إنما إذا كان فيه حظ من طاعة الشيطان، بأن يجعل علامة لنحلة شيطانية، كما هو سياق الآية

واتصال الحديث بها).

والقول في آية الروم كالقول في آية النساء.

وسأتحدث عن دلالة (خلق الله) في الآيتين لاحقاً، بعد أن أبين

الدلالة الدقيقة للفظرة. (انظر المبحث الثالث).



## خلق الرحمن:

أضيف لفظ (خلق) إلى فاعله (الرحمن)، في موضع واحد في سورة الملك: (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ). ولم يضاف إلى أي اسم آخر سوى لفظ الجلالة (الله)، كما في قوله: (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ). وسأبين دلالة ذلك عند حديثي عن أسماء الله الحسنى.

ولفظ (خلق) هنا بمعناه، وقد اختلف المفسرون في تخريجه، فبعضهم خصصه، كالزمخشري، حيث قال أن المراد به: السماوات، فكأنه قال: ما ترى في خلقهن من تفاوت. وبعضهم عممه، كأبي حيان، قال: (والظاهر عموم خلق الرحمن من الأفلاك وغيرها، فإنه لا تفوت فيه ولا فطور، بل كل جار على الإتقان). وقال ابن عاشور: (أصل الكلام: ما ترى فيهن ولا في خلق الرحمن من تفاوت... لأن انتفاء التفاوت عما خلقه الله متحقق في خلق السماوات وغيرها، أي كانت السماوات طباقاً لأنها من خلق الرحمان، وليس فيما خلق الرحمان من تفاوت ومن ذلك نظام السماوات).

(ومن تفاوت) كما قال الزمخشري: (أي: من اختلاف واضطراب في الخلقة ولا تناقض، إنما هي مستوية مستقيمة. وحقيقة التفاوت: عدم التناسب، كأن بعض الشيء يفوت بعضاً ولا يلائمه. ومنه قولهم: خلق متفاوت).



## المطلب الخامس: بدء الخلق وإعادته

### يبدأ الخلق ثم يعيده:

البدء: هو الشروع في فعل الشيء، وفعل البدء يرد غالباً مقترناً بفعل آخر، ليبدل على الشروع فيه، وقد اقترن في القرآن الكريم بفعل (الخلق)، في عشرة مواضع، كقوله: (اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)، وقوله (وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ)... الخ.

ونجد أن القرآن الكريم لم يستخدم لفظ: ابتداء، بل: بدأ، ومن الخطأ الشائع في التعريفات أن يتم تعريف الخلق والأفعال الدالة عليه بنحو: الابتداء في إظهار الشيء... الخ، بل الصحيح: (البدء)، فهو بدء وليس ابتداء.

وقد جاء الفعل: بدأ وأبدأ الله الخلق، بدأ يبدأ بدءاً فهو بادئ، وأبدأ يبدئ فهو مُبدئ، قال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)، وقال تعالى: (إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ)، فكلاهما من: أبدأ، وبقية المواضع من: بدأ.

وفي موضع واحد جاء (بدأ) مقترناً بـ(أول خلق)، (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ). فاقترن بـ(أول)، وجاء (خلق) منكرًا، وليس ذلك في موضع آخر، فكلها يأتي (الخلق) معرفًا بـ(ال)، أو بالإضافة خلق الإنسان). وسيأتي الحديث عنه.

ودلالة: (يبدأ الخلق)، أخص من دلالة: (يخلق)؛ فبدء الخلق، هو البدء في أول خلق، والبدء فيه هو أول إظهار له. فالإنسان بدأ الله



خلقه من طين، كما قال تعالى: (وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ)، فأول إنسان بدأ الله خلقه، فهذا أول خلق له، وهو أول إظهار له، أما من جاء بعد ذلك من الناس فليس بأول إظهار لهم، فالله خلقهم ولكنه لم يبدأ خلقهم، بل بدأ خلق الأصل، وهو (أول خلق).

أما دلالة (خلق) فهي عامة لأول خلق، ولخلق النسل بعد ذلك. وعليه فخلق الإنسان في بطن أمه، هو خلق، ولكنه ليس بدءا في الخلق. وباختصار فالبدء في الخلق: هو خلق أصل الشيء لا نسله، والخلق: هو خلق أصل الشيء ونسله.

وأما الإعادة، فهي الإنشاء الثاني لأول خلق. فهو ليس بخلق جديد، ولكنه إنشاء آخر لـ(أول خلق) نفسه. وقلت (للخلق)، وإعادة الخلق يشمل الأحياء كالإنسان، وغير الأحياء كالسماوات والأرض، وقد ورد معها كلها. ولا تقترن الإعادة إلا ببدء الخلق، وهذا يدل على أن إعادة الخلق كله ستكون مثل بدء أول خلق، وليست مثل الخلق، وسأوضح هذا لاحقا (انظر: أول خلق).

قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ)، ففي مقاييس البشر أن الإعادة أهون من البدء في الشيء، فجرى هذا على ما يعرفه الناس، أما بالنسبة للخلاق العليم، ف(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)، فيستوي عنده سبحانه وتعالى الخلق والإعادة، (مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ).

وقد توهم الكافرون بأن الإعادة خلق جديد، فقالوا: (وَقَالُوا أَأَتَيْنَا

ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَنبَأْنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ)،  
وسأناقش هذه القضية لاحقا (انظر: خلق جديد).

ولم يرد فعل الإعادة في القرآن الكريم إلا مقترنا ببدء الخلق، إلا  
في موطن واحد جاء على لسان المنكرين، قال تعالى في سورة الإسراء:  
(قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ  
فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)، ولذلك كان  
الجواب مختلفا، قوله (فطركم أول مرة)، فلم يرد الفعل (فطر)  
يخاطب الله به الناس إلا في هذا الموضع.



### كما بدأكم تعودون:

وأما قوله تعالى: (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ  
كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩)  
فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ)، فقد اختلف المفسرون في  
دلالاته، وخلاصتها وجهان، كما في (أضواء البيان):

الأول: (كما سبق لكم في علم الله من سعادة أو شقاوة، فإنكم  
تصيرون إليه، فمن سبق له العلم بأنه سعيد صار إلى السعادة، ومن  
سبق له العلم بأنه شقي صار إلى الشقاوة، ويدل لهذا الوجه قوله  
بعده: (فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ)، وهو ظاهر كما ترى،  
ومن الآيات الدالة عليه أيضا قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ  
كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ)، وقوله: (وَلِلَّذِي خَلَقَهُمْ)، أي ولذلك  
الاختلاف إلى شقي، وسعيد خلقهم). وقد قال بهذا القول ابن عباس

وابن جبير ومحمد بن كعب.

والثاني: (كما خلقكم أولاً، ولم تكونوا شيئاً، فإنه يعيدكم مرة أخرى، ويبعثكم من قبوركم أحياء بعد أن متم وصرتم عظاماً رميماً، والآيات الدالة على هذا الوجه كثيرة جداً).

والراجع هو القول الأول، (مذهب ابن عباس وغيره)، لعدة دلائل،  
أولها: استخدام لفظ (بدأ) في القرآن الكريم، فلم يرد إلا  
مقترناً بـ(الخلق)، كما بينت، وفي هذا الموضع لم يقترن بالخلق، فدل  
على أنه لا يتحدث عن بدء الخلق وإعادته، وإنما عن شيء آخر.

وثانيها: استخدام لفظ (تعودون)، فلفظ الإعادة في القرآن  
الكريم الدال على إعادة الخلق لم يأت إلا من: (أعاد)، كما في قوله  
(ثُمَّ يُعِيدُهُ)، ولم يأت من: عاد يعود، ف(يعودون) لا يقصد به: إعادة  
الخلق.

وثالثها: السياق، وهو ما أشار إليه الإمام الألويسي، فقال: (وروي  
عن الحبر [ابن عباس] أن المعنى كما بدأكم مؤمناً وكافراً  
يعيدكم يوم القيامة، فهو كقوله تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ  
كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ)، وعليه يكون قوله سبحانه: (فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا  
حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ) بياناً وتفصيلاً لذلك، ونظيره قوله تعالى:  
(خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)، بعد قوله عز شأنه: (إن مثل  
عيسى عند الله كمثل آدم)، قيل وهو الأنسب بالسياق).



## المطلب السادس: أول خلق، وخلق جديد، والخلق الأول، وخلق آخر

أول خلق (كما بدأنا أول خلق نعيده):

قال تعالى: (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السُّجُلِ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا  
أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ).

ما المقصود بـ(أول خلق)؟

مع المفسرين:

لخص ابن الجوزي في زاد المسير أقوال المفسرين، فقال: (الخلق  
ها هنا مصدر، وليس بمعنى المخلوق. وفي معنى الكلام أربعة أقوال:  
أحدها: كما بدأناهم في بطون أمهاتهم حفاة عراة غرلاً، كذلك  
نعيدهم يوم القيامة. والثاني: أن المعنى: إنا نُهلِك كل شيء كما  
كان أول مرة. والثالث: أن السماء تمطر أربعين يوماً كمني الرجال،  
فينبتون بالمطر في قبورهم، كما ينبتون في بطون أمهاتهم. والرابع:  
أن المعنى: قُدرتْنا على الإعادة كقُدرتْنا على الابتداء).

وإذا استبعدنا القول الثاني، فيخلص لنا قولان، أوجزهما ابن  
عطية، فقال: (يحتمل معنيين: أحدهما أن يكون خبراً عن البعث، أي  
كما اخترعنا الخلق أولاً على غير مثال كذلك ننشئهم تارة أخرى  
فنبعثهم من القبور. والثاني أن يكون خبراً عن أن كل شخص يبعث  
يوم القيامة على هيئته التي خرج بها إلى الدنيا، ويؤيد هذا التأويل  
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «يحشر الناس يوم القيامة

حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده»)،

فعلى القول الأول يكون المعنى كما ذكر الألوسي: أن الإعادة تتحقق مثلما تحقق البدء، وليس المعنى أن تكون الإعادة مثل البدء. وقد أفصح الزمخشري عن هذا، ففي الكشاف: (والمعنى: نعيد أول الخلق كما بدأناه، تشبيها للإعادة بالإبداء في تناول القدرة لهما على السواء، فإن قلت: وما أول الخلق حتى يعيده كما بدأه؟ قلت: أوله إيجاده عن العدم، فكما أوجده أولا عن عدم، يعيده ثانيا عن عدم). قال الألوسي: (أي [التشبيه]: في السهولة وعدم التعذر. وقيل: أي في كونها إيجادا بعد العدم، أو جمعا من الأجزاء المتفرقة) [انظر الرازي والألوسي].

وعلى القول الثاني يكون التقدير كما ذكره الألوسي: نعيد مثل الذي بدأناه في أول خلق، ف(خلق) مصدر. والمثلية هنا تتعلق بالضرد، أي: أول خلق كل إنسان، كما في الحديث: يحشر الناس حفاة عراة غرلا.



وأما عن تنكير (خلق)، فقال الزمخشري: (فإن قلت: ما بال "خلق" منكرا؟ قلت: هو كقولك: هو أول رجل جاءني، تريد أول الرجال، ولكنك وحدته ونكرته إرادة تفصيلهم رجلا رجلا، فكذلك معنى أول خلق: أول الخلق، بمعنى: أول الخلائق، لأن الخلق مصدر لا يجمع). قال الألوسي: (وتنكير "خَلَقٍ" لإرادة التفصيل، وهو قائم مقام الجمع في إفادة تناول الجميع، فكأنه قيل: نعيد المخلوقين الأولين).



## التحقيق في المسألة:

ورد ذكر بدء الخلق وإعادته في تسعة مواضع، يمكن تصنيفها إلى ثلاث فئات:

الأولى: ست آيات جاءت لتقرير بدء الخلق وإعادته، في سورة يونس ثلاث مرات، وفي النمل، وفي الروم مرتين. وهذه الآيات تقر هذه الحقيقة: بدء الخلق وإعادته، فالقادر على بدء الخلق قادر على إعادته، (اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)، (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ). وكلها جاءت بالتركيب (يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)، فالخلق معرفة، وقع مفعولاً له (يبدأ).

الثانية: آيتان وكلاهما في العنكبوت، جاءتا لدعوة الإنسان إلى النظر في كيفية بدء الخلق، ثم التقرير أن الإعادة مثل بدء الخلق، قال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فذلك يسير على الله، وهو قادر على كل شيء. وفي الآيتين جاء بلفظ (كيف)، والنظر (أولم يروا) (فانظروا). كما جاء فعلا (البدء) مختلفين عما مضى، الأول: يُبدئ (من: أبدأ)، والثاني بصيغة الماضي (بدأ)، فنظر الإنسان يتعلق بما مضى (بالنسبة للإنسان)، وذلك كان الصيغة ماضية، وبها يستدل على ما يأتي.

الثالثة: آية واحدة، وهي آية الأنبياء، (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ

السَّجِّلْ لِنُكْتِبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا  
فَاعِلِينَ)، فهذه الآية اختلفت عن المجموعتين السابقتين في أمور،  
أولها: وقوع فعل البدء على (أول خلق)، وليس على (الخلق)،  
وثانيها: المجيء بـ(خلق) نكرة، لا معرفة.

والثالث: تشبيه البدء بالإعادة (كما بدأنا)،

والرابع: المجيء بصيغة الماضي (بدأنا)، وهي تتفق مع الموضع  
الثاني في العنكبوت، وكلاهما يتعلق بتقرير ما مضى.

والخامس: التعقيب بقوله (وعدا علينا)، فلم يعقب بهذا في  
سائر المواضع،

والسادس: تأكيد الفعل (إنا كنا فاعلين)، وفي سائر المواضع  
إما يبين القدرة، أو أن الإعادة أهون، أو أن ذلك يسير.

وبهذا فلا ينبغي أن تحمل آية الأنبياء على مشروع الآيات  
الأخرى، فهي ليست خبرا عن البعث، أو عن إمكانية تحقق الإعادة.

والوجه أن يقال أن آية الأنبياء تقرر كيفية الإعادة، فالإعادة  
تكون مثل البدء، هذا أولا. وهذا الأمر واضح. وثانيا: تبين أن إعادة  
كل شيء مثل بدء أصله لا نسله. وسأبين هذا.

حتى نفهم هذا، فعلينا أن نرجع للقرآن الكريم نفسه، قال  
تعالى: (وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ  
مَاءٍ مَهِينٍ)، فهذه الآية الوحيدة في القرآن الكريم التي اقترن فيها  
لفظ (البدء) مع خلق الإنسان، فالله بدأ خلق الإنسان من طين،

فالبداء يتعلق بخلق الأصل، فالأصل خلقه الله من طين، وليس من ماء مهين. ثم اقتضت سنته أن يكون تناسله من ماء مهين، كما بينت الآية. فخلق الأصل غير خلق النسل. واقتضت سنة الله أن يكون خلق النسل بالزوجية ليس في الإنسان فقط بل في سائر الأحياء، كما قال (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ)، فالأزواج كلها خلقت من الأصل، وبها استمر النسل، أما الأصل فقد خلق من التراب. فالتراب مادة الأصل، والنطفة مادة النسل.

وبهذا يتبين لنا أن بدء الخلق في القرآن الكريم يختص ببيان الأصل، وليس بالنسل.

وننظر ثانيا في قوله تعالى: (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا)، فالآية تتحدث عن كيفية خروج أصل البشر؛ حيث أنزل الله الماء، فأخرج به البشر من تراب الأرض، كما يخرج بالماء النبات، فكان طينا، ثم مر بالمراحل المتعاقبة، وهو كحالة النبات الخارج من الأرض، حتى سواه الله ونفخ فيه من روحه، فباين النبات، وأصبح إنسانا. فهذا هو الأصل، أما النسل فقد جاء من الماء المهين، فيكون في بطن أمه حتى يخرج طفلا. فالتراب مادة الأصل، والنطفة مادة النسل، قال تعالى: (وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ).

وعليه فإن إعادة كل إنسان يوم القيامة تكون مثل (أول خلق) له، و(أول خلق) له هو خلق الأصل، لا النسل، فینبت الناس جميعا



من الأرض، كما نبت الأصل (آدم)، وهكذا سائر الخلق، يعيده الله كما بدأ أول خلق منه (أي الأصل)، ولا يكون لسنة الزوجية دور في الإعادة، كما كان لها دور في خلق النسل.

وقد قررت سائر آيات (النشر) و(الخروج) الكيفية التي يخرج بها الناس جميعا، وهي مثل الكيفية التي بدأ بها (أول خلق)، أي: خلق الأصل (من الأرض)، وليست كالكيفية التي بدأ بها النسل (من ماء). [راجع بحث: ألفاظ الإحياء والإماتة في القرآن].

وبهذا ندرك سر مجيء اللفظ هنا مختلفا (أول خلق)، فجاء نكرة، مقترنا ب(أول)، ليشير إلى أول خلق كان للأصل، وليس للنسل، وجاء التشبيه (كما بدأنا) ليبين أن الإعادة ستكون مثل بدء أول خلق. والله أعلى وأعلم.



## (خلق جديد):

جاء التركيب الوصفي (خلق جديد) في سبعة مواضع، وكان استخدامه في مقامين:

المقام الأول: مقام القدرة، (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ) في سورتى إبراهيم وفاطر. وهو يبين أن مشيئة الله مطلقة، وأنه لو شاء لأذهب البشر وأتى بخلق جديد، مغاير لهم، (وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ)، فليس يعجزه شيء، كما قال: (إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ). ف(خلق جديد) أي: مغاير تماما للخلق الذي عليه الإنسان.

المقام الثاني: جاء على لسان الكافرين المستبعدين للبعث، حيث توهم الكافرون أن الإعادة خلق جديد، فقالوا: (وَقَالُوا أَأَتَدَّأُ ضَلُّنَا فِي الْأَرْضِ أَنْبَاءًا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ). وقد ورد هذا اللفظ منهم في خمسة مواضع، وبين الله خطأهم، وبين اللبس الذي هم فيه، قال تعالى: (أَفَعَيَّبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ)، وسأبين لاحقا دلالة (الخلق الأول).

وهناك خلاف طويل الذيل حول: هل الإعادة خلق جديد، أو جمع للأجزاء المتفرقة. وقد نقلها الألووسي في روح المعاني. والذي يتبين لي أن الإعادة ليست خلقا جديدا، ولا هي جمع للأجزاء المتفرقة، ولكنها إنشاء آخر للخلق الأول، والقرآن الكريم لم يسم ذلك (خلقا جديدا) أبداً، بل سماه إعادة حيث ذكر، وسماه: (النشأة الأخرى). بل إن استخدام القرآن الكريم للتركيب (خلق جديد)

يفهم أنه خلق آخر لا صلة له بالخلق الأول، قال تعالى: (إِنْ يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ)، فهو يتحدث عن قدرته سبحانه على الإتيان بخلق جديد آخر لا صلة له بالمخاطبين الذين لو شاء الله لأهلككم.

بل إن القرآن الكريم يستخدم لفظ (خلق أمثالهم) للدلالة على إعادة خلق أجسادهم، أي مثل الأجساد التي كانت لهم في الدنيا، سنعيد خلقها، كما قال تعالى: (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)، وقال: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ).

وقوله: (أَفَعَيَّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ).

يقول لهم: لم يعيني الخلق الأول، فكيف أنتم في لبس من خلق جديد!! فهو لم يسم الإعادة: خلقا جديدا.

وقد توهم الكافرون - كما ذكرت - أن الإعادة خلق جديد، والقرآن الكريم لا يذكر ذلك، بل يذكر الإعادة، أو النشأة الأخرى، ولم يرد (خلق جديد) إلا على السنة المكذبتين بالبعث. وآية سورة ق، جرت على ما تردده ألسنتهم، فهو يقول: نحن لم يعينا الخلق الأول، والمشركون لا زالوا في لبس من خلق جديد، فالله قادر على الخلق الجديد، ولكنه لم يخبرنا أن الإعادة خلق جديد، بل أخبرنا أنها إعادة، أو نشأة أخرى. وهذا وجه تنكير (خلق جديد)، فلم يقل: بل هم في لبس من الخلق الجديد، فلو عرف لكان ذلك بيانا بأن الإعادة هي

خلق جديد، ولكنه جاء نكرة لبيان صورة الأمر عندهم، فهم لم يفتأوا يقولون: (أَتِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ). وقد ذكر الرازي في تفسيره تعليلاً بعيداً لتنكير (خلق جديد)، لا يتفق مع سياق الكلام، ولا مع استخدام القرآن الكريم للألفاظ، يمكن الرجوع إليه في تفسيره.

والآية جاءت في سياق بيان القدرة الإلهية على إعادة خلق الإنسان، والرد على المكذبين حيث قالوا: (أَتِنَّا مِثْنًا وَكُنَّا ثُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ)، والآية في أول سورة ق، فبين الحق سبحانه وتعالى قدرته في تسوية السماء ودحو الأرض، وبين كيف يحيي الأرض بعد موتها بالماء، ثم قال: (أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ)، أي: هل أعجزنا الخلق الأول؟! وهم يقرون بذلك، يقرون أن الله الذي خلق السماوات والأرض وخلقهم، فنحن لم نعي بالخلق الأول، والحال أن المشركين ما زالوا في لبس من خلق جديد، فهو تفكير متأخر جداً، تأخر تفكيرهم حين يشكون في خلق جديد، والله هو من خلق أولاً. ثم قال: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ)، فنحن خلقناه، ونحن سنعيده.

وقوله تعالى: (حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا) ... دليل على ما ذكرته، أن الإعادة إنشاء آخر للخلق الأول، فهي أيديهم وأرجلهم وأسماعهم... التي كانت معهم في الدنيا فسجلت كل شيء كسبته تلك الجوارح، ستكون شاهدة يوم القيامة عليهم بكسبها.

## (الخلق الأول):

جاء في قوله (أَفَعَيَّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ)،

وقد اختلف المفسرون في المراد بـ(الخلق الأول)، فبعضهم قال: الإنسان، قال البغوي: (أعجزنا حين خلقناهم أولا فعينا بالإعادة)، وقال ابن عطية: (إنشاء الإنسان من نطفة على التدرج المعلوم). وبعضهم قال: آدم، (قال الحسن: «الخلق الأول» آدم عليه السلام).

وبعضهم قال: السماوات والأرض، قال الرازي: (يحتمل أن يكون المراد بالخلق الأول هو خلق السموات، لأنه هو الخلق الأول، وكأنه تعالى قال: أفلم ينظروا إلى السماء، ثم قال: أفعيينا بهذا الخلق.. ويؤيد هذا الوجه هو أن الله تعالى قال بعد هذه الآية: ولقد خلقنا الإنسان، فهو كالاستدلال بخلق الإنسان). والمفسرون المتأخرون بعضهم جمع بين القولين، كالبقاعي.

والدلالة الدقيقة للخلق الأول سآبينها في الفقرة التالية، عند قوله: (خلقا من بعد خلق).



(ثم أنشأناه خلقاً آخر):

قال تعالى: (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ).

جاء في تفسير ابن عطية: (واختلف الناس في «الخلق الآخر» ، فقال ابن عباس والشعبي وأبو العالية والضحاك وابن زيد: هو نفخ الروح فيه، وقال ابن عباس أيضاً: خروجه إلى الدنيا، وقال قتادة عن فرقة: نبات شعره، وقال مجاهد: كمال شبابه وقال ابن عباس أيضاً: تصرفه في أمور الدنيا. قال ابن عطية: وهذا التخصيص كله لا وجه له وإنما هو عام في هذا وغيره من وجوه من النطق والإدراك وحسن المحاولة هو بها آخر، وأول رتبة من كونه آخر هي نفخ الروح فيه، والطرف الآخر من كونه آخر تحصيله المعقولات).

وسأبين دلالتها الدقيقة في الفقرة التالية: (خلقاً من بعد خلق).



(خلقاً من بعد خلق):

### سرد الآيات الدالة على أن خلق النسل مرحلتان:

الآيات التي تتحدث عن خلق النسل الإنساني تميز باطراد بين مرحلتين. سأذكر الآيات أولاً،

(١) قال تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِضَامًا فَكَسَوْنَا الْعِضَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ). [سورة المؤمنون]

(٢) وقال تعالى: (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَانزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ). [سورة الزمرا]

(٣) وقال تعالى: (أَفَعَيَّبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ). [سورة ق]

(٤) وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ). [سورة الحج]

٥) وقال تعالى: (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ

الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ). [سورة الرعد]

٦) وقال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرًّا

وَمُسْتَوْدَعًا). [سورة الأنعام]

سأضع جدولاً يبين حديث هذه الآيات عن المرحلتين:

| م  | الوصف                          | المرحلة الأولى                    | المرحلة الثانية                      |
|----|--------------------------------|-----------------------------------|--------------------------------------|
| ١. | تسمية المرحلة                  | الخلق الأول                       | الخلق الآخر                          |
| ٢. | تكوين المخلوق                  | نطفة فعلقة فمضغة<br>فعظاما فالحما | ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا<br>آخَرَ |
| ٣. | الرحم من حيث<br>الغيض والزيادة | غيض الأرحام                       | ازدياد الأرحام                       |
| ٤. | الرحم من حيث الثبات            | مستقر (قرار)                      | مستودع                               |

**أولاً: (تسمية المرحلة)،**

ورد تسميتها في ثلاث آيات، في سور: المؤمنون (ثم أنشأناه خلقاً  
آخر)، فالخلق الآخر هو المرحلة الثانية التي تكون بعد تخليق  
النطفة.

وفي سورة الزمر (خلق من بعد خلق)، أي: يخلقكم خلقاً آخر من  
بعد خلق، وهو الخلق الأول. فأية المؤمنون تفسر آية الزمر.

وقد ورد تسمية الخلق الأول في سورة ق، (أفبعينا بالخلق الأول)،  
أي خلق النطفة حتى أصبحت لحماً، فهو الخلق الأول.



فالخلق الأول ليس كما فسر بأنه خلق الإنسان مطلقاً،  
فالخلق الأول يقابله الخلق الآخر. والخلق الآخر هو المرحلة الثانية  
في خلق الجنين، والخلق الأول هو المرحلة الأولى.

### ثانياً: مكونات المخلوق،

وهذا بينته آية المؤمنون (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ  
مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا). وهذا التكوين  
هو تخليق النطفة حتى تصبح عظاماً، وتسوية هذا المخلوق،  
وتصويره. وتستمر حتى نهاية الأسبوع الثامن تقريباً، ويتميز فيها  
المخلوق بصغر حجمه، فطوله لا يزيد عن ٣٣ ملم، ووزنه لا يتجاوز  
خمسة جرام، كما يقول علماء الأجنة. وبنهاية هذه المرحلة يكون  
المخلوق إنساناً سوياً مصوراً.

وأما المرحلة الثانية فينشأ فيها ذلك المخلوق خلقاً آخر، فهو قد  
صار إنساناً سوياً مصوراً، وقد نفخ فيه الروح، ومن ثم أصبح كائناً  
حياً. فينمو، ويكتمل خلقه، وتستمر حتى نهاية الحمل، ويبلغ طوله  
في نهايتها ٥٠٠ ملم، ويبلغ متوسط وزنه ثلاثة آلاف وخمسمائة جرام.  
ولم تفصل آيات القرآن الكريم تكوين الخلق الآخر كما فصلت  
الخلق الأول، فالخلق الأول هو المرحلة الحاسمة في حياة الإنسان،  
وهذا يرجح أن لفظ (الخلق الأول) يراد به تكوين الجنين في هذه  
المرحلة.

فالخلق الأول: خلق الجسد، حيث تتخلق النطفة جسداً حتى

نهاية الأسبوع الثامن. أما الخلق الآخر فهو تركيب النفس على الجسد، بعد أن يأتي الملك فينفخ الروح، فيركب النفس على الجسد. (انظر بحثي: الإحياء والإماتة في القرآن).

### ثالثاً: غييض الأرحام وما تزداد

المرحلة الأولى وصفت الأرحام بأنها تغييض، وفي الثانية بأنه تزايد، فالأرحام خلال الأسابيع الثمانية الأولى لا يزداد حجمها، ومن بعد ذلك يبدأ حجمها بالازدياد حتى نهاية الحمل. وفي المرحلة الأولى (الخلق الأول)، فإن الأرحام تغييض، والغييض هو النقص والغور والذهاب، قال د: عبد الجواد الصاوي، في بحثه عن غييض الأرحام: (غييض الأرحام: هو السقط الناقص للأجنة قبل تمام خلقها، أو هو ما تفسده الأرحام فتجعله كالماء الذي تبتلعه الأرض - أو هو هلاك الحمل أو تضاوله أو اضمحلاله - وهذا المعنى يتوافق مع الإسقاط التلقائي المبكر للأجنة حينما تهلك ويلفظها الرحم، أو تغور وتختفي تماماً من داخله)، وهذه الحالة كما يبين علماء الأجنة لا تكون إلا خلال الأسابيع الثمانية الأولى، أي في مرحلة (الخلق الأول).

### رابعاً: وصف الرحم بأنه (مستقر ومستودع).

يدل جنر (ق رر) في العربية على: ثبوت الشيء في المكان وسكونه

فيه، فالقرار هو الشيء الذي تثبت فيه الأشياء وتسكن، ولذلك وصف الله الأرض أنها قرار ومستقر للناس، فقال تعالى: (جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا)، وقال: (وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرًّا). وأما (و د ع)، فيدل على استحفاظ الشيء، وصيانته، ووقايته.

والمستقر هو مكان قرار يثبت فيه الشيء.

ويقيد القرآن الكريم وصف الرحم بالقرار، بأنه يكون قرارا إلى قدر أو أجل، وقد ارتبط وصف الرحم بأنه قرار بالنطفة، وقد ذكر في موضعين وفي كليهما يرتبط بالنطفة. (ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ)، (أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ)، والموضع الثاني يبين أنه قرار مكين إلى قدر معلوم، وهذا ما بينته آيات الحج (وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)، أي نقر النطفة وتخليقها [وهو الخلق الأول] في الأرحام إلى أجل مسمى (كقوله: إلى قدر معلوم)؛ فهو أجل قدره الله لاستقرار الماء في الرحم. فالخلق الأول يحتاج إلى مستقر يقر فيه، ويكون قرارا مكينا له؛ حتى يتخلق ويستوي. فإذا تخلق واستوى فقد أصبح خلقا آخر.

فالرحم مستقر النطفة، تثبت فيه، فيهيئ لها أسباب الاستقرار، حتى تصبح خلقا آخر. وهو قرار مكين لها، وقد وصف القرار بأنه (مكين)، قال أبو حيان: (والمكين: المتمكن، وصف القرار به لتمكنه في نفسه بحيث لا يعرض له اختلال، أو لتمكن من يحل فيه، فوصف بذلك على سبيل المجاز، كقوله طريق سائر لكونه يسار فيه)، والآية تبين أن النطفة جعلها الله في قرار مكين، فالرحم هو قرار مكين، أي

هو مستقر ثابت حصين للنطفة، تنشأ فيه، وتتخلق.

والمستودع، هو المكان الذي يُحفظ فيه الخلق الآخر، فالمستودع هو مكان للحفظ والصيانة، والإنسان قد أصبح خلقاً آخر، ومن ثم يناسبه أن يكون في مستودع يحفظه ويصونه، حتى يكتمل نموه، ويخرج من هذا المستودع إلى الأرض. وسمي مستودعاً؛ لأن النطفة لم تعد نطفة، بل أصبحت خلقاً آخر، وقد نفخ فيها الروح، فهي أصبحت شيئاً، ومن ثم أودع الله هذا الشيء في الرحم، فالرحم مستودع له. والحقيقة أن المستودع هو البطن الذي فيه الرحم، كما سأبين بعد قليل.



#### من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة:

وفي قوله تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ). أود أن أوضح سر استخدام (ثم).

فهذه الآية بينت أولاً: الطريقة التي خلق الله بها الإنسان، ثم بينت مراحل خلق النسل، ثم بينت مصير الإنسان.

فأما الطريقة التي خلق بها الإنسان، فبينها قوله: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا

الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ).  
فإن الله خلق الأصل من سلالة من طين، وأما النسل فجعله الله نطفة  
ومنها خلق الإنسان، ف(ثم) هنا لبيان اختلاف الطريقة الأولى عن  
الثانية، واختلاف أزمانهما. وقد أشار إلى ذلك في آيات كثيرة، ومنها  
قوله: (هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ  
أُمَّهَاتِكُمْ).

وأما مراحل خلق النسل، فبينتها الآية الثالثة: (ثُمَّ خَلَقْنَا  
النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا  
العِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ).  
هذه الآية تبين مرحلتي خلق النسل في بطن أمه، الأولى (خلقنا  
النطفة علقة...)، والثانية (ثم أنشأناه خلقاً آخر). ف(ثم) في قوله (ثم  
أنشأناه) هي فاصلة بين مرحلتين يخلق بهما النسل الإنساني في بطن  
الأم، المرحلة الأولى يسميها القرآن الكريم: الخلق الأول، والمرحلة  
الثانية: الخلق الآخر.

وأما (ثم) في أول الآية (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ) فهي للانتقال من  
بيان طريقة الخلق إلى بيان مراحل خلق النسل، فهو يقول: خلقنا  
الإنسان بطريقتين: أصله من طين، ونسله من ماء. ثم إن النسل  
خلقناه بمرحلتين: تخليق النطفة، ثم أنشأناه خلقاً آخر. فلا نقول  
أنها ثلاث مراحل (مرحلة النطفة، ومرحلة التخليق، ومرحلة  
النشأة)، فهذا غير مقصود، والآيات اطردت ببيان مرحلتين.  
ثم تحدثت الآية عن مصير الإنسان: الموت، ثم البعث.



### الخلق الأول والخلق الآخر:

وبهذا يتبين أن (الخلق الأول)، يقابل (الخلق الآخر)، فالخلق الأول هو المرحلة الأولى للجنين في بطن أمه، والخلق الآخر هو المرحلة الثانية له (ثم أنشأناه خلق آخر)، وهذا يفسر قوله تعالى: (خلقا من بعد خلق)، أي: يخلقكم خلقا آخر من بعد خلق أول، فهما خلقان. والخلق الأول هو مرحلة غيض الأرحام، والخلق الآخر هو مرحلة ازديادها. والخلق الأول تكون الأرحام فيه مستقرا، والخلق الآخر تكون الأرحام فيه مستودعا. والله أعلم.



وقوله (أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ)، يقول لهم: أعيينا أيها المكذبون بالخلق الأول، حين جعلنا ذلك الماء (المنظفة) خلقا سويا مصورا، حتى تعيينا النشأة الأخرى؟! فذكر (الخلق الأول)، وهي أهم مرحلة في تكوين الإنسان، ففيها يكون أو لا يكون.



### الفرق بين الرحم والبطن:

ويلاحظ أن الدلالة الدقيقة للأرحام ترتبط بمرحلة (الخلق الأول)، أي حين تكون مستقرا. ف(أرحام) ذكرت اثنتي عشرة مرة في القرآن الكريم، وكلها بصيغة الجمع، ولم ترد مفردة. في خمسة

مواضع وردت بمعنى القرابة وقد تخصص بغير العصبية أو الفروض. وفي سبعة مواضع للدلالة على الرحم، العضو المعروف الذي يكون في بطن الثدييات، ثلاث منها في قوله: (وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ)، فنذكر الأرحام هنا؛ لأن خلق النطفة ينشأ في الرحم، وقوله: (قُلِ الذَّكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ) مرتين. ودلالتها على مطلق الحمل الذي تحمله الأنثى من البشر أو غيرهم.

وبقيت أربع مواضع، وهي التي نتحدث عن الخلق داخل الرحم، وهي قوله تعالى: (وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى)، (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ)، (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ)، (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ).

وقد بينت أن قرار الرحم وكونه مستقرا يرتبط بمرحلة "الخلق الأول"، وهي مرحلة تخلق النطفة، ثم بعد ذلك يصبح الرحم مستودعا. والقرآن الكريم لا يذكر الأرحام إلا عند الحديث عن الخلق الأول، فغيض الأرحام يكون في المرحلة الأولى، والتصوير في الأرحام كذلك، يكون بعد خلقه مضغة، أي في مرحلة "الخلق الأول"، وكذلك قوله (نقر في الأرحام ما نشاء). وعليه يحمل قوله (ويعلم ما في الأرحام)، أي ما يكون فيها في مرحلة الخلق الأول. ولا يشمل طيلة الحمل.

وإضافة إلى دليل استخدام القرآن الكريم للفظ "الأرحام"، فإن هناك دليلاً آخر، وهو استخدام القرآن الكريم للفظ "البطن"، فهو يستخدمه بدلاً من "الأرحام" حين يتحدث عن طيلة شهور الحمل، أي: مرحلتي الخلق الأول والخلق الآخر، قال تعالى: (يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ)، فالخلق الأول والثاني يكون في بطن الأم، وفيه الظلمات الثلاث. وقوله: (هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ)، فالجنين يمتد عمره حتى خروجه من بطن أمه، فلم يقل: في أرحام أمهاتكم. وقوله: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا)، فالإخراج من البطن، والإخراج يكون بعد تمام مدة الحمل.

وبذلك يتبين أن القرآن الكريم يستخدم لفظ (الأرحام) للدلالة على مرحلة الخلق الأول، فهو قرار للنطفة حتى تتخلق، ويستخدم لفظ (البطن) للدلالة على الخلق الأول والخلق الآخر، ففيه الظلمات، وفيه يكون الخلق الآخر بعد الخلق الأول.



**وهنا على وهن:**

قال تعالى: (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ). ما المراد بقوله: (وهنا على وهن)؟

في الطبري عن ابن عباس: (عن ابن عباس قال: شدة بعد شدة، وخلقاً بعد خلق. وقال قتادة: جهداً على جهد، وقال مجاهد: وهن



الولد على وهن الوالدة وضعفها). وفي تفسير ابن أبي حاتم: (عن عطاء الخراساني قال: ضعفا على ضعف)، وعند ابن عطية: (وقيل إشارة إلى مشقة الحمل ومشقة الولادة بعده، وقيل إشارة إلى ضعف الولد وضعف الأم معه، ويحتمل أن أشار إلى تدرج حالها في زيادة الضعف، فكأنه لم يعين ضعفين بل كأنه قال: حملته أمه والضعف يتزايد بعد الضعف إلى أن ينقضي أمره). وفي البحر المحيط: (وقيل: وهنا على وهن: نطفة ثم علقة، إلى آخر النشأة، فعلى هذا يكون حالا من الضمير المنصوب في حملته، وهو الولد).

والذي يبدو لي في هذه الآية أنها تنسلك ضمن الآيات التي ذكرتها سابقا، والتي تبين مرحلتي الحمل، ومن ثم فهي تصف مرحلتي الحمل: الخلق الأول والخلق الآخر، وهو ما ألمح ابن عباس إليه (خلقا من بعد خلق)، أي وهن الخلق الأول على وهن الخلق الآخر. والوهن هو أشد الضعف، قال تعالى: (فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا)، ففارق بين الوهن والضعف، وانتقل من الأشد إلى الأخف، فنفي عنهم الأشد (الوهن)، ثم الأخف منه (الضعف)، ثم الأخف من ذلك (الاستكانة). وقال تعالى: (ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ)، أي مضعفه أشد الضعف، وقال: (وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ)، (قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي). فهو يصف حالة الضعف الشديد في مرحلتي الخلق الأول والخلق الآخر، ولم يقل: حملته أمه وهنا؛ لأن الوهن في المرحلة الأولى (الخلق الأول) أقل من الوهن الثاني، في مرحلة (الخلق الآخر). فالوهن أولا حين يكون الرحم مستقرا للنطفة، والوهن ثانيا حين يكون البطن

مستودعا للجنين.

وقد ذكر أبو حيان أن قوله (وهنا على وهن) يحتمل أن يكون حالاً من الفاعل (الأم)، فهي الواهنة وهنا على وهن، ويحتمل أن يكون حالاً من الضمير المنصوب في (حملته)، أي الولد، فالواهن هو الجنين وهنا على وهن. وكلاهما محتمل، وإن كان حمله على الأم أولى؛ لأن المقام مقام توصية بالأم، فالسياق يبين الوهن الذي عانته أثناء حملها بالإنسان.

كما أن القرآن الكريم يستخدم لفظ (الضعف) للحديث عن الولد، كقوله: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ)، (وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا). والله أعلم.



## المطلب السابع: الزيادة في الخلق

قال تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) سورة فاطر، وقال تعالى على لسان نبي الله هود عليه السلام يخاطب قومه (عاد): (وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آيَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) سورة الأعراف.

فما الزيادة في الخلق؟

يزيد في الخلق ما يشاء:

أما آية فاطر ففي المراد بـ(الخلق) قولان، الأول: أنهم الملائكة، قال السدي: (يزيد في أجنحتهم وخلقهم ما يشاء). ولخص ذلك في زاد المسير: (أنه زاد في خلق الملائكة الأجنحة)؛ فهو زاد الملائكة على غيرهم بالأجنحة، وقيل: (يزيد في الأجنحة ما يشاء)، فالزيادة داخل الملائكة أنفسهم يزيد بعضهم على بعض بالأجنحة.

والقول الثاني: أن المراد بـ(الخلق): المخلوقات كلها، قال الطبري: (ذلك في جميع خلقه يزيد ما يشاء في خلق ما شاء منه، وينقص ما شاء من خلق ما شاء، له الخلق والأمر وله القدرة والسلطان). وقال الزمخشري: (والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق: من طول قامته، واعتدال صورة، وتمام في الأعضاء، وقوة في البطش، وحصافة في العقل...).

والقول الأول هو الأقرب للمعنى، والأنسب للسياق، ولكن ليس على معنى زيادة الملائكة بالأجنحة على من سواهم، بل على الوجه القائل بزيادة الملائكة بعضهم على بعض في الأجنحة، (قال الفراء والزجاج: هذا في الأجنحة التي للملائكة أي يزيد في خلق الأجنحة للملائكة ما يشاء فيجعل لكل ستة أجنحة أو أكثر، وروي ذلك عن الحسن، وكأن الجملة لدفع توهم عدم الزيادة على الأربعة). وقال ابن عاشور: (ويجوز أن تكون جملة "يزيد في الخلق ما يشاء" صفة ثانية للملائكة، أي: أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في خلقهم ما يشاء، كأنه قيل: مثنى وثلاث ورباع وأكثر. فما في بعض الأحاديث من كثرة أجنحة جبريل يبين معنى "يزيد في الخلق ما يشاء". وعليه فالمراد بالخلق ما خلق عليه الملائكة من أن لبعضهم أجنحة زائدة على من لبعض آخر).

فهذه الآية هي الوحيدة في القرآن الكريم التي تتحدث عن الصفة الخلقية للملائكة، فالله جعلهم رسلا، أولي أجنحة: مثنى، وثلاث، ورباع، ثم بين سبحانه أنه يزيد في الخلق ما يشاء، فسياق الآية يتحدث عن الزيادة في أجنحة الملائكة: مثنى، وثلاث، ورباع، وأكثر من ذلك. وهذا هو المناسب للسياق، وعليه فالخلق يراد به: خلقهم، فال (ال) التعريفية قامت مقام الضمير العائد، أي: يزيد في خلقهم ما يشاء.

وقد ذكر ابن هشام في مغني اللبيب في روابط الجملة، فقال: (ال النائبة عن الضمير، وهو قول الكوفيين وطائفة من البصريين ومنه } وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ

الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}، الأصل مأواه). وهذا مذهب الكوفيين، ويجعلون منه قولهم: (زوجي المس مس أرنب، والريح ريح زرنب)، أي: مسه مس أرنب، وريحه ريح زرنب. ولهم أدلة أخرى. وقد ذكر ذلك ابن مالك في شرح التسهيل، فقال: (وقد تعني عنه الألف واللام، كقول الشاعر: كَأَنَّ حَفِيفَ النَّبْلِ مِنْ فَوْقِ عَجَسِهَا.. عَوَازِبُ نَحْلٍ أَخْطَأَ الْغَارَ مُطْنِفُ أَي: أَخْطَأَ غَارَهَا، فَحَذَفَ الضَّمِيرَ، وَجَعَلَ الْأَلْفَ وَاللَّامَ عَوَاضًا مِنْهُ).

وهذا ما يحمل عليه لفظ (الخلق) في الآية، أي: يزيد في خلقهم ما يشاء من أجنحة.



## وزادكم في الخلق بسطة:

وأما آية قوم عاد (وزادكم في الخلق بسطة)، فقد فسرها ابن عباس بأنها زيادة في القوة (الشدة)، وفسرها السدي بأنها زيادة في الطول، وقال: (كانت قامة الطويل منهم مائة ذراع، وقامة القصير منهم ستون ذراعاً). وهذا على أن (الخلق) مصدر، وقيل أن (الخلق) بمعنى: المخلوقين، والمعنى: زادكم فضلاً [ما تتفاضل به الأمم] على الناس أو على أهل زمانكم. وفي البحر المحيط لأبي حيان أقوال أخرى. وبالرجوع إلى القرآن الكريم، لتبين المقصود بقول هود عليه السلام لقومه: (وزادكم في الخلق بسطة)، فسنجد أدلة واضحة تبين لنا المقصود بالزيادة.

أولاً: (البسطة)، في تاج العروس: (وأصل البسط: النشر، وما عداه يتفرع عليه)، والنشر ضد القبض، ودلالات (ب س ط) كما قال تتفرع على: النشر، نحو: انبسط النهار: أي امتد وطال، فكأنه انتشر بأكثر مما كان عليه، وكأن ما كان عليه انقباض فيه، ومكان بسيط: واسع، ففي السعة دلالة النشر، وفي الضيق دلالة القبض، فالواسع منشور، والضيق مقبوض، وقال ابن السكيت: تقول العرب: هذا فراش يبسطني، إذا كان سابغاً واسعاً. ومن ذلك: البسطة، فدلالته ترجع إلى الانتشار والسعة. كما أن دلالات البسطة كلها تعرف بقياسها إلى حد الاعتدال من جنسها، فالنهار مثلاً له حد اعتدال، فإذا طال عن هذا الحد، فقد انبسط، وكذلك البسطة في المكان، وكذلك في الجسم.

ثانيا: وردت آيتان في القرآن الكريم تتحدث عن زيادة البسطة، هذه الآية في عاد، والأخرى في طالوت: (قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ). ومن ثم فكلاهما حدد زيادة البسطة في أي شيء تكون، فزيادتها في الجسم، غير زيادتها في الخلق، غير زيادتها في العلم.

ثالثا: القرآن الكريم يستخدم الفعل (يبسط) مسندا إلى الله، واقعا على الرزق: (يَبْسُطُ الرِّزْقَ)، واستخدمه مرة مع السحاب: (فَتَثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ). وحين تحدث عن البسطة في الخلق والعلم والجسم، لم يقل: يبسط الجسم، أو الخلق، بل جاء مع فعل الزيادة: (زاد بسطة في). وهذا يعني أن نركز بحثنا عن زيادة البسطة، وليس البسطة. ومن ثم فهناك درجتان في الزيادة، الأولى: البسطة في الجسم أو الخلق، كأن تقول: هو ذو بسطة في الجسم، وهذا يعني أن به من السعة والزيادة عن حد الاعتدال في الآخرين ما يفوقهم. والدرجة الثانية: زيادة البسطة فيه، فالبسطة هي الزيادة عن حد الاعتدال، فزيادة البسطة تعني أنها زيادة مفرطة، وليست اعتيادية.

خامسا: (زادكم بسطة في الخلق)، بينت اختلاف المفسرين في المقصود بزيادة البسطة في الخلق، وبالنظر إلى ما قاله هود عليه السلام لقومه، فنجد أنه كان يتحدث معهم عن زيادة القوة، وليس عن زيادة شيء آخر، فقال لهم: (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ)، فهو يتحدث عن قوتهم التي يتناولون بها، ويبين لهم أن الله سيزيدهم قوة إلى ما آتاهم من قوة، وقال لهم: (وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)، ولم يتحدث

نبي آخر مع قومه عن بطشهم، والبطش أشد الأخذ، ولذلك قال الله عن موسى: (فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا)، وتحدث عن نفسه: (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ).

كما أن اهتمام قوم عاد كان بالقوة أيضا، ولذلك قالوا: (فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً)، فهم تطاولوا بقوتهم، وليس بشيء آخر، ولم يقل الله أن من كان قبلهم هو أشد منهم قوة، كما قال عن الأقوام الذين تبعوهم: (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ).

كما أن العقوبة التي حلت بهم كانت الريح، ووصفها الله بقوله: (مَا تَذُرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ)، وقال: (تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا)، فهي قوة تدميرية، أتت فأنتهت قوتهم، وهي الزيادة في الخلق التي أوتوها.

وبهذا يتبين أن الزيادة في الخلق التي آتاها الله قوم عاد، هي القوة، وهذا ما فسره ابن عباس. فقد آتاهم الله من القوة ما لم يؤت أحدا من خلقه، حتى طغوا بها، وتجبروا، واستخدموها في البنيان، وكانوا يظنون أنهم سيخلدون فيها، (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطْشَتُمْ جِبَارِينَ). ووصف مدينتهم التي بنوها، فقال: (الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)، وقد تحدثت سابقا عن استخدام لفظ (يخلق) في هذا



الموضع.

وأما من فسرها بزيادة الطول، وبعضهم قال: أقصرهم كان طوله ستين ذراعا وأطولهم مائة ذراع - فهذا ما لا دليل عليه، وقد قال ابن العربي معقبا على هذا: (وهو باطل؛ لأن في الصحيح: "إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعا في الهواء، فلم يزل الخلق ينقص إلى الآن").

والحديث في البخاري ومسلم: (خلق الله آدم على صورته، طوله ستون ذراعا، فلما خلقه، قال: اذهب، فسلم على أولئك النفر من الملائكة جلوس، فاستمع ما يحيونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه ورحمة الله، فكل من يدخل - يعنى الجنة - على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن). قال ابن حجر: (قوله "فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن"، أي: أن كل قرن يكون نشأته في الطول أقصر من القرن الذي قبله فانتهى تناقص الطول إلى هذه الأمة واستقر الأمر على ذلك).



## المطلب الثامن: التنكيس في الخلق

قال تعالى: (وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ).

وسياق الآيات: (وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧) وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ).

ما المقصود بالتنكيس في الخلق؟

(مع المفسرين):

ذهب جمهورهم إلى أن الآية تتحدث عن سنة الله في الإنسان، فمن يطل عمره يرده إلى أرذل العمر، بتنكيسه في الخلق، أي بقلبه، وهذا دليل كما قال بعضهم على قدرة الله على البعث، فكأن الآية تقول: نحن قادرون على قلب الأحوال بطمس الأعين، أو المسخ، ألا يرون كيف نقلب الأحوال بتنكيس الإنسان في الخلق.

وأوضح هذا الزمخشري بقوله: (نقلبه فيه فنخلقه على عكس ما خلقناه من قبل، وذلك أنا خلقناه على ضعف في جسده، وخلو من عقل وعلم، ثم جعلناه يتزايد وينتقل من حال إلى حال ويرتقى من درجة إلى درجة، إلى أن يبلغ أشده ويستكمل قوته، ويعقل ويعلم ما له وما عليه، فإذا انتهى نكسناه في الخلق فجعلناه يتناقص، حتى يرجع في حال شبيهة بحال الصبي في ضعف جسده وقلة عقله وخلوه من العلم، كما ينكس السهم فيجعل أعلاه أسفله). وقال ابن كثير:

يخبر تعالى عن ابن آدم أنه كلما طال عمره رد إلى الضعف بعد القوة والعجز بعد النشاط). وقال أبو حيان: (ولما ذكر تعالى الطمس والمسح على تقدير المشبه، ذكر تعالى دليلاً على باهر قدرته في تنكيس المعمر، وأن ذلك لا يفعله إلا هو تعالى).

وذهب ابن عاشور إلى أن تفسير الآية ليس كذلك، فالتعمير لا يراد به الإطالة في العمر وإدراك الهرم، بل يراد به الإبقاء، كما في قوله: (أَوْلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ)، أي: ألم نبقيكم مدة من الحياة تكفي للتأمل. والتنكيس في الخلق على المجاز لا الحقيقة، والخلق بمعنى المخلوق، والمعنى: ومن نعمه منكم يا قريش فسندله بعد عز، فيكون ذليلاً في الخلق (أي: بين الناس). قال: (فهو وعيد لهم ووعد للمؤمنين بالنصر على المشركين ووقوعهم تحت نفوذ المسلمين، فإن أولئك الذين كانوا رؤوساً للمشركين في الجاهلية صاروا في أسر المسلمين يوم بدر وفي حكمهم يوم الفتح فكانوا يدعون الطلقاء).



### التحقيق في الآية:

**أولاً، دلالة التعمير في القرآن الكريم.**

التعمير ورد في قوله: (أَوْلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ)، فالتعمير هنا استيضاء العمر، أي: ألم تستوفوا أعماركم في الدنيا، وبقيتم إلى الأجل المسمى، فكانت لكم فرصة للتذكر؟!

والعمر هو مدة بقاء الإنسان (أو الأمة) في الدنيا<sup>(١)</sup>، ويستخدم القرآن الكريم للتعبير عنه: (أجل مسمى)، بغض النظر عن مدة المكث أطالت أم قصرت، قال تعالى: (وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْحَزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ)، أي يظل في الدنيا هذا العمر، فذكر المدة يبين أن لفظ (التعمير) لا يدل على طول أو قصر، وإنما يدل على استيفاء العمر المقدر.

أما التعبير عن إطالة العمر فقد جاء مقترنا بالإطالة، كقوله: (بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ)، أو يقترن بالرد إلى أرذله، كقوله: (وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا). وكذلك التعبير عن نقص العمر، كقوله: (وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ).

وبهذا فلفظ التعمير لا يعني إطالة العمر، بل يعني استيفاء العمر، كما تدل عليه آية فاطر (أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ)، وقوله: (وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ)، أي وما يستوفي عمره أو ينقص منه. وعليه فقوله (وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ)، لا يدل على الهرم، بل يدل على استيفاء العمر.

### ثانياً: مفهوم الأجل،

جاء في القرآن الكريم: أجل، وأجل مسمى، وأجل قريب، وأجل معدود.

<sup>(١)</sup> قال الراغب في المفردات: (والعمرُ والعُمُرُ: اسم لمدّة عمارة البدن بالحياة... والتعميرُ: إعطاء العمر بالفعل، أو بالقول على سبيل الدعاء).

فالأجل، هو وقت يحدد لانتهاء الشيء، كقوله: (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)، وقوله: (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ)، وقوله: (وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا)، وقوله: (وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ). فالله حدد لكل نفس ولكل أمة وقتا تنتهي فيه حياتهم، ويأتيهم الموت، فهذا هو الأجل.

والأجل المسمى، مدة سماها الله وحددها سلفا لبقاء الشيء في الدنيا. ويستخدمه القرآن الكريم ويراد به: نهاية المخلوق، فنهاية حياة الإنسان بالموت، كقوله: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى)، (وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليُقضى أجل مُسمى).

ونهاية المخلوقات كالشمس أو القمر حين تقوم القيامة، كقوله: (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى)، (ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلّا بالحق وأجل مُسمى).

والله سبحانه وتعالى لا يأخذ نفسا إلّا إذا جاء أجلها المسمى، ويستخدم القرآن الكريم (التأخير إلى أجل مسمى)، للدلالة على هذا. (وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى)، (يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى)، (وَيَسْتَعْجِلُونَكُمْ بِالْعَذَابِ وَلَوْ أَنَّ أَجَلَ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ).

والأجل القريب، هو الأجل الذي يطلب الإنسان أن يتأخر إليه

بعد مجيء أجله المسمى، (وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ)، (وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ)، (فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ).

والأجل المحدود، هو وقت نهاية الدنيا، قال تعالى: (ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ).

ومن حدد هذه الآجال هو الله، ولذلك أضيف إليه باعتباره الفاعل: (وَيُؤَخِّرُكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنْ أَجَلَ اللَّهُ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ)، (مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ). وأضيف إلى المخلوق باعتباره المفعول، أي الأجل الواقع عليه، (فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)، (وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا).

### ثالثا: حالات التوفي

ثالثا: في سورة الحج: (ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا)، وفي سورة غافر: (ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى).

في الأولى قال: (ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أردل العمر)، وفي الأخرى (ومنكم من يتوفى من قبل وتبلغوا أجلا مسمى).

فالآيتان تتحدثان عن ثلاث حالات لبلوغ الأجل، الحالة الأولى: أن يعمر الإنسان المدة المتعارف عليها بين الناس. والحالة الثانية: أن يقل عن ذلك، والحالة الثالثة أن يزيد عن ذلك.

أما الحالة الأولى: فهي التعمير، أي: إتمام العمر، وهو المراد في فاطر بقوله: (وما يعمر من معمر)، وهو المراد بقوله: (من يتوفى)، أي يتوفى بعد بلوغ المدة التي يبلغها الناس عادة في زمنه، ولكل جيل مدة تختلف عن الجيل الآخر، وهذه الأمة قال الرسول صلى الله عليه وسلم عن أعمارها: (أعمار أمتي ما بين الستين والسبعين، وأقلهم من يجوز ذلك) فمن مات أو قتل في هذا السن فقد عمر عمره.

الحالة الثانية: نقص العمر، وهو المراد بقوله: (من يتوفى من قبل)، أي: من قبل بلوغ ذلك العمر، وهو المراد بقوله في سورة فاطر (ولا ينقص من عمره). فأجله المسمى أن يكون عمره ناقصاً عن عمر أمثاله.

والحالة الثالثة: الزيادة في العمر، وهو من يتجاوز عمر أمثاله من الناس، كما في الحديث (وأقلهم من يجوز ذلك). وقد تكون زيادة كثيرة وهو ما يسميه القرآن الرد إلى أرذل العمر: (من يرد إلى أرذل العمر)، وهو المراد بقوله: (ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً).

وكل هؤلاء بلغوا أجلهم المسمى، سواء أعمروا عمراً تاماً، أم نقص من عمره، أم زيد في عمره.

وكل إنسان جعل الله له أجلاً مسمى، وحدد أجله، وحدد هل يكون له عمر تام أم ينقص من عمره أم يزيد في عمره.



### رابعاً: الدلالة على الهرم

رابعاً: استخدم القرآن الكريم للدلالة على الهرم، أفاضاً وتراكيب معينة، وهي: الضعف والشيبة، (ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً)، والرد إلى أرذل العمر: (من يرد إلى أرذل العمر)، ووصفت الحالتان بالضعف والشيبة، ويقصور العلم (لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً).

### خامساً: لفظ (الخلق) معرفة

جاء لفظ (الخلق) معرفة خمس عشرة مرة، على النحو التالي:

- (٨ مرات) اقترن مع لفظ البدء والإعادة. وقد تحدثت عنه سابقاً.

- مرة جاء موصوفاً: (الخلق الأول)، وقد تحدثت عنه.

- ثلاث مرات جاء مقترنا مع الزيادة أو التنكيس، وهو ما تحدثت عنه في هذا المطلب. وفي كل هذه المواضع الثلاثة، تكون (ال) نائبة مناب الضمير، قال تعالى: (وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً)، أي في خلقكم، فالضمير يعود إلى قوم عاد. وقال: (يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)، أي: في خلقهم، والضمير يعود إلى الملائكة. وقال: (وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ)، أي: ننكسه في خلقه، فالضمير يعود إلى المعمر.

- ثلاث مرات، جاء مصدراً للدلالة على (الخلق الذي خلقه الله)، مرة جاء مقترنا بالأمر: (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)، ومرة



بنفي الغفلة عنه: (وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ)، ومرة بنفي  
مشابهة أحد لأن يخلق كخلقه: (أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ  
خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ).

ففي آية فاطر، يرجح أن (ال) نائبة مناب الضمير، ومن ثم فهو  
يتحدث عن المعمر نفسه. وهذا يبين ضعف قول ابن عاشور أن المراد  
بـ(الخلق) المخلوق، فلم يرد الخلق بمعنى المخلوق في القرآن الكريم،  
وورد للدلالة على المخلوق: (من خلق)، و(ما خلق)، كما بينته في  
المطلب الثاني: (المخلوقات).

### سادساً: مفهوم التنكيس

قال في مقاييس اللغة: (نكس: أصل يدل على قلب الشيء، وكل  
تراكيبه تدل على ذلك المعنى). وفي الصحاح: (نكست الشيء أنكسه  
نكساً: قلبته على رأسه فانتكس. ونكستهُ تنكيساً. والناكسُ:  
المُطَاطئُ رأسه). وفي المفردات للراغب: (النكس: قلب الشيء على  
رأسه).

وقد ورد في القرآن الكريم في ثلاث آيات، قوله تعالى: (وَمَنْ نُعَمِّرْهُ  
نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ)، وقوله: (ثُمَّ نُكْسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا  
هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ)، وقوله: (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ  
رَبِّهِمْ).

النكس كما قال العلماء: قلب الشيء على رأسه، فيعود المقدم

مؤخراً، والعالي سافلاً، ومنه قيل: نكس رأسه، فالرأس عالٍ، فحين ينكس رأسه فإنه يطأطئه ويرده سافلاً. وانتكس المريض: رجع إلى المرض وقد بدأ بالتحافي منه.

فدلالة التنكيس إذن: هي ردّ الشيء إلى حالته الأولى، بعد أن تجاوزها إلى حالة أفضل. وهو يرتبط بالرد المذموم.

وقوله (ثم نكسوا على رؤوسهم)، يبين أن القوم بدأوا يهتدون حين وعظهم إبراهيم، ويفكرون بمنطقه القوي وحجته الباهرة، فكان حرياً بهم أن يعلنوا الحق ويعترفوا بأن آلهتهم لا تنفع ولا تضر. فلما وصلوا إلى هذا المستوى المتقدم من التفكير، نكسوا، أي رجعوا على أعقابهم إلى الضلال والغي، فقالوا: لقد علمت ما هؤلاء ينطقون.

وتنكيس الله لابن آدم، أن يرده إلى حالته الأولى، بعد أن تجاوزها إلى حالة أفضل. وهذه الحالات يبينها قوله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً)، فالحالة الأولى: الضعف، والحالة الثانية القوة، والحالة الثانية هي الرد إلى الحالة الأولى، فهي الضعف والشيبة. وهذه الحالة هي الوهن من بعد القوة.

### سابعاً: سياق الآيات:

قال تعالى: (وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ) (٦٦) (وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ) (٦٧) (وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ).

الآيات السابقة كانت تتحدث عن اليوم الآخر: (مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ)، ثم تحدث النسخ في الصور، ثم الخروج من الأجداث، ثم الحساب والجزاء، ثم نعيم أصحاب الجنة، ثم عذاب أصحاب النار وتبكياتهم، والتبيين لهم أن طاعتهم للشيطان أوردتهم المهالك. ثم قال: (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ).

والمعنى: اليوم (أي اليوم الآخر) سنسلب منهم ما آتيناهم من إمكانات في الدنيا، ونبدل الإمكانيات، فالأفواه كانت تتكلم في الدنيا، أما اليوم فالذي يتكلم الأيدي والأرجل. فهو يصور قدرة الله التي تتحقق ذلك اليوم.

وهذه القدرة المتحققة في اليوم الآخر، هي قدرة ممكنة، لو شاء الله سبحانه وتعالى لفعّلها في الدنيا، وقد جاءت ثلاث آيات تبين ذلك:

تتحدث هذه الآيات عن قدرة الله الممكنة، ففي الآية الأولى يتحدث عن قدرته لو شاء في طمس الأعين، وإذهاب قدرتها على الإبصار، وفي الآية الثانية يتحدث عن قدرته لو شاء على إذهاب ما آتاهم من استطاعة على الحركة، فما يستطيعون الحركة.

ثم جاءت الآية الثالثة، فتحدثت عن أن من يعمره الله ينكسه في الخلق. فالآية جاءت في سياق الحديث عن القدرة الممكنة (وهي القدرة التي تبين أن لو شاء الله لفعّل، ولكنه لم يفعل). ولم تأت في سياق القدرة المتحققة (أي: التي تبين الأقدار المتحققة في الخلق).



## ثامناً: دلالة الآية:

الأولى حمل الآية الثالثة على سياق الآيات السابقة. وهو أنها تتحدث عن القدرة الممكنة لا المتحققة.

ومعنى التعمير في الآية: الخلود، والخلود هو استيفاء عمر الدنيا كلها. جاء في لسان العرب: (العَمْرُ والعُمُرُ: الحياة.. وسمي الرجلُ عَمْرًا؛ تَفَاوُلًا أن يَبْقَى) وقال الجوهري: (معنى: لَعَمْرُ الله وَعَمْرُ الله: أحلف ببقاء الله ودوامه)، وفي لسان العرب: (وَعَمَّرَهُ اللهُ، وَعَمَّرَهُ: أبْقَاهُ) وقال ابن فارس: (العمر: الحياة، وهو أصل يدل على بقاء وامتداد زمان).

فمعنى الآية: ومن نخلده في الدنيا فإننا ننكسه في خلقه، أي لو خلدنا أحدا منكم في الدنيا لنكسناه في الخلق؛ فقد اقتضت سنن الله ألا خلود في الدنيا.

فهو يقول: نحن قادرون (لو شئنا) أن نذهب ما آتينا الإنسان من إمكان البصر والحركة، والتمتع بالحياة، فالقوى التي آتيناها ليتمتع بها في الحياة (القوى، مثلاً: الإبصار، والسمع، والحركة، والبطش، والتفكير... إلخ، وكل ما آتى الله الإنسان من قوى يستطيع بها أن يحيا في الأرض)، فلو خلد الله الإنسان لنكسه في الخلق، وسلب منه تلك القوى المودعة فيه، فرجع بلا شيء، أو صار حجارة أو حديداً.

فالتنكيس في الخلق هو سلب كل القوى التي آتاها الله الإنسان

منه، وإرجاعه بلا قوة، فما يستطيع حركة ولا فعلا ولا إبصارا ولا سمعا، ويكون مثله كمثل البشر قبل نفخ الروح فيه. فما الذي ينفعه الخلود في الدنيا؟

ولكن قضى الله ألا خلد إلا في الآخرة: (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ).

كما أن الدنيا نفسها لها أجل مسمى: (مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى)، فهي غير خالدة، وكل من في السماوات والأرض غير خالدين، وسيأتي يوم يصعقون فيه جميعاً: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ).

والله أعلى وأعلم.



### تاسعاً: التنكيس في الخلق سيكون في الآخرة:

بينت أن الآية تعني: ومن نعمه عمر الخلود في الدنيا فسوف تنكس خلقه، فيرجع مسخاً، كالحجارة أو الحديد، لا يستطيع الحركة ولا الإبصار ولا السمع، ... إلخ.

ولكن الله قضى أنه لا ينكس خلق المؤمنين الذين أعتقوا رقابهم من النار، وفكوا رهن أنفسهم. أما من كفر وتولى وجاء يوم القيامة وهو يحمل وزره، فإن الله ينكس خلقه، ويرده أسفل سافلين. فيرجع

مسخاً آخر، يذوق العذاب بوصفه إنساناً، ولكنه يكون في حالة لا حياة فيها ولا موت، ولا يسمع ولا يبصر ولا يتكلم، ولا يمشي. وهذه حال أهل جهنم والعياذ بالله، كما تخبرنا آيات الكتاب الكريم.

وهذا مفهوم قوله تعالى: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)،

أي: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، فوهبنا له السمع والبصر والقلب وأمكنه من التعقل والتفكر، وأودعنا فيه كثيراً من القوى والإمكانات التي جعلته في أحسن تقويم، وسيكون في هذا التقويم الحسن مدة حياته في الدنيا.

وترتهن نفسه ونجاتها وانتقالها إلى مرحلة أفضل من التقويم بكسبه (الإيمان وعمل الصالحات)، فإن أحسن فإنه ينتقل إلى حال أفضل وهي الحال التي لا نعلم عنها كثيراً، فهي النعيم المقيم، والقوى المطلقة للإنسان، ونيل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين.

ولكن إن لم يفك رهان نفسه، فإنه ينتقل إلى حالة السوء، فيرده الله أسفل سافلين، وهي الظلمة التامة التي لا نور فيها، وحتى أعضاء الإنسان فيها لا تستطيع أداء وظائفها من حركة وبصر وسمع، فيكون الإنسان في أسفل سافلين مسخاً؛ معه أذن ولا يسمع بها، ومعه عين ولا يبصر بها، ومعه رجل ولا يمشي بها، ومعه يد ولا يبطش بها. وهذا أشد العذاب أن تسلب الانتفاع بالقوى الموجودة لديك.

ويفسر هذا قوله تعالى: (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّاصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّاصُوا بِالصَّبْرِ، وقوله: (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ). فالإنسان في خسر، (في أسفل سافلين، ينكس الله خلقه) إذ نفسه تبقى رهينة بكسبها، لم يفك رهانه، ولم ينقذها، إلا المؤمنون أصحاب اليمين، فإنهم لن يكونوا في خسر، ولن يردهم الله أسفل سافلين، ولن ينكس الله خلقهم.

وآيات يس الثلاث، تبين أن هذه قدرة الله سبحانه وتعالى التي ستتحقق في الآخرة، لمن كفر وتولى، (وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧) وَمَنْ نَعْمَرَهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ). فهو يقول: ولو نشاء لفعلنا ذلك في الدنيا، ولكننا لا نفعله إلا في الآخرة.

فيطمس الله على أعينهم، كما قال تعالى: (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا وَيُكَمِّمَا وَصُمًّا)، وقال: (وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى).

والكلام سيسلب منهم: (اٰخَسْتُو فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوْنَ).

والحركة ستسلب منهم، فيحضرون إلى العذاب إحضاراً، كما قال: (وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ)، أي لا يقدر على الحركة، فتحضرهم زبانية جهنم إلى العذاب، كما قال: (وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ).

ويردون إلى أسفل سافلين، فينكس الله خلقهم، فيكونون في  
جهنم كالذباب المسوخة؛ يتعذبون وهم لا يتكلمون ولا يسمعون،  
ولا يبصرون، ولا يتحركون.





## المطلب التاسع: وربك يخلق ما يشاء ويختار

قوله تعالى: (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ  
سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ).

### مع المفسرين:

تعددت تفسيرات المفسرين لقوله (ويختار)، ومجملها: أنه يختار  
الرسل التي يبعثها، وقيل: يختار الشرائع والدين الذي يعبدونه به،  
وقيل يختار من شاء من خلقه لطاعته، وقيل: يختار من شاء من  
الخلق أنصارا لدينه، وقيل يختار من خلقه من يشاء، إما لطاعته، أو  
لرسالته، أو لتفضيله...

وكل هذه التفسيرات ترجع إلى معنى: اختيار الله من يشاء من  
خلقه ليفضله بنوع من التفضيل، إما الرسالة، وإما الطاعة، ... الخ.

### لفظ (يختار) مسندا إلى الله:

جاء فعل الاختيار مسندا إلى الله سبحانه وتعالى، ثلاث مرات،  
آية القصص (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ)،  
وآية طه (إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى  
١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى)، وآية الدخان (وَلَقَدْ نَجَّيْنَا  
بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنْ  
الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَلَقَدْ اخْتَرْنَاَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ).

فآية القصص تدل على اختيار مطلق مما خلقه الله، وآية طه  
والدخان تدل على اختيار ممن خلق الله من الناس.

### الوجه في تفسير الآية عندي:

والوجه عندي أن المعنى: وريك يخلق ما يشاء، ويختار مما  
خلقه ما شاء فيبرأه، فكل شيء خلقه الله، وهو في كتاب مبين، كما  
بينت آي الكتاب، والله سبحانه وتعالى يختار ما شاء مما خلق  
فيظهره، ويختار المكان الذي يبرأه فيه، والزمان الذي يبرأه فيه، فكما  
أن له الخلق المطلق، فله الاختيار المطلق. وقوله (ما كان لهم  
الخيرة)، أي: ما كان لهم الاختيار في تحديد زمان وجودهم أو مكانه،  
فضلا عن اختيار وجود مخلوقات أخرى، فالله هو من اختار ذلك.  
فهذه الآية يفسرها قوله (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي  
أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا).

وقد جاء قوله تعالى: (مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا  
خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَّخَذِينَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا)، لينفي عنهم أن  
يكون لهم رأي في الخلق، لا خلق أنفسهم ولا خلق شيء، وجاء قوله  
(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ  
وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)، لينفي عنهم أن يكون لهم رأي في الاختيار من  
الخلق.

ويرجح ما ذهب إليه أن لفظ (ما) في قوله: يخلق ما يشاء، عام  
يعم كل المخلوقات، ولا يقتصر على الإنس وحدهم، و(يختار) عطف  
عليه، والتقدير: ويختار ما يشاء، فمفعوله عام أيضا، ولا داعي لقصر

الاختيار على أن يكون المفعول هو البشر، سواء قلنا بالرسالة أو الطاعة، فذلك يستقيم لو قال: (من يشاء)، وليس (ما يشاء).

وقد أسند الفعل إلى الرب (وربك)، فالرب هو الذي يخلق وهو الذي يختار، وهو الذي يسوي ما خلق، وهو الذي يدبر الأمر، فللرب صلة بأفعال الخلق والتدبير. وكذلك في سورة طه (إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ)، أي: أنا ربك من اختارك، فهو يدبر أمر الخليقة، فيختار منهم من شاء لما شاء.

والآية تقرر أن الله يخلق ما يشاء، وهذا قررته آيات كثيرة، والأمر الآخر: أن الله يختار مما خلق ما يشاء، يختار أن يبرأه، فهو اختيار الوجود والزمان والمكان... فسبحانه وتعالى عما يشركون.

فهو الذي يخلق، وهو الذي يختار، ثم يشركون به آلهة أخرى لا تخلق ولا تختار!؛ (فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ).

ومثلما دل قوله (ويختار) على اختيار الوجود، فإنه يدل على اختيار الطريقة التي يوجد بها الشيء، وهذا كقوله تعالى: (وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَنْ نُبَدَّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَّا تَعْلَمُونَ)، فهو اختار للإنسان مسارا معيناً لنشأته، ولو شاء لأنشأه نشأة أخرى.

كما يدل على اختيار الهيئة، فالله يختار للمخلوق الهيئة التي يكون عليها، فمثلا الإنسان: يختار الله له اللون، والطول، وسائر

الصفات الخلقية، وقوة سمعه وبصره... وهذا ما يفسره قوله عليه السلام: (ومتعنا بأسماعنا، وأبصارنا، وقواتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا).

والخلاصة أن المعنى: وربك يخلق ما يشاء، ويختار ما شاء مما خلق، يختار وجوده وطريقة وجوده، وهيئته التي يبدو عليها. ومن ثم ففعل الاختيار متصل بالخلق.



## المطلب العاشر: تراكيب أخرى

وما كنا عن الخلق غافلين:

قال تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ).

قال الطبري: (وما كنا في خلقنا السموات السبع فوقكم، عن خلقنا الذي تحتها غافلين، بل كنا لهم حافظين من أن تسقط عليهم فتهلكهم). وقال ابن الجوزي في زاد المسير: (فيه ثلاثة أقوال: أحدها: ما غفلنا عنهم إذ بنينا فوقهم سماء أطلعنا فيها الشمس والقمر والكواكب. والثاني: ما كنا تاركين لهم بغير رزق، فأنزلنا المطر. والثالث: لم نغفل عن حفظهم من أن تسقط السماء عليهم فتهلكهم).

وقال القرطبي: (ويحتمل أن يكون المعنى أي في القيام بمصالحهم وحفظهم، وهو معنى الحي القيوم). وقد فسرها ابن كثير بالعلم، أي: عليم بكل ما خلق، كما قال (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين). وكلاهما بمعنى فالقيوم على خلقه هو عليم به.

وقال البقاعي: ("وما كنا" أي على ما لنا من العظمة، "عن

الخلق" أي الذي خلقناه وفرغنا من إيجاده وعن إحداه ما لم يكن، بقدرتنا التامة وعلمنا الشامل "غافلين"، بل دبرناه تدبيراً محكماً ربطناه بأسباب تنشأ عنها مسببات يكون بها صلاحه، وجعلنا في كل سماء ما ينبغي أن يكون فيها من المنافع، وفي كل أرض كذلك، وحفظناه من الفساد إلى الوقت الذي نريد فيه طي هذا العالم وإبراز غيره، ونحن مع ذلك كل يوم في شأن، وإظهار برهان، نعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، إذا شئنا أنفذنا السبب فنشأ عنه المسبب، وإذا شئنا منعه مما هبء له، فلا يكون شيء من ذلك إلا بخلق جديد، فكيف يظن بنا أنا نترك الخلق بعد موتهم سدى، مع أن فيهم المطيع الذي لم نوفه ثوابه، والعاصي الذي لم ننزل به عقابه، أم كيف لا نقدر على إعادتهم إلى ما كانوا عليه بعد ما قدرنا على إبداعهم ولم يكونوا شيئاً).

والأولى في تفسير الآية هو ما قاله القرطبي وابن كثير وغيرهم، ممن فسره بالقيومية، فهذه الآية من أدلة قيومية الله سبحانه وتعالى، وحفظه لخلقه، فهو ما خلق الخلق وغفل عنهم، بل حفظهم، وقام عليهم، وهو يعلم كل شيء خلقه، سبحانه وتعالى. وسأتحدث عن هذه في بحث (الغيب والشهادة).



(أعطى كل شيء خلقه):

هناك أقوال عديدة ذكرها المفسرون في تفسير الآية، وقد لخصها الشنقيطي في أضواء البيان، فيمكن الرجوع إليه.

وما يترجح لي هو ما قاله مجاهد، ونقله عنه الطبري: (أعطى كل شيء صورته)، وروي عنه: (سوى خلق كل دابة ثم هداها لما يصلحها وعلمها إياه، ولم يجعل الناس في خلق البهائم، ولا خلق البهائم في خلق الناس، ولكن خلق كل شيء فقدره تقديرا)، ويشمل ذلك أيضا ما ذكره الزمخشري: (أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به، كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع، وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان: كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة، غير ناب عنه). وقال البقاعي: (أي [أعطى كل شيء] ما هو عليه مما هو به أليق في المنافع المنوطة به، والآثار التي تتأثر عنه من الصورة والشكل والمقدار واللون والطبع وغير ذلك مما يفوت الحصر، ويجل عن الوصف).

فأعطى كل شيء خلقه، يقصد به التقدير، أي: أعطى كل شيء قدره المناسب له من مختلف الخواص: الكمية والكيفية والزمنية والمكانية... إلخ. ثم هدى لما قدر، وهذا كقوله تعالى: (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)، فالهداية بعد التقدير.



## المبحث الثاني: عملت أيدينا

### المطلب الأول: (مما عملت أيدينا) تفسير الآية ومفهومها

أولاً: الفرق بين (خلق) و(خلق من):

المتدبر لآيات القرآن الكريم يجد أن ثمة استخدامين لفعل الخلق وارتباطه بال مخلوق، الأول: المجيء بـ(خلق)، ثم المفعول، دون المجيء بـ(من)، والثاني: (خلق من)، فما الفرق بينهما؟

أولاً: اطرء استخدام فعل الخلق غير مقترن بـ(من)، مع: (السموات والأرض)، ومع (كل شيء)، كقوله: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَقَوْلَهُ (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ)، ولم يقترن بـ(من) فيهما قط.

ثانياً: جاء استخدام (من) عند الحديث عن سائر المخلوقات الأخرى: الإنسان، والجان، والأزواج، والأنعام. وهذا يعني أنه بدأ خلقها من شيء آخر، ومن أمثلة ذلك: (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ)، (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ)، (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ)، (وإِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ)، (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ)، (وَسُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ) وهذه الآية تفسر قوله تعالى: (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ) ... إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الواردة في هذا الباب.



وعلى ذلك تحمل الآيات، كقوله: (قَالَ أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا)، أي: لمن خلقته من طين. وقوله: (وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا)، أي: خلق من ضعف، كما في قوله: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ). وقوله: (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا)، أي: خلق من هلع، وهذا يفسره قوله تعالى: (خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ).

كما يحمل على ذلك قوله تعالى: (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا)، أي: خلقنا من النطفة علقة، فخلقنا من العلقة مضغة، فخلقنا من المضغة عظاما، بدليل قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ).

### والسؤال هنا: ما الفرق بين الاستخدامين؟

بينت في بحث آخر أن المراحل الفاصلة في السماوات والأرض ثلاث، الأولى: مرحلة الخلق حيث خلق الله السماوات والأرض وما فيهن، والثانية: التقدير والتسوية، حيث سوى سبحانه ما خلق، وهو قوله (خلق فسوى)، والمرحلة الثالثة: التدبير، وهو قوله (يدبر الأمر)، وقوله (ألا له الخلق والأمر).

فالمرحلة الأولى: خلق الله فيها السماوات والأرض، وخلق فيها الأصول التي أنشأ منها كل شيء، فأما السماوات والأرض فلم يذكر القرآن الكريم أنهما خلقا من شيء آخر، وسكوت القرآن عن ذلك قد يدل على أن أول خلقهما كان من غير شيء، وقد لا يدل على ذلك.

ثم خلق الله الأشياء الأخرى من تلك الأصول.

### والسؤال: ما الدليل على ذلك؟

الدليل الأول: اطراد استخدام فعل الخلق، كما أوضحت آنفاً.

والدليل الثاني، قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ)، ولم يرد في القرآن الكريم نسبة العمل إلى الخالق في غير هذا الموضع، فقوله (مما عملت أيدينا)، يتحدث عن الأصول التي خلقها الله، ومنها خلق سائر الخلق، وقد جاء بقوله (مما عملت أيدينا).



ثانياً: تفسير قوله: (مما عملت أيدينا):

(مع كتب التفسير في تفسير: مما عملت أيدينا)

قال الطبري: (مما خلقنا من الخلق).

وقال مكي بن أبي طالب: (من خَلَقْنَا).

وقال السمرقندي: (يعني: أنا خلقنا لهم بقوتنا، وبقدرتنا،

وبأمرنا).

وقال الواحدي: (أَيُّ: عملناه من غير واسطةٍ ولا توكيلٍ ولا

شريكٍ أعاننا).

وقال ابن عطية: (وقوله تعالى أَيْدِينَا عبارة عن القدرة عبر عنها

بيد وبأيدين وبأيدي، وذلك من حيث كان البشر إنما يقيمون القدرة

والبطش باليد، فعبر لهم عن القدرة بالجهة التي قرئت في أفهامهم،  
والله تعالى منزّه عن الجارحة والتشبيه كله).

قال أبو السعود: (أي مما تولينا إحدائه بالذات. وذكر الأيدي  
وإسناد العمل إليها استعارة تفيد مبالغة في الاختصاص والتفرد  
بالإحداث والاعتناء به).

واللفتة المهمة وجدتها عند ابن عاشور في التحرير والتنوير، قال:  
(واستعير عمل الأيدي الذي هو المتعارف في الصنع إلى إيجاد أصول  
الأجناس بدون سابق منشأ من توالد أو نحوه فأسند ذلك إلى أيدي  
الله تعالى لظهور أن تلك الأصول لم تتولد عن سبب كقوله:  
(والسما بنيناها بأيدي)، ف(من) في قوله: مما عملت ابتدائية لأن  
الأنعام التي لهم متولدة من أصول حتى تنتهي إلى أصولها الأصلية  
التي خلقها الله كما خلق آدم، فعبر عن ذلك الخلق بأنه بيد الله  
استعارة تمثيلية لتقريب شأن الخلق الخفي البديع مثل قوله: {لما  
خلقت بيدي}).

### التحقيق في الآية:

يبين ابن عاشور أن استخدام (عمل الأيدي) في هذا السياق  
استعارة لبيان إيجاد الأصول التي خلق منها الأشياء.

وهو ما تبين لي، غير أن اهتمامي ينصب على لفظ (عملت)  
وليس (أيدينا)، فهذا الموضع فرد في القرآن الكريم، وليس له نظير، و  
هو الموضع الوحيد الذي سيق لبيان الأصول، وهو الموضع الوحيد  
الذي نسب العمل إلى الخالق، فلفظ (عملت أيدينا) استخدم لبيان

الأصول التي نشأت منها الأشياء الأخرى. كما جاء في السورة نفسها قوله (لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ)، فهو ينفي نسبة العمل إلى أيديهم، ويثبتها له سبحانه في الآية الأخرى (عَمِلَتْ أَيْدِينَا).

والعمل في اللغة العربية يطلق على الفعل الذي يكون عن قصد وصنعة، كما في اللسان، ويدل عليه قوله: (أَنْ اِعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ)، و(يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَتَمَائِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)، و(فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ). وقوله: (ما عملته أيديهم)، أي: ما صنعته، وقد سمى الله بديع خلقه صنعا، قال تعالى: (صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي اتَّقَنَ كُلَّ شَيْءٍ). فقوله (مما عملت أيدينا)، أي: مما صنعته لحكمة، وهو أن يكون أصلا لغيره. فقوله (عملت أيدينا) جاء لبيان الأصول الأولى التي خلقها الله من غير شيء، وخلق منها الأشياء.

### ثالثاً: (ما الأصول السابقة)؟

والآن نتساءل: ما الأشياء الأصول السابقة التي خلقها الله، وخلق منها الأشياء؟

بالعودة إلى القرآن الكريم يتبين لنا بعض من الأصول، مثل: الماء، والتراب.

فالله جعل كل شيء حي من الماء، قال تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ).

وبين أن خلق الإنسان من تراب، (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ).

والقرآن الكريم لم يذكر صراحة أن السماوات والأرض خلقتا من شيء، فما أصولهما السابقة؟

وسأتناول الإجابة عن هذا السؤال في المطلب التالي.

كما أن الأرض من الأصول السابقة، ولهذا قال عن الشركاء المزعومين (أُرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ)، فهذا رتبة أعلى في التحدي، فهو يقول: أنا خلقت الأصل وهي الأرض، فماذا خلقوا من هذه الأصل؟

وهناك أصول ثانوية، متولدة من الأصول الأولى، فالإنسان أصله الأول التراب، ومنه خلق آدم (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)، ومنه خلق زوجته، فهو أصل ثانوي بالنسبة للإنسان، قال تعالى: (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا).

رابعاً: (أكبر من خلق الناس)

قال تعالى: (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)، فهي أكبر لوجوه كثيرة، ومنها أن السماوات والأرض أصول سابقة، أما الإنسان فليس أصلاً أولاً، بل هو مخلوق من أصول سابقة. وهذا وجه من الوجوه. وفي قوله (فَاسْتَفْتِهِمْ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ)، أي: أهم أشد خلقاً وقد خلقناهم من أصول سابقة (من طين)، أم من

خلقناه خلقاً أولاً؟

وقوله: (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا  
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَّا يُوقِنُونَ)

قال ابن الجوزي في زاد المسير: (فيه أربعة أقوال: أحدها: أم خلقوا  
من غير رب خالق؟ والثاني: أم خلقوا من غير آباء ولا أمهات، فهم  
كالجماد لا يعقلون؟ والثالث: أم خلقوا من غير شيء كالسموات  
والأرض؟ أي: إنهم ليسوا بأشد خلقاً من السماوات والأرض. لأنها  
خلقت من غير شيء، وهم خلقوا من آدم، وآدم من تراب. والرابع: أم  
خلقوا لغير شيء؟ فتكون «من» بمعنى اللام، والمعنى: ما خلقوا عبثاً  
فلا يؤمرون ولا ينهون).

والذي يرجح لي من هذه الأقوال هو الأول؛ لأن التقسيم يقتضي  
ذلك: فإما أن يكون الإنسان خلقاً من غير خالق، أو خلقه خالق.  
والأول باطل، فكيف يُخلق من غير خالق؟! فالاحتمال الثاني أن يكون  
خلق خالق، فهذا الخالق إما أن يكون الإنسان نفسه، أي أنه خلق  
نفسه، أو خالق آخر. فإذا كان الإنسان هو خلق نفسه فهل هو من  
خلق السماوات والأرض؟ والإنسان لم يخلق السماوات والأرض، ولم  
يوجد إنسان يدعي ذلك، وبذلك يبطل أن يكون الإنسان خلق نفسه  
أيضاً، فالخالق واحد.

## المطلب الثاني: الماء والتراب وعلاقتهما بأصل الخلق

أسأتحدث في هذا المطلب عن: الماء والتراب، فقط بالنظر إلى ما يتعلق بأصل الخلق، وأما الماء والتراب في القرآن الكريم فسأتحدث عنه في بحث: الأرض في القرآن الكريم.

الآيات التي تتحدث عن الماء تبين حقيقتين كبيرتين:

الأولى: الماء مخلوق قبل خلق السماوات والأرض.

الثانية: كون الماء سببا لكل شيء حي.

### أولاً: الماء مخلوق قبل السماوات والأرض:

قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) [سورة هود]، الآية تفيد أن العرش كان على الماء من قبل خلق السماوات والأرض، فالعرش والماء كانا قبل السماوات والأرض.

وفي حديث عمران بن حصين في صحيح البخاري أن أهل اليمن سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: نسألك عن أول هذا الأمر، فقال: "كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء". وفي رواية له: "كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض".

قال ابن حجر في فتح الباري: (وفيه دلالة على أنه لم يكن شيء

غيره، لا الماء ولا العرش ولا غيرهما؛ لأن كل ذلك غير الله تعالى، ويكون قوله "وكان عرشه على الماء"، معناه أنه خلق الماء سابقاً ثم خلق العرش على الماء. وقد وقع في قصة نافع بن زيد الحميري بلفظ: "كان عرشه على الماء ثم خلق القلم: فقال: اكتب ما هو كائن، ثم خلق السماوات والأرض وما فيهن"، فصرح بترتيب المخلوقات بعد الماء والعرش). ثم قال: (أشار بقوله "وكان عرشه على الماء" إلى أن الماء والعرش كانا مبدأ هذا العالم لكونهما خلقاً قبل خلق السماوات والأرض، ولم يكن تحت العرش إذ ذاك إلا الماء).

وأود التعليق على قوله: أن (الماء كان قبل العرش)، فالذي تفيده الآية والحديث الصحيح أن الماء والعرش كانا قبل خلق السماوات والأرض، وليس في الآية أو الحديث بيان أيهما كان أولاً، والقول بأن الماء سابق على العرش، يأتي من حديث آخر، فيه ضعف، وقد يكون ناشئاً عن فهم الاستعلاء (على)، فالعقل البشري لا يمكنه أن يتصور الشيء الذي فوق إلا إذا كان له تحته شيئاً يسنده. فلو قلت: العصفور فوق الشجرة، فإن الذهن مباشرة يتصور أن الشجرة موضوعة أولاً، ثم جاء العصفور فوقها، ولو قلت: القلم فوق المكتب، يفيد أن المكتب وضع أولاً. إلا أنني أعود فأقول أن هذا التصور البشري محدود، ولا يمكن أن نجعله قياساً في أمور خارجة عن قدرته ومداه. ومن ثم فقد يكون الماء سابقاً وقد يكون العرش، ولا دلالة على أي منهما. والقول الصحيح أن نقول: (وكان عرشه على الماء)، فالعرش والماء هما أول الخلق، دون الجزم بأسبقية أحدهما، فربما خلق أحدهما قبل الآخر، وربما خلقا معاً، ونحن لا نقول إلا بما علمنا.



## ثانياً: الماء أصل / أو سبب لكل شيء حي

هل الماء أصل لكل شيء حي؟ أو سبب لكل شيء حي؟

الآيات التي تربط بين الماء والحياة، يمكن تصنيفها إلى مجموعتين، كالتالي:

المجموعة الأولى: (ما يتعلق بسبب الأصل) آيتان، وهما قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا)، وقوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا). وفيها يأتي (الماء) معرفة، ويتعدى فعل الجعل أو الخلق إليه ب(من).

المجموعة الثانية: (ما يبين السبب)، بقية الآي التي تتحدث عن كون الماء سببا في حياة الأرض، أو في إخراج النبات. ويأتي فعل الإخراج أو الإنبات أو الإحياء متعديا بالباء، وقد يأتي الماء معرفة، وقد يكون نكرة.

### (١): ما يتعلق بسبب الأصل:

قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)، وقوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا).

### الآية الأولى: (وجعلنا من الماء كل شيء حي):

فهذه الآية تفيد أمرين:

الأول: أن الله جعل من الماء كل شيء حي. والمتدبر يجد أن

الفاعل المستخدم هنا: (جعل) وليس (خلق)، وجعل هنا - كما سيأتي -  
- تفيد معنى التصيير، فمعنى الآية: صيرنا كل شيء حي من الماء،  
وهذا كقوله: (جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا)، أي: صير لكم من  
أنفسكم أزواجاً، ف(جعل) هنا جاءت بمعنى: خلق، مع التصيير؛ لإفادة  
شيء متعلق بالأصل، وبيان أن الله أنشأ من ذلك الأصل شيئاً آخر،  
وكقوله: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا).

والثاني: أن الله لم يجعل من الماء كل شيء، وإنما كل شيء  
حي، فلم يقل: جعل منه كل شيء، بل خصصه، والتخصيص في هذا  
المقام يفيد معنى أن غير المخصص ليس كل ذلك، بمعنى: الأشياء  
غير الحية لم يجعلها الله من الماء.

وأما حديث أبي هريرة عندما سأل رسول الله صلى الله عليه  
وسلم: أنبئني عن كل شيء. فقال: "كل شيء خلق من ماء" رواه  
أحمد، وقد ضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة، ولكن  
الألباني صحح في مشكاة المصابيح ما رواه الترمذي وأحمد أن أبا  
هريرة سأل: مم خلق الخلق؟ فقال "من الماء"، وضعفه في ضعيف  
الترمذي. فالحديث في تصحيحه خلاف.

ثم إن الآية (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) دليل على ضعفه،  
وعلى افتراض صحته فيحمل على أن المراد ب(كل شيء) في الحديث:  
كل شيء حي. ومن ثم فالآية دليل على اختصاص الماء بالأشياء  
الحية، وليس بمطلق الأشياء.

وقد اختلف المفسرون فذهب بعضهم إلى التخصيص كما في

الآية، وبعضهم أطلق فقال: كل شيء، قال الطبري: (وأحيينا بالماء الذي نزلته من السماء كل شيء. فإن قال قائل: وكيف خص كل شيء حيّ بأنه جعل من الماء دون سائر الأشياء غيره، فقد علمت أنه يحيا بالماء الزروع والنبات والأشجار، وغير ذلك مما لا حياة له، ولا يقال له حيّ ولا ميت؟ قيل: لأنه لا شيء من ذلك إلا وله حياة وموت، وإن خالف معناه في ذلك معنى ذوات الأرواح في أنه لا أرواح فيهنّ وأن في ذوات الأرواح أرواحا)، وقال ابن عطية: (يحمل على أعم ما يمكن فالحيوان أجمع والنبات على أن الحياة فيه مستعارة داخل في هذا). وقال الرازي: (اختلف المفسرون، فقال بعضهم المراد من قوله: كل شيء حي الحيوان فقط، وقال آخرون: بل يدخل فيه النبات والشجر لأنه من الماء صار ناميا وصار فيه الرطوبة والخضرة والنور والثمر، وهذا القول أليق بالمعنى المقصود، كأنه تعالى قال: ففتقنا السماء لإنزال المطر وجعلنا منه كل شيء في الأرض من النبات وغيره حيا، حجة القول الأول أن النبات لا يسمى حيا، قلنا لا نسلم والدليل عليه قوله تعالى: كيف يحي الأرض بعد موتها). وقال الشوكاني: (أحيينا بالماء الذي نزلته من السماء كل شيء، فيشمل الحيوان والنبات، والمعنى أن الماء سبب حياة كل شيء).

وهذه النقولات وغيرها بناء على أحد التفسيرين للماء، أي الماء المعروف، وبعضهم فسره بالنطفة.

إلا أن الآية خصت الشيء، فالله يقول (كل شيء حي)، فكيف نقول نحن: كل شيء؟! والوصف مؤسس وليس مؤكدا، كقوله: (والله لا يهدي القوم الظالمين)، فنفي الهداية عن القوم الظالمين،

وليس عن (القوم)، وأمثلة ذلك كثيرة. وإذا أطلقنا (كل شيء) فلن يكون هناك مسوغ لقصره على النبات، فالحجارة شيء، والجبال شيء، والسموات شيء، والأجرام شيء... وعليه فلا دليل لمن أطلق القول بأن الماء أصل كل شيء، فيدخل في ذلك: العرش، وما خلق بعده، والسموات والأرض... الخ.

والسؤال الآن: هل تفيد الآية أن الماء أصل لكل شيء حي أو سبب لحياة كل شيء حي؟

بعض المفسرين اعتبر أن الآية دالة على الأصل، ف(من) في الآية لبيان الأصل، والمعنى: أن الله خلق من الماء كل شيء حي. وبعض المفسرين اعتبر (من) لبيان السبب لا الأصل. وقد أورد القولين الزمخشري، فقال: (المعنى: خلقنا من الماء كل حيوان، كقوله تعالى "والله خلق كل دابة من ماء"... أو صيرنا كل شيء حي بسبب من الماء لا بد له منه). وقد أوضح الشوكاني هذا بقوله: (أحيينا بالماء الذي نزلته من السماء كل شيء، فيشمل الحيوان والنبات، والمعنى أن الماء سبب حياة كل شيء).

وبتدبر الآيات نجد أن ثمة فرقا بين استخدام القرآن الكريم للماء لبيان كونه سببا للحياة، وبين هذه الآية؛ فقد اطردها مجيء الباء مع إنزال الماء لبيان السببية، ولم تأت (من)، أما (من) فاطردها مع الخلق والجعل لبيان الأصل، أو ما له علاقة بالأصل. فنحن لا نقول أن الآية تدل على أن الماء سبب لكل شيء حي، بل نقول أن الماء كان سببا مع الأصل في نشوء حياة كل شيء. فالآية لا تبين

السببية المستمرة، كما يحدث مع نزول المطر وإخراج الله النبات به، ولكنها تبين السببية الأولى، التي اختلطت بالأصل الأول (التراب)، فجعل الله من الماء كل شيء حي.

ف(جعل) هنا ليست ك(خلق)، بل بمعنى: صير. و(الماء) هو الماء المعروف، و(من) تبين السببية المتعلقة بالأصل، وهي السببية الأولى، ف(من) الأصل فيها أن تأتي لابتداء الغاية كما يقول النحاة، ودلالة السببية واضحة في الآية، فمن ثم فهي تبين السببية الأولى. و(كل شيء حي)، تختص ببيان علاقة الماء بالأشياء الحية، فالله جعل منه كل شيء حي، وليس كل شيء.

وبهذا يتبين أن الآية لا تدل على الأصل، ولا على السبب، بل عليهما معاً. ولا تنص على أن الماء أصل لكل شيء حي، بل سبب لحياة الأصل الأول من كل شيء حي.

وهذه دلالة (من) في قوله تعالى: (الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا)، فالشجر الأخضر سبب لنشوء أصل النار.



**الآية الثانية: (وهو الذي خلق من الماء بشراً):**

والموضع الثاني قوله: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا)، فالماء في الآية هو الماء المعروف، على الأرجح، وليس (النطفة)، وقد ذهب إلى هذا بعض المفسرين. والدليل على ذلك وروده معرفة، وحيث قصد به النطفة، فقد جاء منكراً موصوفاً (ماء مهين، ماء دافق)، أو غير

موصوف (والله خلق كل دابة من ماء).

ثم إن لفظ (بشرا) لم يستخدم في القرآن الكريم مع (الماء) المقصود به النطفة، بل يأتي لفظ (إنسان). والماء في الآية هو ذلك الماء الذي اختلط بالتراب فصار طينا، فقد كان سببا لأن يصبح التراب شيئا حيا، ولأنه كما بينت كان سببا أولا، واختلط مع الأصل، فقد جاء التعبير بالخلق منه، كما في الآية السابقة.

وبهذا، فلم يرد إلا في هذين الموضعين أن (الماء سبب لحياة الأصل الأول من كل شيء حي)، فالموضع الأول ذكر الأحياء عموما، والموضع الثاني خص الإنسان بالذكر؛ فهو أعظم وأشرف الأشياء الحية.



### الآية الثالثة: (خلق كل دابة من ماء)

قوله تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

اختلف المفسرون في المراد بقوله (من ماء)، هل هو الماء المعروف،

أو النطفة؟

وما أقوله هنا، أن لفظ (ماء) نكرة، فلا يقصد به مطلق الماء؛ إذ لا مسوغ لتنكيره، وإلا قال: خلق كل دابة من الماء، بل قال: (من ماء)، أي: من ماء خاص بكل دابة، فالآية تنص صراحة على أن (كل دابة

خلقت من ماء)، أي: من ماء الزوجية، فمفهوم الآية أنه ما من دابة إلا وتأتي من ماء، كما يأتي الإنسان من النطفة. (ماء) في الآية، غير (الماء) في الآية الأولى. والدواب هي من الأشياء الحية، وهي ما يدب على الأرض، فهي تدخل في عموم قوله (وجعلنا من الماء كل شيء حي)، فالله جعلها من الماء الذي جعل منه كل شيء حي، إلا أن خلقها (المقصود في هذه الآية) من ماء (التزاوج بين الذكر والأنثى).

وكذلك لم يخص القرآن الكريم بتسمية شيء من الخلق، أنه خلق من (ماء)، سوى (الإنسان)، الذي ذكر أنه خلق من (ماء)، ووصف بأنه (ماء دافق)، (ماء مهين).

فكما ذكر أولاً أنه جعل من الماء كل شيء حي، وخص (البشر) بالذكر أيضاً. فقد ذكر أيضاً أنه خلق كل دابة من (ماء)، وهذا الماء هو (النطفة)، وقد خص (الإنسان بالذكر).

وعليه فقوله (خلق كل دابة من ماء)، لا تتعلق بـ(الماء) المعروف، بل تتعلق بماء النطفة. والله أعلم.



## (٢): ما يتعلق ببيان السبب

اطرد حديث القرآن الكريم في بيان أن الماء سبب للحياة، وقد  
اطرد هذا الحديث مع الأرض وما يخرج منها من نبات، كما اطرد  
التركيب مع (السبب)، باستخدام (الباء)، وقد اقترن بفعلي: (إخراج  
النبات) و(إحياء الأرض) في ٢١ موضعاً. وهذا بخلاف آيتي الأنبياء  
والضرقان، حيث اقترن الفعل فيهما ب(من)، ووقع على (كل شيء  
حي/المبشر).

فمثال اقترانه بإخراج النبات، قوله: (وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً  
فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ)، و(أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ  
نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ)، و(وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ). ومثال  
اقترانه بإحياء الأرض، قوله: (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ  
بَعْدَ مَوْتِهَا).

وسأفصل القول عن ذلك في بحثي: الأرض في القرآن الكريم.





ثالثاً: ما أصل كل شيء إذن؟

تبين لنا أن الماء ليس أصلاً لكل شيء حي، بل (سبب لحياة الأصل الأول من كل شيء حي). فما أصل كل شيء إذن؟

### (١) التراب أصل للبشر:

يذكر القرآن الكريم أن التراب أصل للبشر، وقد جاء في ستة مواضع: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ)، (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ)، (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ).

ومن ثم فبالنظر في الآيات التي تتحدث عن أصل خلق البشر، فإنها جاءت بأصل، وسبب مرتبط بالأصل، أما الأصل فهو: التراب، (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ)، وأما السبب الذي تعلق بالأصل فهو الماء، وقد جاء في آية الفرقان (خلق من الماء بشرا). وكلاهما لم يرد معه لفظ (الإنسان)، بل (البشر) مع الماء جاء مرة واحدة مع البشر، ومع التراب جاء ست مرات، مرة مع آدم، وخمس مع ضمير الخطاب، وفي واحدة منها اقترن بلفظ البشر، وهي آية الروم. وبهذا نقول أن أصل البشر هو: (التراب مع الماء)، فمعية الماء هي التي جعلت منه شيئاً حياً.

وأما الآيات الأخرى التي جاء فيها بيان الخلق من: (طين، من سلالة من طين، من طين لازب، من صلصال من حمأ مسنون، صلصال كالفخار)، فهي تتحدث عن مراحل تخليق الأصل: (التراب مع الماء)، فهما إذا اجتمعا كانا طينا، ومن سلالة منه كان الخلق

وليس من الطين كله، ثم أصبح لازياً (متماسكاً جامداً)، ثم تفاعل فاسود وتغيرت رائحته (حماً مسنوناً)، ثم يبس وأصبح صلصالاً (كالفخار).

والمندبر لآي الكتاب يجد اطراد استخدام القرآن الكريم:

(١) مع أصل تكوين البشر، لم يستخدم لفظ (الإنسان)، بل (البشر)، و(آدم).

(٢) مع مراحل خلق ذلك الأصل، اطراد استخدام لفظ (الإنسان) مع المراحل كلها: (من طين، من سلالة من طين، من صلصال من حمأ مسنون، من صلصال كالفخار)، كما ذكر لفظ (البشر) مع: (من طين، من صلصال من حمأ مسنون).

(٣) مع مراحل خلق الإنسان في بطن أمه، اطراد استخدامه مع لفظ (الإنسان) فقط، خلق من (ماء)، ووصف بأنه: (ماء دافق، ماء مهين، من سلالة من ماء مهين)، وسمي الماء: (نطفة). وسأبين هذا في بحثي: البشر والإنسان في القرآن الكريم.



## (٢) هل التراب أصل كل شيء؟

يتبين لنا مما سبق ما يلي:

القرآن الكريم ذكر أصلا للخلق، وهو (التراب)، وبين أنه جعل من (الماء) كل شيء حي، وبذلك ف(التراب مع الماء) أصل لكل شيء حي. فهل يمكننا الاستنتاج أن التراب أصل لكل شيء غير حي، ويشترك معه الماء في الشيء الحي؟

ومن ثم تكون الأشياء الحية أصلها: التراب مع الماء، مع اختلاف المقادير وطرق التكوين، والسلالات، فالإنسان مثلا كان تشكيله كما ذكر القرآن الكريم لنا: من طين... إلى آخر تلك المراحل.

**فالتراب والماء أصل لكل شيء حي، والتراب وحده أصل لكل شيء.**

هناك أدلة عدة قد ترجح الجواب بالإيجاب، ومنها:

الأول: أن إبليس حين أبى السجود، وبرر ذلك، لم يقل: خلقتة من تراب، وخلقنتي من نار، بل قال: (خلقنتي من نار وخلقنته من طين)، والطين ليس الأصل كما ذكرت أعلاه، وإنما هو أول مراحل تخليق الأصل (التراب مع الماء)، وهذا يدل على أنه يرى أنه أفضل من آدم لأن تشكيلته تختلف عن تشكيله آدم، فأدم تشكيله أصله بدأت بالطين، كما قال تعالى: (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ)، فالآية تتحدث عن أن بدأ خلق الإنسان كان من طين، فالحديث عن أول مراحل تكوين الأصل.

وعليه فإبليس لم يفضل نفسه على آدم كون آدم من تراب، بل

كونه من طين، والطين: اختلاط الماء والتراب.

الثاني: حين ذكر الله سبحانه خلق الجن والإنسان قال: (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ)، وفي سورة الحجر: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ)، فالمقابلة كانت بين مراحل وليس بين أصول.

وإذا أعدنا تدبر الآيات السابقة فيتبين لنا ما يلي:

#### (١) الأصول:

أ. بينت الآيات أن الله خلق البشر من أصل: التراب مع الماء.

ب. لم يذكر أصل تكوين الجن.

ج. بين أنه جعل من الماء كل شيء حي.

د. في سورة يس، بين أنه خلق الأنعام (مِمَّا عَمِلْتَ أَيَّدِينَا)، فأبهم الأصل. لوقد تحدثت عن هذا في بحث: الخلق والتسوية والتدبير.

#### (٢) مراحل تكوين الأصول:

أ. أول مراحل تكوين تلك الأصول، بالنسبة للإنسان: الطين، وهذا يقابل: النار (بالنسبة للجان).

ب. وثاني مراحل تكوين الإنسان: الحمأ المسنون، وهذا يقابل: نار السموم (بالنسبة للجان).

ج. وثالث مراحل تكوين الإنسان: الصلصال كالفخار، وهذا يقابل: مارح من نار (بالنسبة للجان)<sup>(٢)</sup>.

(٣) مراحل خلق النسل:

أ. بين القرآن الكريم مراحل خلق الإنسان (كنسل في بطن أمه)، من ماء مهين، ثم علقه، ثم مضغة... الخ.

ب. ذكر القرآن الكريم أن كل دابة خلقها من (ماء)، أي: ماء النطفة، وكل دابة، هنا يختص بالنسل لا الأصل، أي: كل دابة مخلوقة، فهي تأتي من ماء.

وبالتأمل في ما ذكر أعلاه، نجد أن القرآن الكريم فصل القول في خلق البشر (الأصل، ومراحل تخليق الأصل، والنسل ومراحل

---

(٢) جاء في المادة التي خلق الله منها الإنسان، د. خلاف الغالي، عن مجلة الإعجاز العلمي، ما نصه: (لعل المادة الترابية التي بدأ منها خلق آدم . عليه السلام . كانت عبارة عن طين رملي طري "طين لازب" هذا تحول بفعل عملية التصخر في مرحلة جد مبكرة إلى حما "حيث تلعب المادة العضوية . البكتريا . دورا كبيرا في تغيير الطين" ثم في مرحلة أخيرة إلى صلصال "أو طين صفحي" ولعلها المادة الأخيرة التي تم عليها التصوير والتسوية).

تخليق النسل).

الثالث: ومما يستأنس لهذا، بالحديث: (إن الله يحشر الخلق كلهم، كل دابة وطائر وإنسان، يقول للبهائم والطيور: كونوا ترابا، فعند ذلك يقول الكافر: (يا ليتني كنت ترابا)) فأخرجه ابن جرير وصححه الألباني. فهي لا ترجع إلى الماء، بل ترجع إلى الأصل المشترك بين الأحياء وغير الأحياء، وهو التراب.

الرابع: مما يؤيده أيضا قوله تعالى: (وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي)، فعيسى أقدره الله على الخلق، من الطين، والطين: تراب مع الماء، فهو خلق من الطين كهيئة الطير، كما أنبت الله الطير (الأصل) أول مرة من الطين، ثم نفخ فيه فكان طيرا. فالطير أصله من الطين، ثم نسله من ماء. فبينت الآية أصل أول خلقٍ للطير.

واليوم مما تقرر لدى العلماء أن المواد العضوية في النبات والحيوان والإنسان تتكون من عناصر التراب الأساسية.

ولم يرد نص يبين لنا متى خلق الله التراب، وهل التراب الأول الذي خلق منه كل شيء يشتمل على كل العناصر الكيميائية، والتي ما زال الإنسان حتى اليوم يكتشف مزيدا منها؟



### (٣) (اشكال والإجابة عنه):

قال بعض المفسرين أن قوله (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا) لا يشمل الجان ولا الملائكة، فالجان خلق من نار، والملائكة من نور.

أما الملائكة فلم يرد الحديث عن خلقهم في القرآن الكريم، ولا ندري ما النور الذي خلقوا منه، وكيف تكوّن، وهل هو النور الوارد في قوله: (وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ)، أو نور آخر. ولهذا لن أخوض الآن في هذا الأمر، حتى يؤتيني الله من لدنه علما.

أما الجان، فقد بينتُ فك الجهة بين النار والماء، فالنار لا يقابل الأصل (التراب مع الماء)، وإنما يقابل مرحلة التكوين: (الطين)؛ فكون الجان خلق من نار لا ينفي أن يكون أصله من التراب مع الماء، فالنار مرحلة خلق وليس أصل خلق، مثلها مثل الطين، فهو مرحلة خلق وليس أصل خلق.

ثم إن القرآن الكريم بين لنا أن الله جعل لنا من الشجر الأخضر نارا، (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ)، (وَأَفْرَأَيْتُمْ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ)، فالنار (الناشئ عن الوقود) من النبات، والنبات من التراب، والماء سبب في حياته. فنجد أن التراب أصل لكل شيء، والتراب مع الماء أصل لكل حي، وسبب في حياة كل شيء.

وإذا نظرنا في عناصر تربة الأرض فإنها تشتمل على مكونات عضوية وغير عضوية، وهناك أنواع كثيرة من التربة، ولها خصائص عديدة، فالتربة الرملية، تختلف عن الطينية، تختلف عن الطميية.

والوقود الطبيعي - كما هو معروف - يحصل عليه الإنسان من المخزون الواقع تحت الأرض. والفحم الحجري تكون من بقايا نباتات ومواد عضوية تحللت في التربة، ويعتقد العلماء أن النباتات التي شكلت الفحم الحجري قد نمت في مستنقعات أثناء العصر الكربوني. والعلماء اليوم يؤكدون أنه لا توجد مواد غير قابلة للاحتراق، فحتى المواد التي لا تحترق مثل الخرسانة والحجر يمكن إتلافها بالنيران الشديدة. حتى الماء يمكن حرقه بالتحليل الكهربائي لعنصره، والماء مكون من مادتين قابلتين للاشتعال: الأكسجين والهيدروجين. (انظر: الموسوعة العربية). وتتجه التقنيات الحديثة إلى استخدام الماء كمصدر بديل للطاقة، في محركات السيارات وغيرها من وسائل النقل، بدلا من البنزين.

كما أن الوقود الحيوي اليوم يتم إنتاجه من النباتات، كالذرة وفول الصويا، وتوجهت الأبحاث الأخيرة إلى إنتاجه من الطحالب، وهي نباتات مائية.

ومن ثم فغير مستبعد أن تكون النار التي خلق منها الجان، قد تولدت من تفاعلات بين التراب والماء، مع حرارة مناسبة، فتكونت النار، ومنها خلق الله الجان.

الخلاصة:

والخلاصة أن الآيات تبين لنا ما يلي:

- (١) الماء مخلوق من قبل خلق السماوات والأرض.
- (٢) (التراب مع الماء) أصل، منه خلق الله كل شيء حي.



- (٣) الماء سبب لحياة كل شيء.
- (٤) التراب، [كما رجحته] أصل لكل شيء حي وغير حي،  
ينفرد في الأشياء غير الحية، ويشترك معه الماء في  
الأشياء الحية.
- (٥) التراب مادة الأصل، والنطفة مادة النسل.

## المبحث الثالث: (فَطَرَ) في القرآن الكريم

خلاصة الدلالات:

الفَطْر: بدء خلق الشيء، مزوداً بنظام قابلية الفطرة.

الفطرة: هي إنشاء خاصية الانتفاع بالأعضاء في الإنسان، وهي خاصية تمكنه من تسخير المخلوقات، والانتفاع بها في الخلافة في الأرض.

الأمانة: هي ما أودع الله في هذه الأعضاء من خاصية الانتفاع بها، فالأمانة هي الفطرة، ولفظ (الفطرة) باعتبار أن الله جعل هذه الخاصة في خلق الإنسان، فهي جزء من نظامه الخَلْقِي، ولفظ (الأمانة) باعتبار أن هذه الخاصية هي شيء أودعه الله في الإنسان، وطلب منه أن يؤدي حقها. ولم يودعها في غيره.



## المطلب الأول: مفهوم (فطر) واستخدامها في القرآن الكريم

### الدلالة اللغوية:

يرد لفظ (ف ط ر) بمعنى الشَّقَّ والبدء، قال ابن عباس رضي الله عنه: كنت لا أدري ما فاطرُ السموات حتى أتاني أعرابيانِ يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرْتُها، أي أنا ابتدأتُ حضرها.

قال في أساس البلاغة: فاطر السموات: مبتدعها. وافتطر الأمر: ابتدعه، وقد فطر البئر: ابتدأها... ومن المجاز: لا خير في الرأي الفطير (أي المبتدع).

وقد جمع بينهما الإمام العسكري في الفروق، فقال: (الفطر: إظهار الحادث بإخراجه من العدم إلى الوجود، كأنه شَقَّ عنه فظهر، وأصل الباب الشَّقَّ، ومع الشق الظهور. ومن ثم قيل: تَفَطَّرَ الشجر: إذا تشقق بالورق، وفَطَّرْتُ الإناء: شققته، وفَطَّرَ الله الخلق: أظهرهم بإيجاده إياهم، كما يظهر الورق إذا تَفَطَّرَ عنه الشجر).



## استخدامها في القرآن الكريم:

### الصيغ المستخدمة:

استخدم في القرآن الكريم (فطر)، مقترنا مع خلق السماوات والأرض [غالبًا]، (فاطر السماوات والأرض، فطر السماوات والأرض)، ومع الإنسان، (فطرنى، فطرننا، فطركم). ولم يقترن بغيرهما. وقد جاء (فاطر السماوات والأرض): ٦ مرات، ولم يقترن (فاطر) بغيرها، والفعل (فطر): ٧ مرات، (مرتين: مع السماوات والأرض)، (٤) مع الإنسان متحدثًا عن نفسه: فطرنى، فطرننا، (ومرة مع الإنسان يخاطبه الله: فطركم). وجاء الفعل (فطر على) مقترنا بالناس: (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا).

### دلالات استخدام القرآن لـ(فطر):

أولاً: الفطر يأتي مع المخلوق الذي يمر بأطوار كثيرة، وعظيمة، كالسماوات والأرض (خلقن في ستة أيام)، والإنسان (خلق أطواراً). والمرحلة الأولى فقط من تلك الأطوار هي التي يستخدم معها لفظ (الفطر). قال تعالى: (فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)، أي بدأ في خلق الإنسان، ولذلك قال: (أول مرة). ومعنى: فطر السماوات والأرض، أي: بدأ في خلقهن أول مرة. أما الخلق، فهو يطلق على الخلق الجديد للشيء في كل طور من أطواره، كما سبق بيانه. فبيان المراحل والأطوار يأتي مع (الخلق)، ولذلك تجد القرآن

الكريم يتحدث عن خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ولا يصح أن أقول: فطر الله السماوات والأرض في ستة أيام، بل: فطر الله السماوات والأرض، فهو ينصرف إلى بدء خلقها أول مرة. ويقال: خلق الله الإنسان من تراب، ثم خلقه من نطفة، ثم خلقه من علقة... ولا يستخدم (فطر) في أي من هذه المواطن، بل يقال: فطر الله الإنسان، [بدأ خلقه]. ولا يقال: سيعيد الله فطر الإنسان، بل يقال: سيعيد الله خلق الإنسان.

ثانيا: المتدبر للآيات التي ذكر فيها (فاطر، فطر) يجد أن أغلبها جاءت على لسان صالحى البشر [إبراهيم: ٣، يوسف: ١، هود: ١، الرسل: ١، مؤمن آل يس: ١، السحرة: ١] في سياق توحيد الله وإخلاص عبادتهم له، وبراءتهم من الشرك به، ومن ثم طلب الهداية والأجر منه. وهذه المعاني متناسبة مع دلالة (الفطر)، فالله الذي بدأ خلق السماوات والأرض، أو خلق الإنسان، ولم يكن قبل ذلك شيئا، وهذا أدل على أحقيته بعبادة الإنسان، فهو الذي فطره أول مرة.

ثالثا: قال تعالى: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا). فلماذا عرضت الأمانة على هذه المخلوقات؟

الملاحظ أولا أن هذه المخلوقات هي المخلوقات التي (فطرها) الله. والأمانة لن تعرض إلا على مخلوق لديه القابلية لأخذها أو تركها، أو بعبارة أخرى: لديه القابلية للاختيار، إن شاء أخذ وإن شاء ترك.

فهل هذه القابلية موجودة لدى كل المخلوقات؟ الذي يتبين من

الآية أنها موجودة في هذه المخلوقات، التي فطرها الله: السماوات والأرض والإنسان.

فالفطر يتعلق بأول خلق للشيء كما هي دلالاته اللغوية، وفق نظام ما، كما يتبين من استخدام القرآن الكريم]. والنظام هو: نظام القابلية للفطرة. فالفطر شيء والفطرة شيء آخر.

وعليه فمعنى: فطر الله السماوات والأرض أنه خلقهن أول مرة وزودهن بنظام قابلية الفطرة. فالفطر: (بدء خلق الشيء، مزوداً بنظام قابلية الفطرة). والآن أبين دلالة (الفطرة).



## المطلب الثاني: (فِطْرَةَ اللَّهِ)

جاء لفظ الفطرة في آية واحدة، في سورة الروم، قال تعالى: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ).

(مع المفسرين):

يقول المفسرون واللغويون أن الفطرة: هي الخلقة التي خُلق عليها البشر، ثم يختلفون في تأويلها. فبعضهم أولها بالإسلام، وبعضهم أولها: بمعرفة الله والإقرار بوحدانيته، وبعضهم قال إنها العهد الذي أخذه الله من بني آدم كما في سورة الأعراف.

قال الزمخشري: (والمعنى: أنه خلقهم قابلين للتوحيد ودين الإسلام، غير نائين عنه ولا منكرين له، لكونه مجاوبا للعقل، مساوقا للنظر الصحيح، حتى لو تركوا لما اختاروا عليه دينا آخر، ومن غوى منهم فياغواء شياطين الإنس والجن).

وقال ابن عطية: (أنها الخلقة والهيئة في نفس الطفل التي هي معدة مهياة لأن يميز بها مصنوعات الله تعالى ويستدل بها على ربه ويعرف شرائعه ويؤمن به).

وقال أبو حيان: (ورجح الحذاق أنها القابلية التي في الطفل للنظر في مصنوعات الله، والاستدلال بها على موجدته، فيؤمن به ويتبع شرائعه، لكن قد تعرض له عوارض تصرفه عن ذلك، كتهويد أبويه له، وتنصيرهما، وإغواء شياطين الإنس والجن).

وقال ابن عاشور: (الفطرة هي النظام الذي أوجده الله في كل مخلوق، والفطرة التي تخص نوع الإنسان هي ما خلقه الله عليه جسدا وعقلا، فمشي الإنسان برجليه فطرة جسدية، ومحاولته أن يتناول الأشياء برجليه خلاف الفطرة الجسدية، واستنتاج المسببات من أسبابها والنتائج من مقدماتها فطرة عقلية، ومحاوله استنتاج أمر من غير سببه خلاف الفطرة العقلية... فوصف الإسلام بأنه فطرة الله معناه أن أصل الاعتقاد فيه جار على مقتضى الفطرة العقلية).

ويتبين من هذه النصوص أن بعضهم فسر الفطرة بالقابلية للتوحيد، أو القابلية للإسلام نفسه باعتباره دين التوحيد الخالص، أو بالإسلام نفسه.





## (التحقيق في المسألة):

### المراحل الدالة على الفطرة:

وحتى ندرك الدلالة الدقيقة للفطرة، فعلينا تتبع المراحل الدالة عليها، وهي كالتالي:

المرحلة الأولى: فطر الله بعض خلقه، والفطر كما قلت هو البدء في خلق الشيء مزوداً بنظام قابلية الفطرة، فالسماوات والأرض والإنسان كلها فطرها الله، أي خلق نظام قابلية الفطرة فيها. فليس كل مخلوق مفطور، فالفطر شيء أخص من الخلق. وما فطره الله من خلقه هو السماوات والأرض والجبال والإنسان، ولم ينص على الجبال، إلا أن عرض الأمانة عليه يبين ذلك.

المرحلة الثانية: عرض الأمانة على هذه المفقورات؛ إذ لديهن قابلية للفطرة، ولكن ليست لديهن الفطرة. (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا).

المرحلة الثالثة: لما حمل الإنسان الأمانة تحول "نظام قابلية الفطرة" إلى "نظام الفطرة"، ففطر الله الناس على هذه الفطرة. وأصبحت "فطرة الله" خاصة بالإنسان، فلم يفطر شيئاً من خلقه عليها سوى الإنسان: (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا).

المرحلة الرابعة: بعد أن فطر الله الناس على فطرته، أشهدهم على ربوبيته فشهدوا، قال تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ

ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ). وهذا تأكيد لما فطرهم الله عليه، فالإقرار ليس الفطرة، بل هو إذا صح التعبير: اختبار للنظام، والله المثل الأعلى، فالإنسان حين يخترع شيئاً يضعه تحت التجربة والاختبار، أما الله سبحانه وتعالى فإنه طبق النظام على الناس مباشرة، حتى لا تكون لهم حجة على ربهم. وهذا هو ما جاءت الرسل تذكّر الناس به، فهي تذكّرهم بشيء عرفوه ولكنهم نسوه. (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ).

من هنا يتبين لنا ما يلي:

(١) الفِطْرَة، مرتبطة دلاليا بالفِطْر، فالفطر هو خلق النظام الحاضن للفطرة، وقد فطر الله بعض خلقه، ثم عرض عليهن حمل الأمانة فأبين وحملها الإنسان، ففطره الله على الفطرة.

(٢) اختص الإنسان بالفطرة، والفطرة ترتبط ببدء خلق الإنسان، فهي جزء من تكوينه الخَلْقِي، يتميز بها عما سواه من المخلوقات.

(٣) الفِطْرَة، ليست مشتركة بين الإنسان وغيره، ومن ثم فلا يصح القول: (الفطرة الجسدية، كالرَّجُل مَفْطُورَة على المشي)، فهذا لا يسمى فطرة، بل يسمى هداية، فالله سوى خلقه ثم هدى، كما قال: (أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ)، أي سواه ثم هداه لما سواه، فسوى النملة وفق نظام

التقدير، وهداها لما سواها له.

٤) الفطرة، مرتبطة بما يميز الإنسان عن غيره من الخلق، فما الذي يميز الإنسان عن سائر الخلق؟

### الفطرة والأمانة التي حملها الإنسان:

يبين القرآن الكريم شيئين اختص بهما الإنسان، الأول منهما دلالة مبهمة، والآخر واضحة.

أما الأول فهو قوله تعالى: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ). فالأمانة اختص بها الإنسان، ولم يحملها غيره لا إنس ولا جان. ولكن ما الأمانة؟ للمفسرين فيها أقوال عديدة، وتأويلات شتى (وقد أحسن تلخيصها وتصنيفها ابن عاشور في التحرير والتنوير). ولكن تظل الأمانة مبهمة الدلالة، بالرغم من وضوح معناها اللغوي. إلا أن لها صلة بالجزاء، كما تبينه الآية التالية. وينبغي أن يطرح أي تأويل يمكن أن يكون مشتركا بين الإنسان وغيره كالجن، فهم مكلفون أيضا، ومن ثم فالعبادة ليست الأمانة؛ إذ لا تختص بالإنسان. ولكن السؤال المهم: هل يودع الله أمانة عند الإنسان، ولا يخبرنا عنها؟

## إني جاعل في الأرض خليفة:

وأما الثاني فهو قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) ... إلى آخر الآيات. فالآيات تبين خاصة اختص بها الله الإنسان، وهي "القدرة على استخدام العلم في خلافة الأرض". فالقدرة على العلم تشمل القدرة على تسمية الأشياء، والقدرة على تصنيفها، والقدرة على الإبانة، والقدرة على الاستنتاج... الخ. وهذه ميزة للإنسان على الملائكة، ولكنها ليست ميزة له على الجن، فالجن كما تبين آيات القرآن الكريم لديهم القدرة على العلم أيضا، كما في قوله: (فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ)، وقوله: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ).

ولك أن تسألني: لماذا خصصتها باستخدام العلم؟ فأقول الآية هي ما دلت على ذلك، حيث قال تعالى: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)، فالخليفة له ميزتان، الأولى: القدرة على العلم، والثانية: القدرة على استخدام العلم في خلافة الأرض، ليعمرها. (هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا).

فالميزة الأولى يشترك فيها الإنسان والجان، وهي تستوجب أن يكون لدى المخلوق نظام اختياري (مزدوج الاتجاه)، يختار ما يريد،

يختار الخير أو الشر، يختار الحق أو الباطل، يختار س أو ص.. وقد اقترن النظام الاختياري بالجزاء، فالإنسان والجان كلاهما محاسب مجازى على اختياره. أما سائر الخلق فليس لديهم إلا نظام أحادي الاتجاه، والملائكة منهم. وقد بينت هذا في كتابي (علم القرآن: في تفسير سورة المزمل).

وأما الميزة الثانية، وهي القدرة على استخدام العلم في خلافة الأرض. فهذه كما تبين آيات القرآن الكريم، وكما يبين تاريخ الخليفة في الأرض، خاصة بالإنسان، لا يشاركها فيه غيره، وقد استوجبت هذه الميزة أن يسخر الله للإنسان السماوات والأرض وما فيهن، ومن فيهم، فكلهم مسخرون لخدمته.

ولنا أن نسأل: ما القدرة على استخدام العلم في خلافة الأرض؟ والإجابة بوضوح، هي: القدرة على التدبير. فالله أقدر الإنسان على تدبير بعض الأمر في الأرض، فينشئ فيها، ويعمر، ويسوي، ويبني، ويحكم، ويتصرف سائر التصرفات، وهذه الخاصة ليست لسواه.

وعليه فالأمانة، تفسرها آية البقرة، وهي: شيء يتعلق ب"القدرة على استخدام العلم في خلافة الأرض"، أو بعبارة أخرى: "خلافة الأرض"، وخلافة الأرض: عمارتها وتدبيرها، وفق ما يريد المستخلف.

فما ذلك الشيء المتعلق بالقدرة على استخدام العلم في خلافة

الأرض؟

## القدرة على الانتفاع بالأعضاء:

لقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى في عشرات الآيات عن ذلك الشيء، وهو: الانتفاع بالسمع والأبصار والأفئدة واللسان والأنف وبالأرجل وبالأيدي في خلافة الأرض. فهذا الشيء هو خاصية الانتفاع بهذه الأعضاء، وقد خص الله بها الإنسان.

وهنا ينبغي التمييز بين دلالات الألفاظ؛ فالعين شيء، والرؤية شيء آخر، والإبصار شيء آخر، والانتفاع به في خلافة الأرض شيء آخر. وهكذا الأذن واللسان... وإذا أدركنا هذا تبين لنا أن الانتفاع بمجموع هذه الوسائل مما اختص الله به الإنسان، وهنا تتجلى قدرة الله سبحانه وتعالى، في أنه خلق نفس هذه الأعضاء في مخلوقات كثيرة، كما خلقها في الإنسان، ولكن وظائفها في الإنسان، ومدى انتفاعه بها يختلف عن سائر المخلوقات. فمثلاً: الصقر أحد رؤية من الإنسان، ولكن عين الإنسان عين عليمه بديعة، والأسد أبطش من الإنسان، ولكن يد الإنسان تصنع قوة تدميرية، أو تبني تحفة معمارية، أو ترسم لوحة فنية، أو تعزف نغمة موسيقية... وهكذا القول في سائر تلك الأعضاء.

وهنا أعود وأذكر بأن الهداية هي تسوية الخلق وهدايته لما سواه له، فالله سوى العين في المخلوق، وهداها لما سواها له من الرؤية، فالهداية في العين (الرؤية) يستوي فيها الإنسان والحيوان، وكذلك الأنف والأذن... مع وجود التفاوت بين المخلوقات في قوتها، وليس في الانتفاع بها. فسائر الحيوانات لديها الأذن والعين واللسان والأنف والفضاد والرجل واليد، وقد هداها الله لعملها، في الحيوانات كما في

## الإنسان.

أما الإنسان فيتميز عنها باستخدامه لها، وارتفاعه بذلك في خلافة الأرض. ولذلك تجد القرآن الكريم يمتن كثيرا على الناس بالسمع والبصر والنفوس، وحيث وردت في القرآن الكريم فلا ترد مع لفظ (خلق)، بل مع (جعل) غالبا، ومع (أنشأ) مرة، (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَّا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)، ففي الآية ربطها بالعلم. ومجيؤها مع (جعل) يفيد الصيرورة، أي: صارت لكم بعد أن لم تكن، فهي ليست الأذن أو العين، وما تقتضيه وظائفهما، فهذه لدى كل الحيوانات، بل المقصود بها: جعلها خاصة جعله الله للإنسان. وقد جاءت في أربعة مواضع، وكلها أعقبها طلب الشكر (قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) في ثلاثة منها، و(لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) في الرابع. أي: تشكرون ربكم على ما خصكم به وميزكم عن سائر خلقه. وسياق الشكر في القرآن الكريم، يأتي في مقام الفضل من الله على الناس، وما خصهم به من آلائه ونعمه، في أنفسهم أو في الأرض، أو في الأنعام.

والقرآن الكريم يطلب من الإنسان أن يستخدم هذه الخاصية، في السير في الأرض، وفي النظر إلى آيات الله، وفي التفكير، حتى يحقق خلافة الأرض كما يريد المستخلف، كقوله: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آدَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَّا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)، فربط منفعة هذه الأعضاء بالسير في الأرض، وهو جزء من خلافة الإنسان فيها. وقوله: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ)، وكثيرا ما يعقب الآيات

بقوله: (أَفَلَا تَسْمَعُونَ)، (أَفَلَا تُبْصِرُونَ)، (أَفَلَا تَعْقِلُونَ).

وقال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلَيْسَتْ جِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا)، فهو ينعى على الإنسان أن يعبد آلهة لا تمتلك ما يمتلكه هو، فالله يقول: هذه الآلهة ليس لها ما لك أيها الإنسان فكيف تعبدها؟! والذي للإنسان هو الفطرة، فرجله التي يمشي بها غير سائر الأرجل التي تمشي بها الكائنات، وكذلك يده، وعينه وأذنه. فالتركيز هنا ينصب على الشيء الزائد في هذه الأعضاء الذي اختص الله به الإنسان.

والله سخر للإنسان السماوات والأرض وما فيهما، (وَسَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمِمَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ). ففطرة الإنسان تمكنه من الانتفاع بهذه المسخرات، وتمكنه من تحقيق التسخير، وهذا ما ليس لمخلوق آخر سوى الإنسان.

### الفطرة نظام خلقي:

فهذا الشيء الذي تميز به الإنسان هو "نظام خلقي"، جعله الله في الإنسان دون سواه، وبعبارة أخرى: هيئة خاصة فطر الله الإنسان عليها، وهذه الهيئة الخاصة تميزه عن غيره، فغيره من البهائم مثلاً لديهم آذان، ولكن أذن الإنسان ذات هيئة خاصة مميزة، هذه الهيئة هي: الفطرة، والفطرة، بزنة: (فعللة)، وهذا الوزن يأتي في العربية للدلالة على هيئة الشيء، فمثلاً، تقول: ضرب زيدا عمراً، فهذه تفيد



وقوع الضرب، فلو أردت بيان حالة الضرب، لقلت: ضربه ضربةً منكراً، وإذا تحدثت الناس عن هذه الضربة، فإنها تصبح مثلاً بعد ذلك، فيقول أحدهم: ضربت فلاناً ضربةً زيد، أي مثل تلك الضربة، فهيئتها معروفة لهم. والفطرة اسم هيئة من (فطر)، فهي حالة خاصة من الفطر، تميز بها الإنسان عن المخلوقات كلها، وعن المفطورات التي كانت لديها قابلية الفطرة.

ويتحدث علم التشريح اليوم عن مزايا خاصة بدماع الإنسان، هي المسؤولة عن وظائف الأعضاء من حركة وتوازن ونطق وتفكير وتحليل وخيال وقراءة وأخلاق وأحكام وتدين... الخ. والدماع نفسه مسؤول أيضاً عن الوظائف الأساسية للأعضاء، كالرؤية والسمع والغرائز... الخ، وهي وظائف أساسية لدى الإنسان وغيره من الحيوانات. فالفطرة تتعلق بما يختص به الإنسان، وليس بما يشترك فيه مع غيره.

**فالفطرة: هي إنشاء خاصية الانتفاع بالأعضاء في الإنسان، وهي خاصية تمكنه من تسخير المخلوقات، والانتفاع بها في الخلافة في الأرض.**

فإن استخدم تلك الخاصية كما يريد المستخلف نال رضاه، وثوابه، وإن استخدمها بغير ما يريد المستخلف فقد استحق سخطه وعقابه.

**المنتفع بهذا النظام وغير المنتفع به:**

ونلاحظ أن القرآن الكريم يثبت هذه الخاصية لمن انتفع بها،

كما في قوله تعالى في وصف أنبيائه: (وَأذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ)، قال المفسرون: أولي الأيدي، أي: القوة، والأبصار: أي البصائر. والوجه أن تفسيرها ينبثق مما ذكرته هنا، فهم أولو الأيدي والأبصار، أي من يستخدمون أيديهم وأبصارهم وفق الفطرة، فينتفعون بها لعمارة الأرض كما يريد ربهم.

وأما من لم ينتفع بها، فإن القرآن الكريم ينفي عنه ذلك، فمثله كمثل من ليس لديه تلك الخاصية أصلا، كقوله: (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا)، فهم كالأنعام التي لديها تلك الأعضاء ولكن ليس لديها خاصية الانتفاع بها لخلافة الأرض، فهو مثلها، بل هو أضل منها؛ لأنه في الحقيقة لديه السمع والبصر ولكنه استخدمهما لا كما يريد المستخلف. (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ).

وقال تعالى: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)، فاستوى الجن والإنس في سوء الانتفاع من هذه الأعضاء في الإيمان بربهم، وأما الإنس فلم ينتفعوا بها أيضا في تدبير الأرض كما يريد ربهم، وخلافة الأرض مما اختص به الإنس لا الجن. وتأمل التعقيب بقوله (أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)، وهو ما حذر الله بني آدم منه حين أشهدهم على أنفسهم (أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ)، أي: الغفلة عن مقتضى الفطرة. ومثله قوله: (أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ

عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)، فعقب  
بالغفلة.

ومثله قوله: (وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ  
إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)، وقوله: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا  
وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا  
يُعْقِلُونَ)، وقوله: (خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ  
غِشَاوَةً)، وقوله: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ  
قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ)، أي: إن أخذها عليكم فأصبحتم  
كالأنعام لكم آذان وأعين وقلوب، كما لديها، فالذي يأخذها ليس  
الآذان بل الأسماع، وليس العيون بل الأبصار. وقوله: (وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ  
فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ  
عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ).

وقال تعالى: (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ  
وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا)،  
فمعيشته الضنك؛ لأنه يعمل خلاف الفطرة التي فطر عليها، فهو  
يعيش في شقاق دائم مع نفسه، ومع فطرته التي خلقه الله عليها، (بَلِ  
الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ). أما من اتبع الهدى فلا يضل ولا  
يشقى، بل يعيش مطمئنا سعيدا، إذ هو متوافق مع خلقته.



## المطلب الثالث: الأمانة:

### ما الأمانة إذن؟

الأمانة: هي ما أودع الله في هذه الأعضاء من خاصية الانتفاع بها، فالأمانة هي الفطرة، ولفظ (الفطرة) باعتبار أن الله جعل هذه الخاصة في خلق الإنسان، فهي جزء من نظامه الخَلقي، ولفظ (الأمانة) باعتبار أن هذه الخاصية هي شيء أودعه الله في الإنسان، وطلب منه أن يؤدي حقها. ولم يودعها في غيره.

فالعين - مثلا - خلقها الله في الإنسان والحيوان، وجعل وظيفتها الرؤية لدى الإنسان والحيوان. وهداها لتلك الوظيفة، وأمكن الإنسان والحيوان من الانتفاع بما يراه، فلو رأى الغزال أسدا لفر منه، وكذلك الإنسان لو رأى خطرا لفر منه. فهذا مما يستويان فيه. ثم بعد ذلك أودع الله في عين الإنسان شيئا زائدا على ذلك، وهو خاصية الانتفاع بعينه في خلافة الأرض، وهذا هو الإبصار، فهذا الشيء الزائد هو الأمانة، وسيسأله الله عما ائتمنه عليه. وهو الفطرة التي فطره عليها.

و"الأمانة" عكسها "الخيانة"، فمن لم يرع تلك الأمانة بأن يعمل فيها كما يريد المؤتمن فقد خان، فخيانة الأمانة: أن يتصرف الشخص في شيء أوتمن عليه، وليس له، كما يريد هو، فإن تصرف كما يريد المؤتمن فقد حفظ الأمانة، وإن تصرف بخلاف إرادة المؤتمن فقد خان الأمانة.

## الأمانة وديعة مستردة:

والأمانة هي وديعة يستردها المؤتمن متى شاء، والله سيكافئ من حفظ الأمانة فيدخلهم جنته منعمين بالأمانة التي حفظوها من سمع وبصر، أما الخائنون فيسترد الله منهم الأمانة التي خانوها ولم يكونوا أهلاً لها. ويبدأ ذلك بشهادتها عليهم (شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ)، ثم تتبرأ منهم تلك الأمانة، وتحتاجهم أمام الخلق، وتفضح خيانتهم.

قال تعالى: (حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ)، وقال تعالى: (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ). فسمعهم وأبصارهم وجلودهم ستشهد عليهم، تشهد أنهم لم يؤدوا أمانتها.

وبعد ذلك تؤخذ منهم، كما قال تعالى: (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا وَيُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا)، وقال: (وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَذَلِكَ الْيَوْمِ تُنْسَى)، فهو عمى الإبصار لا عمى الرؤية، كما سأوضح بعد قليل.

وقال: (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا  
وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هُوَ لِآلِهَةٍ مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩)  
لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا  
الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ)، فهو نفي عنهم السمع (وهم لا  
يسمعون).

والكلام، سيؤخذ منهم بعد مدة من دخولهم جهنم، كما تفيد  
ذلك آيات القرآن الكريم في نقل كلامهم. نقل الطبري في تفسير  
قوله: (اخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا) عن محمد بن كعب (قال: فلا  
يتكلمون فيها أبدا، فانقطع عند ذلك الدعاء والرجاء منهم. وأقبل  
بعضهم ينبج في وجه بعض، فأطبقت عليهم)، ونقل ابن أبي حاتم عن  
بعد الله بن عمرو: (إن أهل جهنم يدعون مالكا، فلا يجيبهم أربعين  
عاما ثم يرد عليهم: إنكم ما كثون، قال: هانت دعوتهم والله على  
مالك ورب مالك. ثم يدعون ربهم فيقولون ربنا غلبت علينا شقوتنا  
وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون قال:  
فيسكت، عنهم قدر الدنيا مرتين، ثم يرد عليهم اخسأوا فيها ولا  
تكلمون قال: والله ما نبس القوم بعدها بكلمة واحدة، وما هو إلا  
الزفير والشهيق في نار جهنم. قال: فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير  
أولها زفير وآخرها شهيق)، ونقله الزمخشري نحوه عن ابن عباس.

فيكونون في جهنم كالدواب يتعذبون وهم لا يتكلمون ولا  
يسمعون. وما كان الله ليعذب أمانته، التي كرم بها بني آدم، بل  
يستردها منهم، ثم يعذبهم.

والعمى لا يقصد به عدم الرؤية، بل عدم الإبصار، وكذلك نفي السمع هو نفي السمع الخاص بالإنسان، لا السمع الذي هو وظيفة الأذن، فالعذاب منه ما يتعلق بالسمع، وما يتعلق بالجلد، وما يتعلق بالعين. فهذه الأعضاء ووظائفها باقية، ليدنقوا العذاب. أما السمع والأبصار والأفئدة التي كانت خاصة بالإنسان، فإن الله يستردها منهم.

قال تعالى: (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ)، وقال: (أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)، وقال: (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأُوا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ)، وقال: (وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ)، وقال: (وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (٤٤) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الدُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ). وكذلك السمع، كما في قوله: (إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا)، وكذلك الأفئدة، قال تعالى: (نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْآفِتَةِ)، وكذلك الجلود، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَلَّمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ). وكذلك ينطقون نطقا وظيفيا، كما تنطق البهائم حين تستغيث أو تصرخ، قال تعالى: (وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا)، وقال: (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ)، وقال: (حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجَارُونَ).

ويدل على ذلك قوله تعالى: (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا

أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا  
عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ نَشَاءُ  
لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مَوْجِيًا وَلَا يَرْجِعُونَ)، قال أبو  
حيان: (والظاهر أن هذا لو كان يكون في الدنيا. وقال ابن سلام: هذا  
التوعد كله يوم القيامة). وتأويل المفسرين لها على أنه في الدنيا،  
ولو كان في الآخرة كما يفيد السياق، فإن التأويل أن الله لو شاء  
لطمس على أعينهم كما أذهب أبصارهم، فأصبحوا لا يرون، ولو شاء  
لأذهب قدرتهم على الحركة أيضاً، ولكن شاءت إرادة الله أن يروا  
ليذوقوا العذاب، وأن يتحركوا في جهنم، حيث يعالجون السلاسل  
والأغلال وفي هذا مزيد من العذاب، كما قال تعالى: (عَامِلَةٌ نَاصِيَةٌ).





(ولقد كرّمنا بني آدم):

ويتصل بهذا قوله تعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي  
الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا  
تَفْضِيلًا (٧٠) يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ  
فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١) وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ  
أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا). فالله كرّمهم بهذه الأمانة  
على خلقه، وجعلهم خلفاء في الأرض، وفضلهم على كثير ممن  
خلق. ثم بين سبحانه أن من خان هذه الأمانة في الدنيا فستؤخذ منه  
في الآخرة (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى).

وتدبر قوله تعالى: (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤)  
عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)، فقد جاءت صفة (الأكرم) مقترنة مع  
تعليم الإنسان ما لم يعلم، فهذا هو كرم الله، وتكريمه لبني آدم، الذي  
خصهم به.

وهذا تفسير قوله: (قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِن  
أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا)، فإبليس كان  
حسده على آدم أن كرمه الله عليه، والله كرم آدم بالأمانة التي  
استودعه إياها، ولذلك أسجد له ملائكته من قبل أن يعلموا بهذا  
الأمر، حيث أسجدهم له بعد أن نفخ فيه من روحه، وهم لم يعلموا إلا  
بعد أن عرض الأسماء على آدم. ولكنها الطاعة التي جبلوا عليها،  
والكبر الذي جبل عليه إبليس منعه من السجود.

وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي

خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ، ولم يرد اسم (الكريم) في القرآن الكريم إلا مرة واحدة في هذا الموطن، مقترنا بخلق الإنسان وتسويته وتركيبه في صورته التي ركبها الله عليها، فكان مهياً لخلافة الأرض. والآية في مساق العتاب، أي: كيف تغتر ولا تقدر ربك حق قدره، وهو ربك الكريم الذي تفضل عليك، وأكرمك، واختصك بأمانته؟!

وجاء على لسان سليمان هذا الاسم (قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ)، مقترنا بفضل الله عليه، وواجب الشكر من الإنسان لربه.

**فالكريم: هو المنعم المحسن إلى الإنسان، الذي ميزه عن غيره من الخلق، وفضله عليها.**



فالخلاصة أن الفطرة هي: إنشاء خاصية الانتفاع بالأعضاء في الإنسان، وهي خاصية تمكنه من الخلافة في الأرض بعمارتها وتدبيرها.

والأمانة هي: هذه الخاصية التي أودعها الله في الإنسان، فالأمانة التي لدى الإنسان هي فطرة الله التي فطر الناس عليها.

وهذا هو تكريم الله لبني آدم.



## المطلب الرابع: لا تبديل لخلق الله:

قوله تعالى: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)، وقسم إبليس: (وَلَأْمُرْتَهُمْ فَلْيَغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ). فما المراد بخلق الله؟

نقلت سابقا أقوال المفسرين في هاتين الآيتين، وبينت أني سأوضح دلالتهما بعد حديثي عن الفطرة.

### لا تبديل لخلق الله:

بينت أن الفطرة هي: (إنشاء خاصية الانتفاع بالأعضاء في الإنسان، وهي خاصية تمكنه من الخلافة في الأرض بعمارتها وتدبيرها)، وهي نظام خلقي، أي من صميم خلق الإنسان، تميز به عما سواه. فقوله: (لا تبديل لخلق الله)، أي أن الله فطر الإنسان على الفطرة، ولا يبدلها، أي لا يبدل ما خلقه في تلك الأعضاء من خاصية الانتفاع الخاص بها، الذي يمكن الإنسان من خلافة الأرض.

وهذا يقتضي أن الله لن يبدل فطرة الإنسان، فلن ينشئه نشأة أخرى، كما قال: (وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ)، أي: نبدل أجسادكم، وننشئكم نشأة أخرى لا تعلمونها.

كما يقتضي ذلك أن الله لن يبدل خليفته في الأرض، فلن يكون في الأرض خليفة آخر، والله قادر على ذلك، كما قال: (وَلَوْ

نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ).

فهذه قدرة الله. ولكن الله سبحانه وتعالى بين أنه لا مبدل لكلماته، (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا)، ومن ثم فلا تبديل لخلقه.

### فليغيرن خلق الله:

وأما آية النساء (وَلَأْمُرَنَّهُمْ فَلْيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ)، فإن إبليس يتحدث عن الشيء الذي حسد آدم بشأنه، وهو تكريم الله لأدم وذريته (قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا)، فهو الشيء الذي اختص به الإنسان، فأبليس يقسم أنه سيجعل الناس يغيرون هذا الشيء (خلق الله)، ومن ثم يتعطل ذلك الشيء، فلا يكونون أفضل منه ولا أكرم؛ فالتناس لم يفضلوه إلا بهذه الكرامة، وهي الأمانة التي أودعها الله في الإنسان، وهي "خلق الله" فيه، فإن غيره فقد أصبحوا سواء مع اللعين.

ولذلك قال اللعين: (ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)، فهو سيحول بينهم وبين الشكر، ولا يكون ذلك إلا بحيلولته بينهم وبين الفطرة، فلا ينتفعون بما أودعه الله فيهم من أمانة. والشكر هو ما طلبه الله من الإنسان حين جعل له السمع والبصار والأفئدة (قليلا ما تشكرون)، فالشيطان يقول: سأحول بينهم وبين أن يشكروك على ما أودعت فيهم من أمانة.

وقد تحقق لإبليس ما أَرَادَهُ، كما أخبر القرآن الكريم عن أتباعه من البشر، أنهم بلا سمع وبلا بصر، ولا يعقلون.

### الفرق بين التبديل والتغيير:

ثم إن إبليس لم يقل: لأمرنهم فليبدلن خلق الله؛ لأنه يعلم أن الله لا مبدل لكلماته، وأنه لا تبديل لخلق الله. وإنما قال: فليغيرن؛ فالتبديل يكون لأصل الشيء، فهو إحلال شيء محل آخر، أو بعبارة أخرى: التبديل تبديل ذات الشيء، أما التغيير فيكون تغييراً في صفة الشيء، فالبشر لا يستطيعون أن يبدلوا خلق الله، فالله هو من يبدل خلقه لو شاء<sup>(٢)</sup>، أما البشر فيمكنهم أن يغيروا خلق الله، فإن عطلوا خاصية الفطرة، فقد غيروا خلق الله، ولذلك يخبرنا القرآن الكريم أنه جعل للناس السمع والأبصار والأفئدة، ثم يخبرنا أن الكافرين لا سمع لهم ولا أبصار ولا قلوب يعقلون بها، فهم غيروا "خلق الله"، وأصبحوا كالأنعام.

ثم إن اللعين لم ينسب فعل التغيير إلى نفسه، فلم يقل: (ولأغيرن خلق الله)، كما قال: (ولأضلنهم ولأمنينهم)، وإنما قصارى ما يفعله هو الأمر، والبشر هم من يغيرون خلق الله. فكيد الشيطان ضعيف، فهو كما أخبر عن نفسه (لَأَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ

---

<sup>(٢)</sup> قال تعالى: (وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ)، وقال: (إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ)، وقال: (نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا).

خَلْفَهُمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ). وكون البشر قادرين على التغيير، أخبر عنه القرآن الكريم، فقال: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ).

وعليه فلفظ (خلق الله) في الآيتين لم يخرج عن دلالة الخلق، ولكنه (خلق خاص)، يخص الإنسان، وهذا الخلق الخاص هو أمانة الله عند الإنسان.



## المبحث الرابع: (جعل) في القرآن الكريم

هذا المبحث يركز في تناوله لـ (جعل) المسندة إلى الله عز وجل.

جعل (الدالة على الخلق): خلق الشيء مع بيان صيرورته أو

ظرفيته.



## المطلب الأول: الدلالة العامة لـ (جعل)

قال الخليل: جعلت الشيء: صنعته، إلا أن "جعل" أعم، تقول: جعل يقول، ولا تقول: صنع يقول).

وقال العسكري في الفروق اللغوية "مفرقاً بين الجعل والعمل":  
(العَمَلُ هُوَ إِيجَادُ الْأَثْرِ فِي الشَّيْءِ.

والجعل تَغْيِيرُ بِإِيجَادِ الْأَثْرِ فِيهِ بِغَيْرِ ذَلِكَ. أَلَا تَرَى أَنَّكَ تَقُولُ:  
جعل الطين خزفاً، وجعل السَّاكِنَ متحركاً، وتقول: عمل الطين  
خزفاً، وَلَئِنَّا تَقُولُ: عمل السَّاكِنَ متحركاً؛ لِأَنَّ الْحَرَكَةَ لَيْسَتْ بِأَثْرٍ  
يُؤْثِرُ بِهِ فِي الشَّيْءِ.

والجعل أَيْضًا يَكُونُ بِمَعْنَى الْإِحْدَاثِ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَجَعَلَ  
الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ) وَقَوْلُهُ تَعَالَى (وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ). وَيَجُوزُ أَنْ  
يُقَالَ إِنَّ ذَلِكَ يَقْتَضِي أَنَّهُ جَعَلَهَا عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ الَّتِي هِيَ عَلَيْهَا  
كَمَا تَقُولُ: جعلت الطين خزفاً.

والجعل أَيْضًا يَدُلُّ عَلَى الْإِتِّصَالِ، وَلِذَلِكَ جَعَلَ طَرَفًا لِلْفِعْلِ  
فَتَسْتَفْتِحُ بِهِ كَقَوْلِكَ: جعل يقول، وجعل ينشد.

وَجَاءَ أَيْضًا بِمَعْنَى الْخَبَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ  
الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا) أَي أَخْبَرُوا بِذَلِكَ. وَبِمَعْنَى الْحُكْمِ فِي  
قَوْلِهِ تَعَالَى (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ أَي حِكْمَتُمْ). أ.هـ.

وقال الراغب في المفردات:

جَعَلَ: لَفْظٌ عَامٌ فِي الْأَفْعَالِ كُلِّهَا، وَهُوَ أَعَمُّ مِنْ فَعَلَ وَصَنَعَ وَسَاءَرَ



أخواتها، ويتصرف على خمسة أوجه:

الأول: يجري مجرى صار وطفق فلا يتعدى، نحو جعل زيد يقول كذا.

والثاني: يجري مجرى أوجد، فيتعدى إلى مفعول واحد نحو قوله عز وجل: {وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} .

والثالث: في إيجاد شيء من شيء وتكوينه منه، نحو: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا} .

والرابع: في تصيير الشيء على حالة دون حالة، نحو: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا} .

والخامس: الحكم بالشيء على الشيء، حقا كان أو باطلا، فأما الحق فنحو قوله تعالى: {إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}، وأما الباطل فنحو قوله عز وجل: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا} .

أ.هـ.

جاء في الكشاف للزمخشري: (والفرق بين الخلق والجعل: أن الخلق فيه معنى التقدير، وفي الجعل معنى التضمن، وإنشاء شيء من شيء، أو تصيير شيء شيئا، أو نقله من مكان إلى مكان).

وقال أبو السعود في تفسيره: (والجعل هو الإنشاء والإبداع، كالخلق خلا أن ذلك مختص بالإنشاء التكويني، وفيه معنى التقدير والتسوية، وهذا عام له كما في الآية (وجعل الظلمات

والنور)، وللتشريعي أيضا، كما في قوله سبحانه: (مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ). وأيا ما كان ففيه إنباء عن ملابسة مفعوله بشيء آخر، بأن يكون فيه أو له أو منه أو نحو ذلك ملابسة مصححة لأن يتوسط بينهما شيء من الظروف لغوا كان أو مستقرا لكن لا على أن يكون عمدة في الكلام بل قيذا فيه، كما في قوله: (وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا)، (وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًا)).

وقال الحرالي: (الجعل: إظهار أمر عن سبب وتصيير).

وفي المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته، ذكر ستة معاني لـ(جعل):

الأول: خلق وأوجد: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا).

الثاني: صير وحوّل: (فَجَعَلْنَاهُمْ عُنُتًا).

الثالث: شرع: (مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا

حَامٍ).

الرابع: وضع: (جَعَلَ السُّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ).

الخامس: ادعى: (الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ).

السادس: صنع: (اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ).



وبتتبع استخدام القرآن الكريم لـ(جعل)، وجدت أن دلالتها تكاد تنحصر في: التصيير، والظرفية. سواء السياق الذي استخدمت فيه للدلالة على الخلق أم لا. وسأبين كلا الأمرين في المطالب القادمة.

## المطلب الثاني: استخدام ودلالات (جعل) في القرآن الكريم

ل(جعل) عموماً في القرآن الكريم دلالتان: التصيير والظرفية.

### أولاً: التصيير:

التصيير: النقل من حال إلى حال. والصيرورة: الانتقال من حال إلى حال. وقد جاءت (جعل) بدلالة الصيرورة في التراكيب التالية:

#### (١) حين يكون لها مفعولان:

كقوله: (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا)، (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)، (وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا)، أي: صيرتموه كذلك في توثيقكم، (وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِّلْكَافِرِينَ حَصِيرًا)، (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا): أي صيروهم كذلك في اعتقادهم، أو في تسميتهم.

ومنه قوله (وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلٰى عَقْبَيْهِ)، أي: ما جعلنا القبلة إلا فتنة (وهو مضمون قول: لنعلم..)، وهذا كقوله: (وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا). وهذا التركيب استخدم كثيرا في القرآن الكريم، كقوله: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ)، أي: جعله سكناً، وكقوله: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النَّجْمَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)، أي: جعلها هداية، فيأتي بعد مفعول جعل بجملة فعلية معللة مسبوقة بلام التعليل، وكذلك الآية، ما جعلنا القبلة .. إلا فتنة.

ومنه قوله: (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ)، أي: تجعلون رزقكم الذي رزقكم الله التكريباً به، فكأنهم صيروه كذلك، وبعض المفسرين يقدر: الشكر، أي شكر رزقكم. ومنه قوله: (أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ)، ففي هنا ليست للظرفية، وإنما للصيرورة: صير كيدهم هباءً.

وكقوله: (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ)، أي: صيرناكم خلائف، وقوله (وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ)، أي: لصيرنا ملائكة خلفاء في الأرض بدلاً منكم.

ويدخل في ذلك أيضاً [جعل كـ]، والكاف بمعنى: مثل، كقوله (أَفَجَعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)، أي: أفصير المسلمين مثل المجرمين، و(لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا)، و(جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ)، (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)، (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)، (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ)... وكقوله (مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتُهُ كَالرَّمِيمِ)، أي: صيرته مثل الرميم.

(٢) اجعل علي،

كقوله: (قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمِ)، أي صيرني عليها خازناً، فهو ينقله من حال إلى حال، (ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى

كُلُّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا)، أي صير الأجزاء التي لديك مفارقة على كل جبل، فهو محمول على الصيرورة، وليس على مجرد (الوضع)، ومنه: (ثُمَّ نَبِّئَهُمْ فَتَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)، أي: نصير اللعن ليحقيق بالكاذبين، فبدلاً من أن تحيق لعنة الله بأحد منا، ندعو الله أن تصير على الكاذب منا، ومنه (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا)، أي: صيرناك على شريعة بينة، فنقلناك من حال إلى أخرى بها، وكقوله (وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)، أي: ما صير عليكم حرجاً في الدين، فهو لم ينقلكم من حالة اليسر إلى حالة الحرج. وهكذا سائر الأمثلة.

وقوله (إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ)، أي: إنما صيرناه يوم عبادة على من اختلف فيه، فهو لم يكن يوم عبادة، بل كان غيره، قال ابن عطية: (أي لم يكن من ملة إبراهيم وإنما جعله الله فرضاً عاقب به القوم المختلفين فيه، قاله ابن زيد، وذلك أن موسى أمر بني إسرائيل أن يجعلوا من الجمعة يوماً مختصاً بالعبادة وأمرهم أن يكون الجمعة، فقال جمهورهم: بل يكون يوم السبت لأن الله فرغ فيه من خلق مخلوقاته، فقال غيرهم: بل نقبل ما أمر الله به موسى، فراجعهم الجمهور فتابعهم الآخرون، فألزمهم الله يوم السبت إلزاماً قوياً عقوبة لهم منه، فلم يكن منهم ثبوت بل عصوا فيه وتعدوا فأهلكهم).

(٣) *اجعل تحت/فوق،*

فهي دالة على صيرورة المكان، كقوله: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا

أَرِنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ  
الْأَسْفَلِينَ)، فنصير مكانهما إلى الأسفل، وقوله (وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ  
فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)، أي: فمصير مكانهم إلى الأعلى.

(٤) اجعل بعدا،

فهو يدل على صيرورة الحال مما كان عليه أولا إلى حال أخرى،  
كقوله: (سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا)، أي: سيصير الحال فينقله من  
العسر إلى اليسر.

(٥) اجعل مع،

فهو يدل على صيرورة شيء من حال ليصبح مع شيء آخر، ومنه  
قوله: (قَالُوا رَبَّنَا لِمَا نَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)، أي: لا تصيرنا من  
حالتنا الذي نحن عليه إلى أن نصبح مع الظالمين، ومنه (الَّذِينَ  
يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ)، أي: يتخذون إلها فيصيرونه إلها مع الله.

(٦) اجعل لـ،

أي صير شيئا لشيء آخر، فصار له بعد أن لم يكن، كقوله:  
(وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ)،  
أي فقد صيرنا له هذا السلطان بعد أن لم يكن، (وَتِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ  
نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا)، أي: نصيرها  
لهم، وقوله: (فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)، فهو ينهاهم عن أن  
يصيروا لله أندادا، (ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا)،  
(وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا)، (وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ

وَالنُّعَامِ نَصِيْبًا)، و(قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ)،  
 و(وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ)، (رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)،  
 (إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَّكُمْ فُرْقَانًا)، (قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً)، (وَلَا تُؤْتُوا  
 السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا)، أي: صير لكم القيام  
 فيها، (وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا)، (وَمَا جَعَلْنَا  
 لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ)، (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)، (قَدْ جَعَلَ  
 اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا)، (لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا)، أي: صيرنا  
 لكل منكم شرعة ومنهاجا... الخ.

(٧) اجعل من،

فيدل على تصيير شيء من شيء آخر، فهو نقل له ليصبح ضمن  
 فئة أخرى، كقوله: (وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ)، أي: صيرني  
 فأصبح منهم، (إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)، (قَالَ لَئِن  
 اتَّخَذْتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ)، (وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ  
 وَالْخَنَازِيرَ)، (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا  
 وَحَلَالًا)، و(وَالْبُدْنَ جَعَلْنَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ)، أي: صيرناها من  
 شعائر الله، فنقلناها من فئة سائر البهائم إلى فئة أخرى، وهي أن  
 تكون من شعائر الله.

❖❖❖



## ثانياً: الظرفية:

أما الظرفية، فتعني جعل شيء في شيء، وقد جاءت (جعل) بدلالة الظرفية في التراكيب التالية:

### (١) اجعل في،

فهو يضع شيئاً في آخر، كقوله: (يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ)، و(وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا)، فلم يقل: على، فهو يجعلها في أعناقهم، ولا يربطهم بها، بل تصبح داخل أعناقهم ثم يجرون بها، ومثله (إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ)، وفي هذه الآية بين امتدادها داخل أعناقهم، حيث تمتد إلى الأذقان. و(وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ)، (إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ)، و(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ)، و(وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً). ومنه قوله: (مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ)، أي: ما جعل الله في دينه هذه الأشياء، فالظرفية مقدره لدلالة السياق عليها.

### (٢) اجعل بين،

فيدل على وضع شيء بين شيئين، كقوله: (فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا) (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا)، فهو يدل على الإنشاء مقترنا بالظرفية، أي تنشئ سدا وتضعه بيننا وبينهم، و(وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَىٰ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَىٰ ظَاهِرَةً).



(٣) اجعل امام/خلفاء،

كقوله: (وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)، فهو يدل على إحاطة السدود بهم.

(٤) اجعل حيث،

كقوله: (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)، أي: الله أعلم حيث يضع رسالته.



## المطلب الثالث: استخدام (جعل) التي بمعنى (خلق)

استخدام (جعل) بمعنى (خلق)، فهي تدل على: خلق الشيء مع بيان صيرورته أو ظرفيته.

وبذلك ف(جعل) هنا لم تتمحض لدلالة (خلق)، بل جاءت مقترنة ببيان الصيرورة أو الظرفية. وهذا الفرق بين دلالة (خلق) و(جعل).

### أولاً: الصيرورة:

الصيرورة: ودلالاتها، صيرورة الشيء المخلوق إلى شيء آخر، أو حال أخرى. وجاءت في التراكيب التالية:

#### (١) أحيان يكون لها مفعولان،

فيدل على أن الله صير الشيء المخلوق على الحالة المذكورة، كقوله: (وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا)، أي: يصيره عقيماً.

وكقوله (أَمْنَ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا)، أي: صيرها قراراً، (والله الذي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً)، (والله جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا)، (وإِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا)، (وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ) أي: جاريةً، (وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا)، (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا)، (وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا)، (وَجَعَلْنَا نُومَكُمْ سُبَاتًا) (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا).

وقد يأتي بالمفعول الثاني جملة فعلية لبيان العلة، كقوله (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا)، كما قال: (وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا)، وكقوله: (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)، أي: جعلها ركوبا لكم، ومثله: (وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ)، (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر)، أي: هداية لكم.

وأمثلة الباب كثيرة جداً.

### (٢) [جعل تحتها]

في قوله: (فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا). أي: صير تحتك سريراً.

### (٣) [جعل بعدا]

كقوله: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ)، أي: صير حال الخلق من ضعف إلى قوة، ثم صيرها من قوة إلى ضعف.

### (٤) [جعل لها]

كقوله: (وَجَعَلْتُ لَهَا مَالًا مَمْدُودًا)، أي: صيرت له مالا بعد أن لم يكن له، وقوله: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً)، وقوله: (وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا)، (وواضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب).

واطرده استخدام (جعل) مع أعضاء جسم الإنسان، مقترنة بـ(لكم/لهم/له)، قال تعالى: (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ)، ولم ترد في غيرها. وكذلك السمع والأبصار والأفئدة (وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ)، و(وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً)، وقد وردت أربع مرات كلها مع (جعل)، والخامسة مع (أنشأ)، في قوله: (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ). وقوله: (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ).

فالمعنى أن الله صير للإنسان هذه النعم بعد أن لم تكن، فميزه الله بها عن عامة الخلق، كما بينت سابقا (راجع مبحث: فطر).

#### (٥) اجعل من،

فيكون التركيب: جعل الله كذا من كذا، ففيه بيان لأصل الشيء، وكيف أن الله أنشأ من ذلك الأصل شيئا آخر.

ويطرده استخدام ذلك في بيان سنة الزوجية، كقوله تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا)، أي وصير من تلك النفس زوجها، فأكملها بذلك، فجعل هنا تبين أصل الشيء وما صار عليه، فالزوج نشأ عن تلك النفس. ومثله قوله: (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ)، و(فَاطَرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّوكُمْ فِيهِ)، و(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً)، و(أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ

مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى)، (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ  
ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا)، وقوله: (وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ  
اثْنَيْنِ).

كما جاء استخدام (الزوجية) مع (خلق) في قوله: (وَخَلَقَ مِنْهَا  
زَوْجَهَا) في النساء، وقوله (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ  
تَذَكَّرُونَ) في الذاريات، وقوله في النجم: (وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ  
وَالْأُنثَى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى)، وقوله في الروم: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ  
لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا)، وقوله في يس: (سُبْحَانَ الَّذِي  
خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ)،  
وفي الزخرف: (وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ  
وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ)، (وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا).

واستخدمت مع (أنبت) بالنسبة للأرض، كقوله: (وَأَنْبَتْنَا فِيهَا  
مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)، ومع (أخرج) في قوله: (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً  
فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى).

وجاء (جعل من) أيضا في قوله: (وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧)  
ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ)، أي صار بدء نسله من سلالة  
من ماء مهين، ف(السلالة) تمثل الأصل الذي جاء منه النسل.

كما جاء هذا التركيب (جعل من) في قوله: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ  
مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ  
ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا  
إِلَى حِينٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ

أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ  
كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسَلِّمُونَ)، فتلاحظ أن الآية في  
سياق الإنعام، وتبين أن الله جعل للناس نعمًا كثيرة من أشياء  
يعرفونها، ثم قال لهم أنه يتم نعمته عليهم. ومثله قوله: (الَّذِي جَعَلَ  
لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ)، أي صير النار من  
الشجر الأخضر.

وقوله: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا)، أي: صيرنا كل شيء  
حي من الماء.



## ثانياً: الظرفية:

الظرفية، ودلالاتها: جعل شيء في شيء آخر.

### (١) اجعل في،

كقوله: (أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، أي: فوضعنا الماء في قرار مكين، وهو كقوله (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ)، فهنا بين أنه جعله نطفة وحفظها في قرار مكين، ولم يستخدم (قرار مكين) في غير هذين الموضعين، وكلاهما مع (جعل).

وكقوله: (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا)، وقد وردت (رواسي) تسع مرات في القرآن الكريم، اقترنت بـ(جعل) في خمس منها، ومع (ألقى) في أربع، كقوله: (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ). وأما (أنهار، الأنهار) فغالباً ما تقترن بـ(جعل)، وقد اقترنت بـ(ألقى)، و(سخر) أيضاً.

وكقوله: (وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ)، وردت (معايش) مرتين، اقترنت فيهما بـ(جعل).

وكقوله: (وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ)، أي: في الأرض، وحيث وردت جنات الدنيا فإنها تقترن غالباً بـ(جعل)، وقد تقترن بـ(أنشأ)، أو (أنبت)، أو (أخرج). كقوله: (فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ)، و(فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ)، و(لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا). وأما جنات الآخرة فلا تقترن إلا بـ(أعد)، كقوله: (أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)، و(وَجَنَّةٍ

عَرْضَهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)... الخ، وكذلك النار (فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ). ومن ثم فقولته: (تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا)، هو من جنات الدنيا، وليس من جنات الآخرة، أي: لو شاء لجعل لك في الدنيا الجنات والقصور.

وكقولته: (تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا)، ووردت البروج مرتين فقط، كلاهما مع (جعل).  
(وسراجا) جاءت ثلاث مرات كلها مقترنة مع (جعل).

### (٢) اجعل خلال،

وهو كسابقه، وقد ورد في قوله تعالى: (أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي).

### (٣) اجعل بين،

كقولته: (وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا)، (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا)، وقولته: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ).





## المطلب الرابع: قوله ( وجعل الظلمات النور )

أما قوله سبحانه وتعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)، فهو الموضع الوحيد الذي لم يلابس (جعل) مفعولا ثانيا، ولم يلابسها حرف جر أو ظرف، كعامّة الأمثلة.

وخرجها عامّة المفسرين أن (جعل) بمعنى: خلق وأوجد. قال الماوردي: ( {وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} يعني وخلق ، فغاير بين اللفظ ليكون أحسن في النظم). وقال البغوي: (والجعل بمعنى الخلق، وقال الواقدي: كل ما في القرآن من الظلمات والنور فهو الكفر والإيمان، إلا في هذه الآية فإنه يريد بهما الليل والنهار).

وقال البيضاوي: ( {وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} أنشأهما، والفرق بين خلق وجعل الذي له مفعول واحد أن الخلق فيه معنى التقدير والجعل فيه معنى التضمن. ولذلك عبر عن إحداث النور والظلمة بالجعل تنبيهاً على أنهما لا يقومان بأنفسهما كما زعمت الثنوية).

وتابعه ابن عاشور، في أن الظلمات والنور عرضان، قال: (فجعل "خلق" أليق بإيجاد الذوات، وفعل "جعل" أليق بإيجاد أعراض الذوات وأحوالها ونظامها).

وأنا لا أتفق مع ابن عاشور في أن (جعل) أليق بأعراض الذوات؛ ففي كثير من الآيات ذكر جعل شيء في شيء، وكلاهما ذات، مثل (جعل في السماء بروجاً)... وغيرها من الآيات الواردة. ثم إن الظلمات والنور ذوات وليستا مجرد عرضين. وهو ما ألمح إليه بعض المفسرين،

كالحرالي حيث قال أن الظلمات: ما يطمس الباديات حساً ومعنى، والنور هو ما يُظهر الباديات حساً ومعنى، وكذلك البقاعي، حيث قال: {الظلمات} أي: الأجرام المتكاثفة).

وهذا هو الموضع الوحيد الذي اقترنت فيه (الظلمات والنور) بفعل (جعل)، ولم ترد في غيره مقترنة بفعل من الأفعال الدالة على الخلق والإنشاء.

وقد بينت في بحث (الظلمات والنور في القرآن الكريم)، أن ثمة ثلاث ظلمات، ونورا واحدا فقط، وجاء في الحديث: «إن الله عز وجل خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم نورا من نوره»، فهي الظلمة الأولى التي خلق الله فيها الخلق، ثم الظلمة الثانية: ظلمة الدنيا، ثم الظلمة الثالثة: ظلمة القيامة.

وعليه فالمعنى: خلق الله السماوات والأرض، وجعلها من عالم الغيب، وخلق الظلمات والنور؛ لتنفيذ إرادة الله سبحانه وتعالى في إظهار ما شاء من عالم الغيب ليصير من عالم الشهادة. فالسماوات والأرض وما فيهما من الغيب يكون غيباً في الظلمات، ويصير شهادة بالنور.

وعليه فيمكن أن نقدر اللام، كقوله: (وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ)، أي: صير لكم. وفي آية الأنعام يكون التقدير: وصير الظلمات والنور للسماوات والأرض وما فيهما من خلق.

ويمكن أن نقدر حرف: (في)، أي: جعل فيهما الظلمات والنور، كما قدر في قوله (ما جعل الله من بحيرة)، أي: ما جعل الله في دينه

من بحيرة... الخ.



وهذا يبين أمرين:

### الأول: الظلمات في السماوات

السماوات محيطة بخلق الله سبحانه وتعالى، وقد اقتضى أمره أن يكون عالم الغيب ذي الظلمة في السماوات وليس خارجها. وقد بينت في (الغيب والشهادة في القرآن الكريم)، أن الغيب إما غيب محجوب بالظلمة (وهو أنباء الغيب وأخبار الغيب)، وإما غيب محجوب بالنور، كالجنة، والله سبحانه وتعالى غيب محجوب عن خلقه بنوره.

فآية الأنعام تبين لنا أن الظلمات التي يختفي فيها عالم الغيب، كلها في السماوات والأرض وما بينهما.

وهذا يفسر لنا قوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَأَاجِلِيهَا لَوْقْتُهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)، فالساعة هي غيب (من أخبار الغيب)، وهي موجودة، ولكنها محجوبة بظلمة، والآية تبين لنا أن الساعة موجودة في السماوات، وليست خارجها، ولذلك قال: (ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ). فحين يأذن الله بتجليها فإنها تأتي، ثم بعد ذلك يحدث التبديل في نظام السماوات والأرض.

الثاني: كل ما كان خارج السماوات كالعرش والكرسي (وسِعَ

كُرْسِيِّهِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)، فهو غيب محجوب بالنور، فلا توجد  
ظلمة خارج إطار السماوات. وهذا يبين أن الجنة التي أعدها الله  
للمتقين ليست داخل السماوات، بل هي خارجها، حيث النور التام.

## المطلب الخامس: موازنة بين استخدام (خلق) و(جعل)

وبالموازنة بين استخدام (خلق) و(جعل) تبين ما يلي:

- (جعل) لا تدل على الخلق بإطلاقها، بل تدل عليه ببيان صيرورته أو ظرفيته، كما رأينا في الآيات السابقة.

- (جعل) لا تستخدم مع الأصول الأولى، كالسموات والأرض، بل يستعمل معها (خلق)، وأما (جعل) فتستعمل من المخلوقات التي نشأت عن الأصول الأولى، كالإنسان. واستخدام جعل مع الأصول الأولى كالأرض لبيان الصيرورة، ولا يأتي إلا مع مفعولين، كقوله (أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا)، بخلاف استخدامه مع ما في الأرض، كقوله: (وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِّنْ فَوْقِهَا).

- (خلق) تستخدم مع المرحلة الأولى في الخلق، أما (جعل) فتستخدم مع المرحلة الثانية. لراجع بحثي: السماء والسموات في القرآن الكريم.

- الخلق يستخدم مصدرًا وفعالًا واسما واسم فاعل، واسم مفعول، وصفة مشبهة، (خَلَقَ، خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، لَهُ الْخَلْقُ، أَتَيْنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ، خَالِقُ، خَلَقَ [مَفْعُولٌ]، خَالِقٌ). أما الجعل فاستخدم فعالًا واسم فاعل فقط (جعل، جاعل).

[مع الإنسان]:

- اطرء استخدام (جعل) مع أعضاء جسم الإنسان، ولم

تستخدم فيها (خلق).

- وأما أطوار خلق الإنسان، ومراحل تكوينه الأولى: (النطفة والعلقة والمضغة..) فقد اطردها معها استخدام (خلق). ووردت ثلاث آيات توهم غير ذلك، وهي قوله (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ)، أي: جعلنا الإنسان نطفة، بمعنى: صيرناه، فالفعل وقع على (ضمير الإنسان)، ليبين الحالة التي صار عليها، ولم يقع على (النطفة)، وقوله: (ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ)، فالفعل وقع على (نسله) لا على (السلالة). وقوله: (أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ)، فجعل هنا بمعنى: وضع، أي وضعناه وحفظناه. ولذلك فقد اطردها استخدام (جعل) مع (قرار مكين).

- لم يرد (جعل) مع الاسم الظاهر (الإنسان)، بل: (خلق)، كقوله: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ، (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ)، (وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا)، (خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ). وأما مع الضمير الغائب العائد للإنسان، فقد جاءت (جعل)، وكذلك (خلق). وأما ضمير المخاطب (كم)، فاطردها استخدام (خلق): (خلقكم، خلقناكم، خلقك... إلا في موضع واحد استخدمت جعل، وهو قوله (ثُمَّ جَعَلْكُمْ أَزْوَاجًا)، وذلك لكونه يتحدث عن الزوجية.

[مع السماء والسموات والأرض]

- لم يرد (جعل) مع السماوات والأرض أو السماوات، بل (خلق).
- اطرده استخدام جعل مع (السماء)، مبينة الحالة التي خلقها الله عليها: بناءً، سقفا محفوظاً، رجوما للشياطين.
- اطرده استخدام (جعل) مع الرواسي والأنهار والجنات والمعاش (في الأرض)، ولم تستخدم (خلق) مع أي منها.
- اطرده استخدام لبيان الظرفية (في السماء): بروجاً، وسراجاً، وقمرًا منيرًا. و(في السماوات): جعل القمر فيهن نوراً، وجعل الشمس سراجاً. ولم ترد: (خلق).

[سنة الزوجية]

- اطرده استخدام (جعل) مع سنة الزوجية، كما استخدمت (خلق) إلا أن (جعل) أغلب، وندر استخدام (أنبت)، و(أخرج).



## المبحث الخامس: (أنشأ) و(ذراً) و(برأ) و(بث) في

### القرآن الكريم

#### المطلب الأول: (أنشأ) في القرآن الكريم

الإنشاء: بدء في خلق أول الشيء وتنميته، أو إعادة أوله.

أولاً: دلالة الإنشاء في المعاجم:

في الصحاح للجوهري: (أنشأه الله: خلقه. والاسم النشأة والنشاء بالمد، عن أبي عمرو بن العلاء. وأنشأ يفعل كذا، أي: ابتداءً. وفلان ينشئ الأحاديث، أي يضعها. والناشئ: الحدث الذي قد جاوز حد الصغر، والجارية ناشئ أيضاً، والجمع النشأ، مثل: طالب وطلب، وكذلك النشاء، مثل: صاحب وصحب. والنشاء أيضاً: أول ما ينشأ من السحاب).

وقال ابن فارس في مقاييس اللغة: (النون والشين والهمزة أصل صحيح يدل على ارتفاع في شيء، وسمو. ونشأ السحاب: ارتفع. وأنشأه الله: رفعه. والناشئ: الشاب الذي نشأ وارتفع وعلا...).

وقال الراغب في المفردات: (النَّشَأُ والنَّشَأَةُ: إِحْدَاثُ الشَّيْءِ وتربيتُهُ).

فخلاصة الدلالات أن الإنشاء فيه دلالتان، الأول: بدء في الشيء، والثانية: تنمية الشيء وتعبه بالرعاية، وعليه فالإنشاء لغة هو: (البدء في الشيء، وتنميته).



## ثانياً: دلالة الإنشاء وإيضاحها:

أعرف الإنشاء (المضاف إلى الله) بأنه: بدءٌ في خلق أول الشيء وتنميته، أو إعادة أوله.

الإنشاء هو بدءٌ في خلق أول الشيء، ولذلك غالباً ما يقترن بـ(من) الدالة على ذلك، كقوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)، وقوله: (هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ).

و(تنميته)، مصدر: نَمَى الشيء، فالتنمية داخلية في دلالة الإنشاء، فقوله: (أَوْمَنْ يُنْشَأُ فِي الْحَلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ)، أي ينمى شيئاً فشيئاً. ولهذا قال تعالى: (وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ)، أي: يبدأها ثم ينميها شيئاً فشيئاً حتى تصبح ثقلاً، ولذلك تجد قوله (وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا)، أي أوجدنا القرن بعد القرن، فكان كل قرن يكون نماء للقرن الذي قبله، وقوله (هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)، فهي دالة على التنمية، حيث أنشأهم منها ونماهم شيئاً فشيئاً، ومن تنميتهم أن جعلهم مستعمرين فيها، وكذلك قوله: (إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا)، فهي تنمية خاصة بهن، ولا تزال التنمية حتى أصبحن أبكاراً.

والإنشاء يحدد مسار الخلق، ولذلك استخدم في قوله: (وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى)، أي: ما كنا عاجزين على أن نجعل مسار خلقكم مساراً آخر لا تعلمونه، ولكننا جعلناه المسار الذي تعلمونه (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى).

وقوله (ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ)، فهو يدل على أن مسار خلق الإنسان يبدأ من هذا الطور، أي بعد كساء العظام لحما، فهو مسار يختص به، ولا يشاركه فيه خلق آخر، ويأخذ في مراحل النمو في هذا المسار الجديد. وهي المرحلة التي تبدأ بتسوية الإنسان، (انظر بحثي: سوى ومشتقاتها في القرآن الكريم).

والإنشاء أيضاً بدءٌ في إعادة أول الشيء، قال تعالى: (فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ)، (وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْآخِرَى) فسامها النشأة الأخرى، في مقابل النشأة الأولى، قال تعالى: (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ).

وقد بينت سابقاً أن الخلق الأول يقابله الخلق الآخر، وهما المرحلتان الفاصلتان في تكوين الإنسان حين يكون جنينا في بطن أمه.



### ثالثاً: النشأة الأولى والنشأة الأخرى:

النشأة الأولى، تقابلها النشأة الأخرى، والنشأة الأخرى هي إعادة خلق الإنسان بعد بعثه، وأما النشأة الأولى فهي خلق الإنسان لأول مرة، كما قال تعالى: (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ)، (لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ).

ومن ثم فقول بعض المفسرين في تفسير الآية: (أعجزنا عن الخلق الأول، فنعجز عن الخلق الثاني، وهذا توقيف للكفار، وتوبيخ وإقامة الحجة الواضحة عليهم). فقابل الخلق الأول بالخلق الثاني، وهذا غير دقيق، فلم يرد في القرآن الكريم: الخلق الثاني، أو النشأة الثانية، بل الذي ورد، ما ذكرته: النشأة الأخرى. ولو أراد المقابلة لقال: النشأة الأخرى. أما الخلق الأول والآخر فقد عرفنا دلالته، ثم إنا لو قلنا بالخلق الثاني لقلنا بالخلق الثالث والرابع، وكل ذلك جائز في قدرته سبحانه، إلا أنه لم يخبرنا إلا عن الخلق الأول والآخر، والنشأة الأولى والآخر، فنلتزم بألفاظ القرآن الكريم الدقيقة.



رابعاً: أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع:

وقوله: (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ)،

أي: بدأ في خلق أولكم من نفس واحدة، وهي النفس التي خلق منها زوجها بعد ذلك.

وقوله (فمستقر ومستودع)، للمفسرين فيها أقوال كثيرة، ذكرها ابن الجوزي في زاد المسير، وخلاصتها: (١) فمستقر في الأرحام ومستودع في الأصلاب، وقيل العكس: المستقر في الأصلاب والمستودع في الأرحام (٢): المستقر في الأرحام والمستودع في القبر. (٣): المستقر في الأرض والمستودع في الأصلاب. (٤): المستقر والمستودع في الرحم. (٥): المستقر حيث يأوي والمستودع حيث يموت. (٦): المستقر في الدنيا والمستودع في القبر، وقيل العكس: المستقر في القبر والمستودع في الدنيا. (٧): المستقر في الدنيا والمستودع عند الله تعالى.

ولإدراك الدلالة الدقيقة لقوله (فمستقر ومستودع)، نوضح ما

يلي:

أولاً: ورد هذا التركيب في أربع آيات، إحداهن مع (أنشأ)، والثلاث الأخريات مع (خلق) - قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً)، وقال: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا)، وقال تعالى: (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ). وفي الثلاث

الآيات (المقترنة بلفظ الخلق) يعطف عليها بأنه خلق منها زوجها، بخلاف آية (أنشأكم). وفي الآيات الثلاث يتحدث عن سنة الزوجية بعد قوله (من نفس واحدة)، وهذا يبين أن الله أنشأ أول الناس من نفس واحدة، ثم قضى بسنة الزوجية، فهم ينشأون فيها جيلا بعد جيل. وجاء في آية الزمر (وأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ)، فتحدث عن الزوجية في الأنعام.

ومن ثم فقوله (فمستقر ومستودع) يتعلق بسنة الزوجية، كما تدل عليه كافة الآيات، وقد جعل الله رحم الأنثى مقرا (أو معملا)، تتحقق فيه سنة الزوجية. فتفسيره بالرحم هو أولى الأقوال، وهو قول منسوب لابن عباس، أن المستقر والمستودع في الرحم. وتؤيده الأدلة التالية.

ثانيا: القرآن الكريم يسمى الرحم بالقرار المكين، قال تعالى: (أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ)، وقال: (ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ)، وقال: (وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى).

ثالثا: جاءت هذه الآية في سورة الأنعام في سياق آيات تتحدث عن الفلق، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمَخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ

نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ).

فالأيات تتحدث عن أن الله فالق الحب والنوى، وفالق الإصباح، والفلق هو شيء كان في شيء مظلّم، وفلقه: شق الشيء المظلّم وإخراج ذلك الشيء منه، فكما أن الشجرة الحية أخرجها الله من ظلمات الحب والنوى بعد أن استقرت فيها مدة من الزمن، إلى قدر معلوم، فكذلك النطفة، استقرت في ظلمات ثلاث، فهي مستقرها ومستودعها، إلى قدر معلوم.

رابعا: ومما يدل عليه أيضا، قوله: (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ)، فهذه الآية تفسر المستقر والمستودع، بأنه الظلمات الثلاث التي استقرت فيها النطفة، فكانت لها مستقرا، حتى فلق الله تلك الظلمات عن إنسان سوي. وكل دابة لها مستقر ومستودع، ذلك أن نسل الدواب يأتي عن طريق الزوجية، (فيكون الرحم مستقرها ومستودعها). قال تعالى: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ).

وقد بينت سابقا [مبحث: خلق]، أن الرحم هو المستقر والمستودع، وأن ذلك يبين مرحلتيه، الأولى: حين يكون قرارا مكينا للنطفة، وفيه تتخلق النطفة حتى تصبح مضغة فعظاما فلحما. والثانية: حين يكون الرحم مستودعا، وفيه تزداد الأرحام، وينشأ الجنين خلقا آخر، ومن ثم يصبح شيئا غير الشيء الأول، فيكون الرحم مستودعا لهذا

المخلوق.



## خامساً: هو أنشأكم من الأرض:

وقوله: (هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)، أي: بدأ في خلق أولكم من الأرض، كقوله (هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ)، وهذا يفسر قوله تعالى: (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا)، وقوله: (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى). فالإنشاء هو إنبات الشيء شيئاً فشيئاً، وكلاهما يتعلقان بخلق أول الشيء، حيث يبدأ بالظهور، ثم يختلفان في كون الإنشاء يتعلق بخلق أول الشيء مطلقاً، وتنميته شيئاً فشيئاً، أما الإنبات فهو خلق أول الشيء من الأرض، ولأن الإنسان خلق من الأرض فإنه نبت من أنبتتها، بدأ ظهوره منها.





سادساً: كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين:

وقوله: (كَمَا أَنْشَأَكُم مِّنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمِ آخَرِينَ)، أي: بدأ خلق أولكم

من ذرية قوم آخرين.

ومن الواضح أن دلالة ضمير الخطاب تختلف باختلاف السياق، فقوله (أنشأكم من ذرية قوم آخرين) يدل على أن المخاطب كل إنسان، فكل إنسان ينشأ من ذرية غيره، وأما قوله (أنشأكم من نفس واحدة)، فهو يدل على كل البشر ما عدا تلك النفس (آدم)، وقوله (أنشأكم من الأرض) يتحدث عن أصل البشر، وهو تلك النفس الواحدة (آدم)، قال تعالى: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ).



## سابعاً: مفعولات الإنشاء في القرآن الكريم:

### (١) الإنسان وأجزاؤه:

وقد اقترن الإنشاء في القرآن الكريم بالإنسان، كآيات السابقة، كقوله: (قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ)، وبيعض أجزائه، كما في قوله: (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ)، وهذا يفسر قوله تعالى: (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ)، أي: أنشأنا له أشياء حتى صار خلقاً آخر.

### (٢) نساء أهل الجنة:

واقترن بإنشاء نساء أهل الجنة: (إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا).

### (٣) القرون من الناس:

كما اقترن بإنشاء القرون من الناس، ولم يأت لفظ سوى الإنشاء مقترنا بالقرن والقرون. وقد جاءت في خمسة مواضع، قال تعالى: (فَأَهْلَكْنَاهُمْ بَدُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ)، و(وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ)، و(ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ) جاءت بعد هلاك قوم نوح، و(فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١) ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ).

يلحظ أن هذه المواضع تأتي بعد الحديث عن إهلاك قوم سابقين، وخلق الأرض منهم، ثم إنشاء الله قرناً/قوماً آخرين، فكان

ظهورهم على الأرض يمثل ظهوراً جديداً للناس بعد هلاك السابقين، كما تظهر طائفة من النبات التي تنبت في الأرض بعد جذبها، فهو إنشاء لقوم آخرين، بعد هلاك تام لقوم سابقين. ولم تستخدم إلا في موطن الهلاك التام للقوم السابقين.

والموضع الخامس في سورة القصص، قال تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغُرِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ). فقوله (أنشأنا قروناً)، جاءت بعد الحديث عن (إهلاك القرون الأولى)، ثم مجيء موسى، وإنشاء الله قروناً كثيرة، وهنا نلاحظ استخدام الجمع (قرون)، بخلاف المواضع السابقة حيث استخدم المفرد، وهذا يدل على أن الله لم يهلك قرناً تاماً من البشر بعد بعثة موسى، فالقرون الأولى هي التي هلكت هلاكاً تاماً، وكان الله ينشئ بعد كل قرن قرناً آخرين. أما بعد موسى فقد أنشأ الله قروناً، حتى بعثة محمد، (فتطاول عليهم العمر)، أي: فنسوا الذكر، ونسوا الوحي، فأرسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم منذراً لهم.

#### (٤) النبات والأنعام:

كما اقترن بالنبات والأنعام، كقوله في سورة الأنعام: (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا

أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١)  
وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ، وفي سورة المؤمنون مقترنا بالنبات فقط: (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ (١٨) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَحِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِلْأَكْلِينَ). وكلاهما جاءتا في مقام الامتنان والإنعام على الناس، وأن الله أباح لهن ما أنشأه لأجلهن.



والخلاصة أن الإنشاء في القرآن الكريم، استخدم مقترنا مع الإنسان، أو مع ما خلق للإنسان من نبات وأنعام، يأكل منها، وينتفع بها حمولة وفرشا، أو مع ما خلق للإنسان المؤمن في الجنة من حور عین.



## المطلب الثاني: (ذراً) في القرآن الكريم

الذَّرءُ: خُلِقُ كثيرٌ مَبْثُوثٌ من الشيء الواحد.

أولاً: ذراً في المعاجم:

في الصحاح: (ذراً الله الخلق يذروهم ذرءاً: خلقهم. ومنه: الذرية، وهي نسل الثقلين). وقال ابن فارس: (ذراً الأرض، أي بذرتها، ومنه: ذراً الله الخلق يذروهم). وفي لسان العرب: (ذراً الخلق، أي خلقهم).  
وقال الراغب في المفردات: (الذَّرءُ: إظهار الله تعالى ما أبداه، يقال: ذَرَأَ اللهُ الخلق، أي: أوجد أشخاصهم).

وقال العسكري في الفروق اللغوية: (أصل الذرء الإظهار، ومعنى ذراً الله الخلق: أظهرهم بالإيجاد بعد العدم، ومنه قيل للبياض الذرءة لظهوره وشهرته، وملح ذرأني لبياضه).

وبالنظر في استخدام القرآن الكريم للفظ (ذراً)، فإنه يتبين لـ(ذراً) دلالة دقيقة أخرى، ليس مطلق الخلق، ولا الظهور، بل الكثرة والبث.

ثانياً: دلالة (ذراً) وإيضاحها:

الذَّرءُ: خُلِقُ كثيرٌ منتشرٌ متفرقٌ من الشيء الواحد.

فهو ليس مطلق الخلق، ولكنه خلق أمثال كثيرة من الشيء الواحد، وتفريقها، فدلالته تتعلق بالكثرة والتفريق معاً، والعرب تقول، كما في القاموس المحيط: (ذراً فلان الشيء، إذا كثره، ومنه

اشتقاق لفظ: الذرية)، فكان الذرية تكثير للمخلوق بالتزاوج. كما ترتبط دلالة الذرء بالتفريق، وهو مقتضى الكثرة، وهو يتصل بدلالة (الذر)، قال في لسان العرب: (ذراً الشيء: نثره، وبدده، وذراً الحب: فرقه).

ويتدبر استخدام القرآن الكريم للفظ، نجد هذه الدلالة واضحة. قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ)، أي خلق كثيراً منكم وبثكم في الأرض، فلفظ (ذراً)، يحمل دلالة الخلق والبث، وتجده غالباً يقترن بـ(في)، ومنه قوله: (وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ)، أي خلق لكم كثيراً من النباتات المختلف ألوانه، وفرقه في مختلف أنحاء الأرض، وهذا يتناسب مع تفريق البشر في مختلف الأرض.

### ثالثاً: ولقد ذرأنا لجهنم:

وقوله: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ)، أي: خلقنا خلقاً كثيراً من الجن، وخلقنا كثيراً من الإنس، وبثناهم فيها، ولأنهم عصوا الله فمصيرهم إلى جهنم، فكانهم خلقوا لها. واستخدم لفظ (كثيراً)، حتى لا تنصرف الدلالة إلى الكل، بل تنصرف إلى جزء منهم. وقد جاء في تفسير ابن عطية للأية: (خبر من الله تعالى أنه خلق لسكنى جهنم والاحتراق فيها كثيراً، وفي ضمنه وعيد للكفار، و«ذراً» معناه خلق وأوجد مع بث ونشر، وقالت فرقة اللام في قوله: لِجَهَنَّمَ هي لام العاقبة أي ليكون أمرهم ومآلهم لجهنم).

### رابعاً: ذراً من الحرث والأنعام:

وقوله تعالى: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا)،

أي: جعل المشركون لله مما خلقه من الحرث والأنعام من خلق كثير مبعوث في الأرض، نصيبا.

### خامساً: يذروكم فيه:

وقوله تعالى: (فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)، أي: يخلقكم خلقا كثيرا مبعوثا فيه، واختلف المفسرون في عودة الضمير (فيه)، ودلالة (في) تبعا لذلك الاختلاف. وما أختاره أن (في) دالة على الظرفية، كما تدل على ذلك الآيات الأخرى التي تقترن (في) مع (ذرا).

من أقرب التفسيرات - كما يبدو لي - للآية، تفسير الشنقيطي في أضواء البيان، قال: (الضمير في قوله: «فيه» راجع إلى ما ذكر من الذكور والإناث من بني آدم والأنعام... وإذا كان ذلك كذلك، فمعنى الآية الكريمة (يذروكم) ، أي يخلقكم ويبتئكم وينشركم (فيه) ، أي فيما ذكر من الذكور والإناث، أي في ضمنه عن طريق التناسل، كما هو معروف).

ويتدبر الآية نجد أنها تتحدث عن سنة الزوجية التي خلقها الله للناس ولأنعامهم، وفي آية أخرى تحدث القرآن الكريم عن سنة الزوجية في البشر، وكونها سببا لبث الرجال والنساء، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً)، وفي آية أخرى ربط بين الزوجية في البشر والزوجية في الأنعام، قال تعالى: (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ

وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ  
يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ).

ومن ثم فالآية تربط بين الزوجية في البشر والأنعام، وأن هذه الزوجية هي الطريق الذي يتكاثر فيه الناس والأنعام. وتذكير الضمير (فيه)، باعتبار أن الزوجية هي من أمر الله، فالقرآن الكريم يسمي السنن الإلهية: الأمر، قال تعالى: (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)، فاقضى هذا الأمر أن يكون تكثير الله لخلق الناس وبثهم فيه بطريق الزوجية، فهو يخلقهم خلقا كثيرا مبثوثا في (أمر الزوجية)، أي: سنة الزوجية.

ونجد أن القرآن الكريم يستخدم اللفظ مع الأشياء التي يوجد منها خلق كثير مبثوث، كالناس، أو النبات، أو الأنعام، ولأن اللفظ دال على الكثرة والبث، فلا يصح استخدامه مع المفرد، فلا نقول: ذرأكَ الله، أو: ذرأَ الله هذا الرجل، أو ذرأَ الله هذه الناقة، بل الصحيح هنا: خلق، وأما ذرأ، فنقول معها: ذرأَ الله الناس، ذرأَ الله النوق... الخ. وكذلك لا أقول: ذرأَ الله السماوات؛ إذ لا كثرة فيها ولا بث. والله أعلم.



## المطلب الثالث: (برأ) في القرآن الكريم

الْبُرءُ: إظهار شيء مخلوق لم يكن ظاهراً.

أولاً: برأ في المعاجم:

قال ابن منظور في لسان العرب: (البارئ: هو الذي خلق الخلق لا عن مثال. قال ولهذه اللفظة من الاختصاص بخلق الحيوان ما ليس لها بغيره من المخلوقات، وقلما تستعمل في غير الحيوان، فيقال: برأ الله النسمة وخلق السماوات والأرض. قال ابن سيدة: برأ الله الخلق يبرؤهم برء وبروء: خلقهم، يكون ذلك في الجواهر والأعراض. وفي التهذيب: والبرية أيضاً: الخلق). وقال ابن فارس: البرء: الخلق.

وقال العسكري في الفروق اللغوية: (الْبُرءُ هُوَ تَمْيِيزُ الصُّورَةِ، وَقَوْلُهُمْ: بَرَأَ اللهُ الْخُلُقَ، أَي مَيِّزَ صُورَهُمْ، وَأَصْلُهُ الْقَطْعُ، وَمِنْهُ الْبَرَاءَةُ وَهِيَ قَطْعُ الْعَلَقَةِ، وَبَرِئْتُ مِنَ الْمَرَضِ كَأَنَّهُ انْقَطَعَتْ أَسْبَابُهُ عَنكَ، وَبَرِئْتُ مِنَ الدَّيْنِ، وَبَرَأَ اللَّحْمُ مِنَ الْعِظْمِ: قَطَعَهُ، وَتَبَرَأَ مِنَ الرَّجْلِ إِذَا انْقَطَعَتْ عَصْمَتُهُ).



ثانياً: دلالة (براً) وإيضاحها:

البرء: إظهار لشيء مخلوق لم يكن ظاهراً.

فهو مرحلة لاحقة للخلق، كما سألنا ذلك. ودلالة اللفظ في اللغة تحمل معنى: الإظهار بعد خفاء، ف(أبرأ): شفى، فهو يظهر الشفاء بعد اختفائه بالمرض، والبراءة هي النقاء أو الخلاص الذي يظهر بعد التهمة، ويرى الرجل فهو بريء: أي ظهرت براءته بعد اختفائها بالتهمة، وبرأه: أظهر ذلك، فدلالات اللفظ تبين أن ثمة انتقال من حالة خفاء إلى حالة إظهار بئ. وكذلك البرء، فهو إظهار للشيء الذي كان مخلوقاً غير ظاهراً.

ثالثاً: من قبل أن نبرأها:

ولم يرد فعلها في القرآن الكريم إلا مرة واحدة، في قوله تعالى: (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)،

فقوله: نبرأها: أي نبرأ المصيبة، فالأرجح عودة الضمير إلى المصيبة؛ لأنها الموضوع الأساس الذي تتحدث عنه الجملة، وبعضهم أعاد الضمير على الأرض أو على الأنفس، ولا مسوغ لذلك؛ فلماذا يعود على أحدهما دون الآخر، ولكن تقدير عودته على (المصيبة) أولى بالسياق والمقام.

ولم يستخدم هذا الفعل في غير هذا الموضع، وهذا يرجح عودته لشيء مختلف، ليس للنفس ولا للأرض. والله أعلم. وعلى هذا فالتقدير: ما من مصيبة إلا وهي في (كتاب) من قبل أن نظهر خلق

هذه المصيبة. فالمصيبة مخلوقة من قبل، وهي في (كتاب)، وما تتحدث عنه الآية ليس خلق المصيبة، ولكن إظهار خلقها. وهذا يسير على الله، والبشر قد لا يتصورونه، ويستبعدونه، وحصل ذلك ليس من الكفار بل من بعض المسلمين (وهم القدرية).

وهذا التقدير هو أولى من التقدير الآخر الذي قال به بعض المفسرين، ففسروا: نبرأها بـ(نخلقها)، وفسروا (في كتاب)، أي: في علم الله، وقالوا بأن الله يعلم المصيبة من قبل كونها، (من قبل خلقها). وهذا التفسير فيه كثير من التأويل، فالآية تثبت أن المصيبة (في كتاب)، ولم تقل: (في علم الله)، وعلى تفسيرهم يكون المعنى: ما من مصيبة إلا وهي [مخلوقة] في كتاب من قبل أن نخلقها، وفي هذا تناقض بين. أما على تقدير: إظهار الخلق، فإنه يسلم من هذا، فالمعنى: ما من مصيبة إلا وهي مخلوقة في كتاب من قبل أن نظهر خلقها، فإظهار الخلق هو الجديد بالنسبة للناس، أما بالنسبة لله فهي مخلوقة.

ومما يؤكد هذا المعنى قوله تعالى: (وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)، فهي مخلوقة، ولكنها غائبة لم تظهر بعد، ولم يقل: معدومة، فالغائب هو وصف لشيء موجود لا معدوم، وليس لشيء سيوجد، بل هو موجود. فبرؤها: إظهار خلقها.

وقد جاءت آيات عدة في القرآن الكريم تثبت هذا، ولا داعي لتأويلها بالعلم، فهذا إنما يحدث لمحدودية إدراك الإنسان، فهو لا يستطيع أن يتجاوز ثلاثية الزمان: الماضي، والحاضر، والمستقبل، ومن

ثم يقع في التأويل وفقا لذلك، أما الله سبحانه وتعالى فهو خالق الزمان، ويحيط به، فلا ماضي عنده ولا حاضر ولا مستقبل، سبحانه وتعالى، وقولهم: إن الله يعلم ما كان وما هو كائن وما سيكون، فإنما هذا التقسيم الزمني بالنسبة لإدراكنا نحن، وليس بالنسبة لله سبحانه وتعالى، الذي لا (كان) لديه، ولا (كائن حاضر)، ولا (سيكون)، بل كل شيء في كتاب مبين (كلُّ في كتابٍ مُبينٍ)، إن ذلك على الله يسير.

ومثل الآية قوله تعالى: (وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)، وقوله: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)، وقوله: (وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابَسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)، وقوله: (قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥١) قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى)، وقوله: (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)، وقوله: (وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ).

#### رابعاً: الباري:

ومن أسماء الله سبحانه وصفاته: الباري، وقد ذكرت في سورة الحشر مع الأسماء الحسنی، قال تعالى: (هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)،

والمتدبر يجد أنه ذكرت عقب (الخالق)، وعقبها (المصور)، وهذه مراحل ثلاث متعاقبة، فالخلق أولاً، والبرء ثانياً (إظهار الخلق)، والتصوير ثالثاً، كما قال تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ).

كما ذكرت في خطاب نبي الله موسى لقومه: (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)، وقد ناسب المجيء بـ(بارئ) في هذا السياق، فهو يقول لهم: إن الله هو الذي خلقكم وأظهركم إلى الوجود وأنتم تعصونه؛ فهو تبييت وتوبيخ لهم، حيث أسأؤوا إلى من أحسن إليهم بدءاً، ومن ثم كانت العقوبة (فاقتلوا أنفسكم) تناسب هذا المعنى، فكان القتل يخفيهم من الأرض بعد ظهورهم فيها، وبذلك يكون كفارة لهم عند ربهم، ولذلك قال (ذلك خير لكم عند بارئكم). والله أعلم.

(وانظر بحث: الظلمات والنور في القرآن الكريم، عند قوله: {لا يجليها لوقتها إلا هو} .



## المطلب الرابع: بثّ

البثّ: إظهار نسل الدواب من أصولها، وتفريقها

أولاً: الدلالة اللغوية والمصطلحية:

قال الجوهري في الصحاح: (بثّ الخبر: نشره، وأبثثك سري: أظهرته لك. والبثّ: الحال والحزن، يقال: أبثثك، أي أظهرت لك بثّي).

وفي مقاييس اللغة: (الباء والثاء أصل واحد، وهو تفريق الشيء وإظهاره؛ يقال: بثوا الخيل في الغارة. وبث الصياد كلابه على الصيد. والله تعالى خلق الخلق وبثهم في الأرض لمعاشهم. وإذا بسط المتاع بنواحي البيت والدار فهو مبثوث. وفي القرآن: {وزرابي مبثوثة}، أي: كثيرة متفرقة. قال ابن الأعرابي: تمر بثّ، أي: متفرق لم يجمعه كنز. وبثت الحديد، أي: نشرته. وأما البث من الحزن فمن ذلك أيضاً، لأنه شيء يشتكى ويبث ويظهر). وفي لسان العرب: (وانبثّ الجراد في الأرض: انتشر.. وقوله عز وجل: { فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا }؛ أي غباراً منتشراً... والبثُّ في الأصل شدّة الحُزْن، والمرضُ الشديدُ، كأنه مِنْ شدّته يُبثُّه صاحبه).

وفي معجم اللغة العربية المعاصرة، ذكر أيضاً المصطلح المعاصر لبث، وهو: (البثّ: إرسال إذاعي بواسطة الرّاديو والتّلفزيون). ويمكن القول أن البث: نشر الذبذبات وتفريقها لتصل إلى المتلقي.



وفي المفردات للراغب: (أصل البث: التصريق وإثارة الشيء كبث الريح التراب، وبث النفس ما انطوت عليه من الغمّ والسرّ، يقال: بَثَّتُهُ فَبَثَّ. وقوله عزّ وجل: {وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ}، إشارة إلى إيجاده تعالى ما لم يكن موجودا وإظهاره إياه. وقوله: {كَالْفُرَاشِ الْمَبْتُوثِ}، أي: المهيج بعد ركونه وخفائه).

وفي المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته: (منبث: منتشر متطاير في الهواء، كالذرة)، (بث، بمعنى: ١ - فرق ونشر، ٢ - خلق)، و(البث: الحزن العظيم).



وفي الكليات للكفوي: (البث: هو إظهار ما كان خفيا عن الحاسة، حديثاً كان أو همماً أو غيرهما؛ والإيجاد والخلق، ومنه: {وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ}، والفراش المبتوث: أي المهيج بعد سكونه، وَبَثَّ السُّلْطَانُ الْجُنْدَ: نشرهم).

وقال ابن عاشور: (والبث في الأصل نشر ما كان خفيا ومنه بث الشكوى وبث السراي أظهره. قالت الأعرابية «لقد أبثثتك مكتومي وأطعمتك مآدومي» وفي حديث أم زرع قالت السادسة «ولا يولج الكف ليعلم البث» أي لا يبحث عن سر زوجته لتفشوه له، فمثلت البحث بإدخال الكف لإخراج المخبوء، ثم استعمل البث مجازاً في انتشار الشيء بعد أن كان كامناً كما في هاته الآية واستعمل أيضا في مطلق الانتشار... وبث الدواب على وجه عطفه على فعل أنزل هو

خلق أنواع الدواب على الأرض فعبّر عنه بالبت لتصوير ذلك الخلق العجيب المتكاثراً فالمعنى وخلق فبث فيها من كل دابة).

وقال د. محمد جبل في المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم: (البت: نشر ما كان مجتمعاً منضماً وتفريقه).



مما سبق يتبين أن (البت) له أربعة عناصر دلالية، هي: إظهار الخفي، ونشر الكثير، وتفريق المجتمع، وتهييج الساكن. فالشيء المبتوث يكون قبل بثه متصفاً بأربع صفات: الخفاء، والكثرة، والاجتماع، والسكون.

ويمكن القول أن الدلالة العامة للبت هي: إظهار الأشياء الخفية الساكنة الكثيرة المجتمعة، وتهييجها، ونشرها، وتفريقها.

ودلالة (التهييج) يقتضي أن الشيء بعد بثه يكون متحركاً، لا ساكناً.





## ثانياً: استخدام اللفظ في القرآن الكريم:

(١) [بث] مسندة إلى الله تعالى:

جاء الفعل (بث، يبث) مسنداً إلى الله تعالى في خمسة مواضع،  
وأخذ ثلاثة تراكيب:

الأول: (بث في)، في قوله: (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ  
وَيَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ)، وقوله: (وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ  
فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ)، فهو يتحدث عن  
بث الدواب في الأرض. وقوله: (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا  
بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ)، أي: في السماوات والأرض.

الثاني: (بث)، في قوله: (وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ)؛ لأن  
الغرض بيان البث دون ارتباط بالمكان، فعطفه على المصدر، والتقدير:  
وفي خلقكم آيات، وفي بث الدواب آيات.

والثاني: (بث من)، في قوله (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا  
زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً)، فهو يبين أصل البث، أي بدأ  
بث الرجال والنساء منهما.

ووقع مفعول (بث) في أربعة مواضع (دابة)، وفي الموضع الخامس:  
(رجالاً ونساء).

(٢) [مبثوث]

جاء وصفاً في موضعين، قوله: (وَرَزَّابِي مَبْثُوثَةٌ)، وقوله: (يَوْمَ  
يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ).

(٣) البث، في قوله: (إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ).

(٤) منبث، جاءت وصفاً للجبال في قوله: (وَيُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا

(٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا).



ودلالاتها في هذه المواضع، تشتمل على العناصر الدلالية الأربعة:  
إظهار الخفي، وتهيج الساكن، ونشر الكثير، وتفريق المجتمع.

فقوله: (وَزَرَابِي مَبْثُوثَةٌ): أي أصبحت ظاهرة بعد خفائها، مفرقة  
بعد اجتماعها، منتشرة بكثرة. وهو يرسم مشهد النعمة في قصور أهل  
الجنة، السرر المرفوعة، والأكواب الموضوعة، والوسائد المصفوفة  
المتقاربة، أما الزرابي فهي مبثوثة. والزرابي هي البسط التي تفرش في  
الأرض.

وقوله: (كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ)، أي: المنتشر الكثير المتفرق المتهيج.  
والآية تصف خروج الناس من أجداتهم، فهناك مليارات هائلة من  
البشر تخرج في وقت واحد، (كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ)، أي: عدد كثير  
يملاً أرض المحشر، وقد تفرقوا أول خروجهم في أرض المحشر، وانبتوا  
دون نظام، وظهروا من أجداتهم بعد أن كانوا غيباً فيها، وتهيجوا  
بعد سكونهم. انظر: ألفاظ الإحياء والإماتة في القرآن.

وقوله: (فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا)، فالجبال كانت مجتمعة ساكنة.  
وحين يأذن الله سبحانه وتعالى فيدكها، تصير هباء منبثاً، أي غباراً  
متطايراً متفرقاً منتشراً. فانبثاتها يكون تهيج لسكون ذراتها  
وحصياتها، وتفريق لذراتها المجتمعة، ونشر لها بكثرة، حتى تصبح

غبارا يتطاير. وهو تصوير بديع للمشهد الذي تصبح عليه هذه  
الجبال الساكنة الوقورة المجتمعة التي ترسي الأرض، فإذا بها غبارا  
يتطاير في الهواء، وتصير أثراً بعد عين. وحين يأذن الله تتزلزل  
وتضطرب وترجف، فرجفة الجبال بداية تهيج سكونها، ثم تتعاقب  
المراحل، حتى تصبح هباء منبثا.



## ثالثاً: (بث) المسندة إلى الله تعالى

بتدبر الآيات التي جاء فيها لفظ (بث) مسنداً إلى الله، يتبين ما

يلي:

١. مجيء مفعولها (دابة) أربع مرات، و(رجالا ونساء) مرة واحدة.
٢. يبين فعل (البث)، متعلقين، الأول: الظرفية (في)، والثاني: بيان الأصل (من) (٤).
٣. اقترن فعل (البث) في كل المواطن بالخلق، سواء خلق السماوات والأرض، أو خلق الإنسان.

وعليه فيمكن الوصول إلى الحقائق التالية:

### الأولى:

(بث) تقع على (الدواب) وليس على عامة المخلوقات.

والدواب في القرآن الكريم، هي التي تدب على الأرض (أي تمشي

---

(٤) ويمكن إضافة السببية، ففي قوله تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ). قوله (وبث) قال الزمخشري،

وتبعه بعض المفسرين، فيه احتمالان،

الأول: أن يكون معطوفاً على (أنزل)، والتقدير: إن في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار وجريان الفلك، وإنزال الماء من السماء، وبث الدواب، وتصريف الرياح، وتسخير السحاب، آيات لقوم يعقلون.

والثاني: عطفه على (أحيا)، والتقدير: وإنزال الله من السماء ماء؛ فأحيا بالماء الأرض بعد موتها، وبث بالماء في الأرض من كل دابة.

على الأرض)، فالطيور والأسماك ليست دواب، قال تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ)، وقال: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ)، فعطف الطير على الدواب. وفي الآية الأولى قيد الدواب بأنها التي تمشي على الأرض، والأسماك لا تمشي.

والإنسان من (الدواب)، كما قال تعالى: (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا)، وأما قوله: (وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ)، فهذا من عطف الخاص على العام، فالناس والأنعام من الدواب، وخصوصاً بالذكر لأن الله يمتن عليهم ويبين لهم قدرته أيضاً في خلقهم وتلوينهم وتلوين ما يتصل بهم من دواب وهي الأنعام، وكذلك عامة الدواب.

### الثانية:

(بث) تختص بوقوعها على المفعول المتحرك، وهو الدواب، بخلاف (ذراً) التي تقع على الدواب وغيرها كالحرث (ذراً مِنَ الْحَرْتِ وَالْأَنْعَامِ)، وقد ذكرت أن (ذراً) تعني: خلق كثير منتشر متفرق من الشيء الواحد. أما (بث) فلا يقع على الخلق كله، ولا يقع على النبات أو الحرث، ولكنه يختص بالوقوع على (الدواب التي تمشي).

### الثالثة:

ارتباط (فعل البث) بـ(فعل الخلق)، فالبث غير الخلق، (خلافاً لما قال بعضهم)، وهو عملية لاحقة للخلق.

#### الرابعة:

بث الدواب من أصل واحد، كما قال: (وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً)، فالأشياء المبتوثة كانت مجتمعة في ذلك الأصل، منضمة فيه، والله يخرجها منه، وينشرها ويفرقها.

وفي هذا دليل على أن النسل كله مخلوق في الأصل، ثم يبث الله من ذلك الأصل نسله. فكما كان الناس جميعا في صلب أبيهم الأول، وكانوا في عالم الذر، فكذلك كل دواب الأرض، كانت في صلب أصولها الأولى، ثم بثها الله منها.

كما فيه دليل على أن البث لا يقع على المخلوق الأول من الشيء، ولا على آحاد الشيء، ولكن على نسل الشيء.



وعليه فيمكن تعريف (بث) المسندة إلى الله بما يلي:

(إظهار نسل الدواب من أصولها، وتفريقها)

فهذا التعريف يشتمل على العناصر الدلالية لـ(بث)، إضافة إلى موجهاً الاستخدام للفظ في القرآن الكريم.

فهو (إظهار)، والإظهار يكون للشيء الذي كان مخفياً.

ولفظ (الدواب) يبين أن الشيء المبتوث متحرك، فلا يقع البث على مخلوقات أخرى. ولذلك لم يقع فعل البث في القرآن الكريم إلا على (الدواب)، وهو مقتضى دلالة (البث)، فالمبتوث لا بد أن يكون متحركاً.

ولفظ (نسل) يبين أن البث لا يكون للأصل، فالأصل ليس كثيرا  
ولا متجمعا، أما النسل فهو كثير متجمع فيه، فبثه يعني: نشر  
الكثير، وتفريق المتجمع.



# المبحث السادس: (أنبت)، و(حفّ)، و(زرع) في القرآن الكريم

أدرس في هذا المبحث الألفاظ التالية: أنبت، وزرع، وحرث، وحفّ.

## المطلب الأول: الدلالة اللغوية والمصطلحية لـ(أنبت)

### أولاً: الدلالة اللغوية:

قال ابن فارس: (النون والباء والتاء أصل واحد يدل على نماء في مزروع، ثم يستعار. فالنبت معروف، يقال نَبَتَ. وأنبتت الأرض. ونبتُ الشجرَ: غرسته. ويقال: إن [في] بني فلان لنابطة شر. ونبتت لبني فلان نابطة، إذا نشأ لهم نَشْءٌ صغار من الولد).

وقال الراغب في المفردات: (النَّبْتُ والنَّبَاتُ: ما يخرج من الأرض من النَّامِيَاتِ، سواء كان له ساق كالشجر، أو لم يكن له ساق كالنَّجْمِ، لكن اِخْتَصَّ في التَّعَارُفِ بما لا ساقَ له، بل قد اِخْتَصَّ عند العامَّة بما يأكله الحيوان، وعلى هذا قوله تعالى: {لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا}. ومتى اعتبرت الحقائق فإنه يستعمل في كلِّ نام، نباتا كان، أو حيوانا، أو إنسانا، والإنباتُ يستعمل في كلِّ ذلك).

### ثانياً: الدلالة المصطلحية عند المتقدمين:

قال العسكري في الفروق، مفرقا بين الحي والنامي:

(الْحَيَاةُ هِيَ مَا تَصِيرُ بِهِ الْجُمْلَةُ كَالشَّيْءِ الْوَاحِدِ فِي جَوَازِ تَعْلُقِ



الصِّفَاتِ بِهَا، فَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى { فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا } فَمَعْنَاهُ: أَنَا جَعَلْنَا حَالَهَا كَحَالِ الْحَيِّ فِي الْإِنْتِفَاعِ بِهَا. وَقَدْ دَلَّ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْحَيَّ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ حَيًّا حَيٌّ مِنْ أَجْلِ الْحَيَاةِ فَالَّذِي لَمْ يَزَلْ حَيًّا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ حَيًّا لِنَفْسِهِ.

والنماء يزيد الشيء حَالًا بعد حَالٍ مِنْ نَفْسِهِ لَأِ بِإِضَافَةِ إِلَيْهِ، فَالنبات ينمي ويزيد وليس بحي، وَلَا يُقَالُ لِمَنْ أَصَابَ مِيرَاثًا أَوْ أُعْطِيَ عَطِيَّةً أَنَّهُ قَدْ نَمَى مَالَهُ، وَإِنَّمَا يُقَالُ: نَمَى مَالُهُ إِذَا زَادَ فِي نَفْسِهِ، وَالنماء فِي الْمَاشِيَةِ حَقِيقَةٌ لِأَنَّهَا تَزِيدُ بِتَوَالِدِهَا قَلِيلًا قَلِيلًا، وَفِي الْوَرَقِ وَالذَّهَبِ مَجَازٌ. وَهَذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ الزِّيَادَةِ وَالنَّمَاءِ، وَيُقَالُ لِلْأَشْجَارِ وَالنباتِ: نَوَامٌ؛ لِأَنَّهَا تَزِيدُ فِي كُلِّ يَوْمٍ إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى حَدِّ التَّمَامِ). أ. هـ.

وقال الكفوي فِي الكليات: (والإنبات: عمل طبيعة الأرض فِي تربية البذور ومادة النَّبَاتِ بتسخير الله إِيَّاهَا وتدبيره، وَذَلِكَ أَمْرٌ آخِرٌ وَرَاءَ إِيجَادِهِ وَإِيجَادِ أَسْبَابِهِ).

وقال التهانوي فِي كشاف اصطلاحات الفنون: (اختلفوا فِي النبات: فقيل هو حي؛ لِأَنَّ الْحَيَاةَ صِفَةٌ هِيَ مَبْدَأُ التَّغْذِيَةِ وَالتَّنْمِيَةِ. وَقِيلَ لَيْسَ بِحَيٍّ؛ إِذِ الْحَيَاةُ صِفَةٌ هِيَ مَبْدَأُ الْحَسِّ وَالحركة. وَمِنْهُمْ مَنْ ادَّعَى تَحَقُّقَ الْحَسِّ وَالحركة فِيهِ مَسْتَنَدًا بِالْأَمَارَاتِ الظَّنِّيَةِ. وَمِنْهُمْ مَنْ بَالِغٌ فِي اتِّصَافِهِ بِإِدْرَاكِ الكليات).

### ثالثاً: النبات عند المعاصرين:

والمعاصرون على أَنَّ النبات كائن حي، قال: أ. د. يوسف فايد فِي

كتابه (جغرافية المناخ والنبات): (والنبات كائن حي يولد ويعيش ويموت، شأنه في ذلك شأن الحيوان والإنسان وهو مثل الحيوان والإنسان أيضاً محتاج دائماً للغذاء لكي يقيم به بنيانه، بل هو يتخير غذاءه، فإذا كان بعض الحيوان يأكل العشب وبعضه الآخر يأكل اللحم، وإذا كان الإنسان لا يأكل كل شيء بل يختار لنفسه من الأطعمة ما يريد، فكذلك النبات يحب هذا النوع من الغذاء ويكره ذاك. وإذا كان في الحيوان والإنسان ما يألف الحر وما يألف البرد فكذلك النبات. وإذا كانت حياة الحيوان والإنسان مستحيلة بغير هواء فكذلك النبات).

ويعد علماء الأحياء النباتات قسماً من أقسام الكائنات الحية، جاء في الموسوعة العربية العالمية:

(ممالك الكائنات الحية: ١-النباتات، ٢ -الحيوانات، ٣ - الفطريات، ٤ - الطلائعيات (الضرطيسيات)، ٥ -بدائيات النواة (المونيرا). ويضم العلماء الكائنات الحية في مملكة محددة لأنها تشترك في خصائص أساسية معينة، ومن هذه الخصائص التركيب الطبيعي، ووسائل الحصول على الغذاء، وطرق التكاثر<sup>(٥)</sup>.

---

<sup>(٥)</sup> وجاء في الموسوعة العربية العالمية الفرق بين النباتات والكائنات الحية الأخرى: تتصف النباتات بمجموعة من الخصائص تميزها عن الكائنات الحية الأخرى. فعلى سبيل المثال: كلُّ من النباتات والحيوانات كائنات حيّة معقدة، تتركب من خلايا متعددة الأنواع. ومع ذلك فخلايا النبات ذات جذر سميكة تتركب من مادة تسمى السليلوز، بينما تتفقر خلايا الحيوان إلى هذه المادة. وكما هو الحال في النباتات فإن خلايا أوليات النواة، وبعض الطلائعيات تحتوي على



جدر سليلوزية وإن كانت أوليات النواة والطلائعيات كائنات حية بسيطة، تتركب من خلية واحدة، أو من بضعة أنواع من الخلايا. وتُعدُّ البكتيريا، والطحالب الخضراء المائلة إلى الزرقة من بدائيات النواة، بينما تشمل الطلائعيات على بقية الطحالب، والدياتومات، والأوليات.

تنمو جميع النباتات من شكل صغير جداً للنبات يعرف بالجنين بينما لا تنمو أوليات النواة، والطلائعيات، والفطريات مثل الأعفان وعيش الغراب من الأجنة. تحصل النباتات على غذائها بطرق تختلف عن تلك التي تستخدمها معظم الكائنات الحية الأخرى. وتمكث جميع النباتات تقريباً في مكان واحد طوال حياتها، وتحصل على غذائها من الهواء، وضوء الشمس، والماء بوساطة عملية تسمى التركيب الضوئي. وبعض النباتات مثل الهالوك والحامول ليست خضراء اللون، ولا تنتج غذاءها بوساطة التركيب الضوئي، بل تعيش متطفلة وتحصل على غذائها من نباتات أخرى. وبعض النباتات الأخرى مثل نبات الغليون الهندي والأركيد ذي الجذر المرجاني رمية وتتغذى بنبات ميت، أو مادة حيوانية. ولا تستطيع الفطريات إنتاج غذائها، وتحصل على ما تحتاجه من مواد غذائية من الحيوانات، والنباتات والمواد المتحللة التي تعيش عليها. كذلك لا تستطيع الحيوانات إنتاج غذائها، لكن تستطيع غالبية الحيوانات الحركة بحثاً عنه.

## المطلب الثاني: استخدام القرآن الكريم لـ(نبت)

### ومشتقاتها

أولاً: استخدام القرآن للفظ النبات:

جاءت مادة (ن ب ت) في القرآن الكريم على النحو التالي:

١. الفعل الثلاثي، وجاء لازماً: نبتَ الشجرُ، وورد في آية واحدة، وهي قوله: (وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذُّهْنِ)<sup>(١)</sup>.

٢. الفعل الرباعي (أنبت)، ويكون متعدياً: أنبت الشجرَ. وقد جاء الفاعل على النحو التالي:

a. الله سبحانه وتعالى: في تسعة مواضع، والمفعول هو نبات الأرض، كقوله: (وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)، والموضع العاشر وقع المفعول الإنسان: (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا)، والموضع الحادي عشر قوله: (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقُبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا).

b. الأرض، في قوله: (فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا)، وقوله: (وَوَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَاذًا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ

<sup>(١)</sup> قال الراغب: وقوله: {تَنْبُتُ بِالذُّهْنِ}، الباء للحال لا للتعدية، لأن «نبت» متعدٍ تقديره: تَنْبُتُ حَامِلَةً لِلذُّهْنِ. أي: تثبت والذهن موجود فيها بالقوة.

بِهَيْجٍ)، وقوله: (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ).

c. الحبة: في قوله: (كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ).

d. الإنسان على وجه النفي: في قوله: (مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا).

٣. الاسم (نبات)، وأسند إلى الله تعالى، وقد جاء مفعولاً لفاعل (أخرج)، في ثلاثة مواضع: قوله: (فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ)، وقوله: (فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَى)، وقوله: (لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا).

٤. (نبات)، وجاء فاعلاً للفاعل:

a. يخرج، في قوله: (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ).

b. اختلط، في قوله: (كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ)، مرتين في سورتي: يونس، والكهف.

c. أعجب: في قوله: (كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ).

٥. (نبات) وجاء مصدراً، للفاعل (أنبت) المسند إلى الله، في موضعين، وكلاهما لم يقصد بهما نبات الأرض، بل الإنسان. قوله: (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا)، وقوله: (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا). وقيل

إنه في هاتين الآيتين جاء حالاً<sup>(٧)</sup>.



ثانياً: سياق (الإنبات) المسند إلى الله:

(١) إنبات نبات الأرض:

بالنظر في آيات الإنبات المسند إلى الله سبحانه وتعالى، وأقصد به إنبات الأرض، وهي تسعة مواضع، نجدتها صنفين:

الصنف الأول: (أُنبت في)

وفي هذه الآيات بيان امتنان الله على الإنسان بأنه جعل له الأرض معاشاً، فألقى فيها الرواسي، وفجر الأنهار، وسلك السبل، وأُنبت النبات... إلخ. فمن تمهيد الله للأرض أن أُنبت فيها نباتا للإنسان وأنعامه.

وقد جاء في خمسة مواضع، وكلها يكون التركيب: (أُنبت في)، كقوله: (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ)، فالآية تبين نعم الله على الإنسان في تمهيد الأرض له، فيذكر

---

<sup>(٧)</sup> قال الراغب في المفردات:

وقوله: {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا} ، قال التَّحْوِيَّونَ: قوله: «نباتا» موضوع موضع الإنبات، وهو مصدر. وقال غيرهم: قوله: «نباتا» حال لا مصدر، ونَبَّهَ بذلك أن الإنسان هو من وجه نبات؛ من حيث إنَّ بدأه ونشأه من التراب، وإنه ينمو نموّه، وإن كان له وصف زائد على النَّبَاتِ، وعلى هذا نَبَّهَ بقوله: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ} ، وعلى ذلك قوله: {وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا} .

مجموعة من النعم، ومن ضمنها: الإنبات في الأرض.

### الصف الثاني: (أنت ب)

وآيات هذا الصف، يمتن الله سبحانه وتعالى على الإنسان بأنه أنزل له الماء من السماء، فأنت بذلك الماء نباتات الأرض. فالسياق سياق الامتنان بنعمة الماء، وبهذه النعمة أنت الله النبات.

وجاء في ثلاثة مواضع، كقوله: (وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ)، فهو يبين أنه بالماء أنت النبات، وبالماء أحيا الأرض الميتة، وكذلك يكون الخروج.

وأما قوله: (وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ)، فالآية جاء في سياق قصصي، حيث يبين الله سبحانه وتعالى نعمته على عبده يونس عليه السلام، بعد خروجه من بطن الحوت، فأنت عليه يقطينة. ولم تأت الآية في مقام الامتنان على الناس، كالأيات السابقة. بل جاءت لبيان قدرته سبحانه وتعالى على كل شيء.

### (٢) إنبات الإنسان:

جاء في قوله: (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا). وسأتحدث عنها.

وجاء في قوله: (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا)، أي: أنشأها تنشئة حسنة. فالإنبات في الآية بمعنى الإنشاء، أي تنشئة الشيء شيئاً فشيئاً، فهو نمو متدرج، وهو المعنى

العام للإنبات، فالله سبحانه وتعالى هو الذي ينمي الأشياء وينبتها،  
ويرعاها، فتكبر شيئاً فشيئاً، وتنمو، حتى يكتمل نموها، فتصبح تامّة،  
بإذنه سبحانه وتعالى.





## المطلب الثالث: مفهوم (الإنبات) المسند إلى الله

أولاً: المفهوم العام لـ(الإنبات) المسند إلى الله تعالى:

ذكرت سابقاً الفرق بين مفهومي: الإنشاء والإنبات، وقلت:

الإنشاء هو إنبات الشيء شيئاً فشيئاً، والإنشاء والإنبات كلاهما يتعلقان بخلق أول الشيء، حيث يبدأ بالظهور، ثم يختلفان في كون الإنشاء يتعلق بخلق أول الشيء مطلقاً، وتنميته شيئاً فشيئاً، أما الإنبات فهو خلق أول الشيء من الأرض، ولأن الإنسان خلق من الأرض فإنه نبات من أنبتتها، بدأ ظهوره منها.

وإذا تبين لنا أن للماء دوراً أساسياً في الإنبات، كما بينت آنفاً، فالباء سببية، فاقتضت حكمة الله أن جعل الماء سبباً أصلياً في إطلاع النبات وإخراجه من الأرض.

فإنبات الله للشيء: خلق الشيء من الأرض، بالماء، وتنميته شيئاً فشيئاً.

وقد بينت سابقاً، وبينت أيضاً في بحث: أفعال الإحياء والإماتة أن آيات القرآن الكريم تبين لنا كيف يخرج الناس يوم القيامة من الأرض، وأنهم جميعاً سيخرجون كما خرج أصلهم الأول (آدم)، وتبين الآيات بلفظ (كذلك الخروج)، أن خروج الناس سيكون كما تخرج النباتات من الأرض بعد نزول الماء عليها، فكذلك الخروج.

وبينت في المبحث الأول من هذا البحث، عند قوله تعالى: (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ)، أن إعادة الخلق للبشر ستكون مثل بدء أول

خلق، وهو خلق الأصل، لا النسل، وهذا يبين قوله تعالى: (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا)، فالآية تتحدث عن كيفية خروج أصل البشر؛ حيث أنزل الله الماء، فأخرج به البشر من تراب الأرض، كما يخرج بالماء النبات، فكان طينا، ثم مر بالمراحل المتعاقبة، وهو كحالة النبات الخارج من الأرض، حتى سواه الله ونفخ فيه من روحه، فباين النبات، وأصبح إنسانا. فهذا هو الأصل، أما النسل فقد جاء من الماء المهين، فيكون في بطن أمه حتى يخرج طفلا. فالتراب مادة الأصل، والنطفة مادة النسل.

وقد قررت سائر آيات (النشر) و(الخروج) الكيفية التي يخرج بها الناس جميعا، وهي مثل الكيفية التي بدأ بها (أول خلق)، أي: خلق الأصل (من الأرض)، وليست كالكيفية التي بدأ بها النسل (من ماء).



## ثانياً: الفرق بين أنبت به، وأنبت فيها:

(١) (أنبت في):

الآيات التي جاء فيها لفظ (أنبت في) خمس آيات، وهي جاءت في سياق الامتنان على الإنسان بأن الله مهد له الأرض، كما ذكرت آنفاً. وهذه الآيات تتحدث عن الإنبات الأول في الأرض، أي أن الله مهد الأرض للإنسان، ومن تمهيده أن ألقى فيها الرواسي، وفجر الأنهار، وأنبت أصول النباتات الأولى. أي البذور الأولى لكل نبات (أزواجاً من نبات شتى)، التي نسلت منها النباتات بعد ذلك.

تأمل سياق هذه الآيات:

{ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ } (سورة الحجر ١٩ - ٢١)

{ أَوْلَمَ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ } (سورة الشعراء ٧ - ٨)

{ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) } (سورة ق ٧ - ٨)

{ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بَغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوِنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } (سورة لقمان ١٠ - ١١)

{ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَبْنًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ } (سورة

فسياقها كلها يبين أن الحديث عن الإنبات الأول، وقد اقترن في بعضها بالماء، كما في آية لقمان، فهو الماء الذي أنبت الله أصل النبات الأول. وتأمل قوله: (وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ)، فهو الوزن والتقدير الأول إذ جعل الله لكل شيء قدرا.

وجاء في ثلاث آيات (أنبتنا فيها من كل زوج كريم)، ومرة (بهيج)، فهنا لأنه يتحدث عن نبات الأصل، فقد تحدث عن سنة الزوجية في النبات، فالله أنبت البذور الأولى، وجعل فيها سنة الزوجية، لتستمر بعد ذلك في النسل. وهذا كقوله: (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ)، وقال: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ). فهذا هو الخلق الأول لكل شيء، خلقه وجعل فيه عوامل استمراره ونموه، وقدر فيه سنن نسله.

وكقوله تعالى: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى). فالآيات تتحدث عن الإنبات الأول الذي أخرج الله به أزواجا من نبات شتى، وهو أصل النباتات، ولذلك قال بعد ذلك: منها خلقناكم... أي كما أخرجنا أصول النباتات من الأرض، فكذلك خلقناكم منها، وفيها نعيدكم، ثم نخرجكم تارة أخرى.

وفي آيات سورة عبس، يدعو الله الإنسان إلى النظر في طعامه، فكيف نبت لأول مرة، كيف مهد الله الأرض فشققها، وجعلها صالحة لإخراج النبات، فيكون طعاما للإنسان، وكيف جعل الماء سببا في نشأة أصل النبات. فهو يتحدث عن الحب الأول، وعن العنب الأول، والقضب الأول، والزيتون الأول، وعامة أشجار الحدائق والنباتات.



## (٢) (أُنبت ب):

أما الآيات التي جاءت بلفظ (أُنبت ب)، فتدل على نبات النسل، بخلاف (أُنبت في) فهي تدل على نبات الأصل.

وقد اقتضت حكمة الله أن يكون نبات نسل النبات كنبات أصله، فكله نبت من الأرض نباتاً مباشراً، بخلاف الإنسان فقد أُنبت الله أصله من الأرض، أما نسله فجعل خلقه وفقاً لسنة الزوجية، وهي من الماء المهين، وكذلك الأنعام والحيوانات.

وكون النبات كذلك عبرة وعظة دائمة أمام الإنسان، ليتذكر أصل نشأته ومصيره، ونشأته مرة أخرى، حيث سيعيد الله خلقه كما خلق أصله، فينبت من الأرض مباشرة.

ف(أُنبت ب) كما في الآيات تتحدث عن الإنبت الذي يراه الإنسان

باستمرار، تأمل سياق الآيات:

{ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ  
(١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ  
فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } (سورة النحل ١٠ - ١١)

{ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ  
ذَاتِ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ }  
(سورة النمل ٦٠)

{ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ  
(٦) وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ  
(٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا  
فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠)  
رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ } (سورة ق ٦ - ١١)

فعلى سبيل المثال آيات سورة ق، نجد أنه ذكر في الآية السابعة  
(وأنبتنا فيها)، ثم في الآية التاسعة ذكر (فأنبتنا به)، فليس هنا  
تكرار كما يتوهم بعضهم، بل الأولى يراد بها نبات الأصل، وهي البذور  
الأولى لكل شيء التي أنبتها الله في الأرض. أما الثانية فهي الآية التي  
يراها الإنسان بنفسه، وهي إنبات النباتات (نباتات النسل).



**ثالثاً: الفرق بين أنبت، وأخرج نبات...:**

أما قوله: (فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ)، وقوله: (فَأَخْرَجْنَا بِهِ  
أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى)، وقوله: (لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا).

فهو يشير إلى أنه سبحانه وتعالى مهّد الأرض، لتكون صالحة  
لحمل النبات في بطنها، ونموه، ثم خروجه منها. فالأرض تحمل  
النبات، كما تحمل الأنثى الجنين في بطنها، ثم ينمو ويكبر الجنين  
كما تنمو وتكبر البذرة، ثم تضع الأنثى، أما الأرض فلا تضع، ولكنها  
تخرج نباتها بإذن ربها، فجاء التعبير بلفظ (إخراج النبات).

فالإنبات يقصد به: خلق الشيء من الأرض، بالماء، وتنميته شيئاً  
فشيئاً. أما إخراج النبات، فهو الإظهار التام للنبات بعد خفائه في  
الأرض.

فالإنبات فعل يقع على خلق الشيء في الظلمة، أما الإخراج  
ففعل يقع على إخراج الشيء من الظلمة، بعد جاهزيته للخروج إلى  
النور.



## المطلب الرابع: (زرع) و(حرث) في القرآن الكريم

### أولاً: الدلالة اللغوية:

قال ابن فارس: (الزاء والراء والعين أصل يدل على تنمية الشيء. وقال الخليل: أصل الزرع التنمية. وقيل: الزرع طرح البذر في الأرض. والزرع اسم لما نبت). فهو يبين أن للفظ معنيين، الأول: طرح البذر في الأرض، والثاني: اسم للنبات نفسه.

وقال الجوهري في الصحاح: (الزرع: واحد الزروع، والزرع: طرح البذر في الأرض، والزرع: الإنبات، يقال: زرعه الله أي أنبته).

وقال الراغب في المفردات: (الزَّرْعُ: الإنبات، وحقيقة ذلك تكون بالأمور الإلهية دون البشرية. قال: {أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ}، فنسب الحرث إليهم، ونفى عنهم الزَّرْعَ ونسبه إلى نفسه، وإذا نسب إلى العبد فلكونه فاعلاً للأسباب التي هي سبب الزرع، كما تقول: أنبت كذا: إذا كنت من أسباب نباته، والزَّرْعُ في الأصل مصدر، وعبر به عن المَزْرُوع).

وقد فرق بعضهم بين الحرث والزرع، بأن الحرث فعل البشر، والزرع فعل الله، كما في قول الراغب الأنف ذكره. وقال الحرالي: (وَيُهْلِكُ الْحَرْثَ)؛ سماه حرثاً لأنه الذي نسبه إلى الخلق، ولم يسمه زرعاً، لأن ذلك منسوب إلى الحق). وقال أيضاً عند قوله: {وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَأَ يُجِبُّ الْفُسَادَ}؛ (كان فعلهم فيها من نحو فعلهم في وضع الضد السيء موضع ضده الأكمل، والتقصير بما شأنه التكملة، فكان



إفسادا لذلك).

أما لفظ (الحرث)، فقال ابن عاشور: (والحرث مصدر حرث الأرض، إذا شقها بألة تشق التراب ليزرع في شقوقه زريعة أو تغرس أشجار. وإطلاق الحرث على المحروث وأنواعه إطلاق متعدد فيطلق على الأرض المجهولة للزرع أو الغرس، كما قال تعالى: { وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرٌ }، أي أرض زرع محجورة على الناس أن يزرعوها. وقال: { وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ } أي الجنات والحوائط والحقول، وقال: { أَصَابَتْ حَرَّتَ قَوْمٍ }، أي: زرعهم).



## ثانياً: استخدام (زرع) و(حرث) في القرآن الكريم

جاء (زرع) ومشتقاتها في القرآن الكريم على النحو التالي:

١. الفعل، جاء في موضعين، وكلاهما مسند إلى الناس، قوله: (تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ)، وقوله: (أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ).
  ٢. المشتق اسم الفاعل، موصوفاً به الله سبحانه وتعالى: (أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ).
  ٣. الاسم، وجاء مفرداً في ثمانية مواضع، قوله: (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ)، وقوله: (وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتجاوِرَاتٍ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَّرْعٍ وَنَخِيلٍ)، وقوله: (بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ)، وقوله: (يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ)، وقوله: (وَحَفْظًا لَهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا)، وقوله: (فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ)، وقوله: (ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ)، وقوله: (كَزَّرْعٍ أَخْرَجَ شَطَاَهُ).
- وجمعاً في موضعين: (أَتَتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ)، وقوله: (كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ).

أما (حرث)، فقد جاء فعلا مرة واحدة مسندا إلى البشر، في قوله:  
(أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ).

وجاء ثلاث عشرة مرة اسما، بالمعاني التالية:

- ما يزرعه الإنسان في الأرض، في قوله: (وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ)،  
وقوله: (وَيُهْلِكِ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ)، وقوله: (وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ  
وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ)، وقوله: (أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ)، وقوله:  
(وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ)، وقوله: (وَقَالُوا  
هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا)، وقوله: (إِذْ يَحْكُمَانِ فِي  
الْحَرْثِ)، وقوله: (أَنْ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ).
- ما يزرعه الرجل في المرأة، في قوله: (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَثُوا  
حَرْثَكُمْ أَنْتَى شَيْئُكُمْ).
- ما يزرعه الإنسان من العمل في دنياه أو أخراه، في قوله: (مَنْ  
كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ  
حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ).



### ثالثاً: الفرق بين (حرت) و(زرع):

وبهذا يتبين الفرق بين: حرت، وزرع.

- (حرت) لم تسند إلا إلى البشر، أما (زرع) فأُسندت إليهم في سورة يوسف، وإلى الله سبحانه وتعالى. ونفي إسنادها إلى البشر أيضاً في سورة الواقعة، في حين أثبت لهم فعل الحرت فقط.
- (الحرت) يغلب إطلاقه على الحقول الخاصة لشخص أو لقوم، يزرعونها، ويملكونها. أما (الزرع)، فقد يكون ذلك وقد يكون غيره من المزروعات التي في الأرض، ولو لم تكن مملوكة.
- (الزرع)، في كثير من الآيات جاء قسيماً للنخيل والأعناب والزيتون والرمان، ووصف في آية بأنه (مختلفاً أكله)، وفي أخرى (تأكل منه أنعامهم وأنفسهم)، ووصف بأنه (أخرج شطأه).
- (الزرع) لم يطلق إلا على النبات، أما الحرت فأطلق على النبات، وعلى غيره، كحرت الرجل في المرأة، فسمى المرأة (حرتاً)، وكذلك على حرت العمل، فالإنسان يحرت في حقله، إما حرت الدنيا، وإما حرت الآخرة.

سأبين الفرق بين الحرت (المقصود به النبات)، و(الزرع).

الزرع: هو النبات الذي يأكله الإنسان أو الأنعام، وهو ينتمي إلى الفصيلة النجيلية التي تخرج الأشطاء، فهي نباتات شطئية،

كالحبوب. سواء حرثه الإنسان بنفسه، أم لم يحرثه.

وزراعة الإنسان، إنما هو لهذا النوع من النباتات، وما عدا ذلك فهو محمول عليه بطريق المجاز.

أما (الحرث)، فيطلق على ما يحرثه الإنسان في حقل من الحقول، سواء كان زرعاً، أم غيره من النباتات، كالنخيل والأعناب، والفواكه... إلخ.

فالحرث إذن هو ما يحرثه الإنسان من زرع وغيره. فسمي حرثاً بالنظر إلى فعل الإنسان. أما الزرع فهو ما ينبت في الأرض من نباتات (شطئية) يأكلها الإنسان أو الأنعام، سواء حرثها الإنسان أم لم يحرثها.

فبين الزرع والحراث عموم وخصوص وجهي، كما في الشكل التالي:



فالحبوب والأعلاف التي يحرقها الإنسان بنفسه، نطلق عليها زرعاً وحرثاً؛ فهي حرث لأن الإنسان حرثها، وهي زرع لأنه نباتات شطئية. أما النخيل والأعناب وغيرها مما يحرقه الإنسان فتسمى حرثاً لا زرعاً. والحبوب والأعلاف التي تنبت دون أن يحرقها الإنسان تسمى زرعاً لا حرثاً. وكلاهما يدخلان في دائرة أوسع، وهي: النبات، فالنبات يشمل الحرث والزرع، وغير ذلك من النباتات.



#### رابعاً: أفرءيتم ما تحرثون:

ومن ثم فقولته تعالى: (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ)، أي أرىيتم ما حرثتم، ثم نبت بإذن الله، أتظنون أنكم الذين زرعتموه؟! أنتم حرثتم فقط، أما الزارع فهو الله سبحانه وتعالى، فالزرع هو إنبات ما وضعه الإنسان في الأرض، فالإنسان يلقي البذرة، والله يزرعها حتى تخرج زرعاً بإذن الله. كما يضع الذكر نطفته في رحم الأنثى، فيخلقها الله سبحانه وتعالى: (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ). فحرث الإنسان في الأرض عملية تشبه إمناؤه في الرحم، هو يلقي البذرة (أو النطفة) التي لديه، في أرض مهيئة للإنبات. والله سبحانه وتعالى هو الذي يخلق، وهو الذي يزرع.

وعليه فلفظ (الزارعون)، معناها: إنبات البذر الذي يليه الإنسان في الأرض.

فقوله (تزرعونه)، الضمير يعود إلى الحرث، أي: أنتم زرعتهم ذلك الحرث، أم نحن الزارعون؟! أي: نحن الذين أنبتنا ما بذرتموه في الأرض.

وبهذا يتبين الفرق بين إسناد (الإنبات) إلى الله، وإسناد (الزرع) إليه، سبحانه وتعالى.

فإنه ينبت كل شيء، وهو الذي يزرع ما يحرثه الإنسان.



## خامساً: نساؤكم حرث لكم:

ذكرت أن (الحرث) فعل الإنسان، فهو ما يحرثه الإنسان، والحرث يعني أن الإنسان يشق شيئاً، فيدخل فيه بذراً، يكون البذر مهيناً للنمو والنبات، والخروج من الرحم التي ألقى فيها. فهذه العناصر مجتمعة تدل على الحرث.

فهذه العملية تطلق على ما يحرثه الإنسان في الأرض، كما بينته آنفاً. وعلى ما يحرثه الرجل في المرأة. فهو يلقي في رحمها نطفته، بعد أن تنشق له، ثم تنمو تلك النطفة بإذن ربها، حتى تخرج من ذلك المكان الذي ألقيت فيه، قال تعالى: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ)، كما أخرج النبات من الأرض (لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا).

والإنسان حين يلقي بذرته (أو نطفته)، فإنه ينتظر ثمرتها، فتحرج نباتاً أو طفلاً. فلو لم يضعها في مكان مهياً لإخراجها لما سمي ذلك حرثاً، كمن ألقى بذرة في البحر، فإن البحر لا يخرجها له نباتاً، فهذا ليس حرثاً. وكذلك من ألقى نطفته في غير موضعها (كالدبر، والعياذ بالله)، فهذا لا يسمى حرثاً، قال تعالى: (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَثُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ)، أي كيف شئتم، طالما كان في موضع الحرث.

وقوله في الآية (وقدموا لأنفسكم)، إشارة إلى حرث الآخرة، أي: كما تحرثون في نسايتكم، فاحرثوا في آخرتكم، وهذا ما تقدمونه لأنفسكم. وسأبين ذلك في الفقرة التالية.





## سادساً: حرث الدنيا وحرث الآخرة:

قال تعالى: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ).

خلاصة ما قررته أن الحرث هو "إلقاء الشيء بذرة، وجني ثمره".  
وبذلك فهو من فعل الإنسان، فالإنسان هو الحارث، ولا يصح وصف الله سبحانه وتعالى بهذا الوصف. فمفهوم الحرث يقتضي مجموعة من العناصر الدلالية:

أولها: شق شيء بألة مهيأة له (كالأرض، أو الرحم).

ثانيها: إلقاء بذرة (أو نطفة) (أو.. ) في ذلك الشيء المشقوق؛ ليكون رحماً لتلك البذرة.

ثالثها: صلاحية الشيء المشقوق لنمو البذرة (أو النطفة) الملقاة فيه، بحيث ينمو وينشأ خلقاً آخر.

رابعها: جني تلك البذرة بعد أن أصبحت خلقاً آخر، فالحبة تصبح شجرة، والنطفة تصبح طفلاً. فالإنسان يجني ما عمل.

خامسها: خروج تلك البذرة من رحم الظلمة التي كانت فيها، إلى النور، بإذن ربها.



ومن ثم فالقرآن الكريم استخدم فعل (الحرث) مسنداً إلى الإنسان، واقعا على ثلاثة مضاعيل، هي:

- ما يبذره في بطن الأرض، فيجنيه شجرة.

- ما يبذره الرجل في رحم الأنثى، فيجنيه طفلاً.
- ما يقدمه الإنسان لنفسه من سعي، فيجنيه جزاء.

وعلى ذلك فقوله تعالى: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ). ليس من باب المجاز، كما فسره المفسرون، ولكنه واقع على الحقيقة.

فما يعمله الإنسان، إنما هو حرث يحرثه. وقد جعل الله له حقلين للحرث، حقل الدنيا، وحقل الآخرة، فإن شاء حرث في حرث الدنيا، وإن شاء حرث في حقل الآخرة. فالعمل هو (البذرة) التي يلقياها في الحقل.

والقرآن الكريم يسمي هذا الإلقاء: تقديمًا، قال تعالى: (وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ)، وقال: (وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ)، وقال: (وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ)، وقال: (ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)، وقال: (وَلَتَنْتَظِرُنَّ نَفْسٌ مَّا قَدَّمْتُمْ لِعَدِيٍّ).

فالتقديم في كل ذلك، هو الحرث الذي يضعه الإنسان في حقله، كما يقدم الحارث بذرتة، ثم ينتظر محصولها، فكذلك الإنسان يقدم عمله في حقله، ثم ينتظر محصوله. ولن يجني إلا ما زرع، فالذي يبذر بذر العنب سيحصد العنب، والذي يبذر بذر الشوك سيجني الشوك. ومن بذر الخير حصد خيرا، ومن بذر الشر حصد الشر.

قال تعالى: (وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ)، فالسيئة هي الثمرة التي غرسوها، ولكنهم لا يعلمون، وهذا مثل في الدنيا، فالإنسان يجد سيئة أو حسنة ما قدم. فالحسنة أو السيئة هي الثمرة، وما قدمه هو البذرة.

وجاء في الصحيحين: (من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربها لصاحبه، كما يربي أحدكم فلوه، حتى تكون مثل الجبل).

فالصورة في الحديث حقيقة لا مجاز، فما عمله الإنسان (وهنا ضرب مثلاً للصدقة)، فهي البذرة التي يلقيها في الحرث، والله سبحانه وتعالى كما ينبت الزرع، وينشئ الجنين، هو الذي يربي الصدقة، حتى يأتي الإنسان يوم القيامة فيجد عمله مثل الجبل. فتلک البذرة الصغيرة التي لم يأبه لها أصبحت جبلاً عظيماً.

وجاء في الأثر: (إن الملية والصداع يولعان بالمؤمن، وإن ذنبه مثل جبل أحد؛ حتى لا يدعا عليه من ذنبه مثقال حبة من خردل). فقوله (وإن ذنبه مثل جبل أحد) تصوير حقيقي للنتيجة التي تصبح عليها البذرة. فهي تكبر حتى تصبح كالجبل.

وفي الحديث الصحيح: (إن الذي لا يؤدي زكاة ماله يمثل له يوم القيامة شجاع أقرع له زبيبتان قال: يلزمه، أو يطوقه قال: يقول له: أنا كنزك أنا كنزك).

وهذا يبين أن لكل بذرة مساراً، ثم تصبح في النهاية ثمرة معينة. فمثلاً: بذرة البرتقال ستنتج ثمرة البرتقال، وبذرة العنب تنتج ثمرة

العنب، وبذرة الشوك تنتج ثمرة الشوك، وبذرة الحنظل تنتج ثمرة الحنظل... إلخ.

وكذلك الأعمال، فبذرة الكفر لها ثمرة تنتجها، وبذرة الإيمان لها ثمرتها، وبذرة الصلاة لها ثمرتها، وبذرة ترك الصلاة لها ثمرتها، وبذرة منع الزكاة لها ثمرتها، وبذرة الظلم لها ثمرتها. وهكذا. ونحن لا نعرف طبيعة تلك الثمار، ولكن ورد الخبر ببعضها، ومن ذلك مثلاً ما جاء في الحديث السابق أن (منع الزكاة) وهذه بذرة، وثمرتها: شجاع أقرع يطوق عنق صاحبه.

وفي الحديث الآخر: (لا يأتي رجل موله فيسأله من فضل هو عنده فيمنعه إياه إلا دعي له يوم القيامة شجاع أقرع يتلمظ فضله الذي منع منه).



والمؤمن يرى بنور الله، فهو لا يرى البذرة الصغيرة التي يلقيها في الدنيا، ولكنه يرى الثمرة التي تصبح عليها تلك البذرة، بعكس الكافر الذي لا يرى الذنب إلا بذرة صغيرة، فلا يعابأ به. وهذا معنى الحديث: (إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال له: هكذا فطار).



## المطلب الخامس: (حَفَّ) في القرآن الكريم

### أولاً: الدلالة اللغوية:

قال الجوهري في الصحاح: (وحفوا حوله يحفون حفا، أي أطفأوا به واستداروا... وحفافا الشيء: جانباه).

وفي مقاييس اللغة، أن (الحاء والفاء ثلاثة أصول: الأول ضرب من الصوت، والثاني أن يطيف الشيء بالشيء، والثالث شدة في العيش. الأول الحفيف حفيف الشجر ونحوه. والثاني: قولهم حف القوم بفلان إذا أطفأوا به. ومن هذا الباب: هو على حفف أمر أي ناحية منه، وكل ناحية شيء فإنها تطيف به. والثالث: الحفوف والحفف، وهو شدة العيش ويبسه).

وفي لسان العرب: (حَفَّ القومُ بالشيءِ وحوالِيهِ يحفُّونَ حَفًّا وحفُّوه وحفَّفوه: أَحَدَقُوا به وَأَطَفُوا به وَعَكَفُوا واستَدَارُوا... وحفافا الجبل: جَانِبَاهُ. وحفافا كُلِّ شَيْءٍ: جَانِبَاهُ).

وفي المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته: (حَفَّ: أحاط وأحدق).

### ثانياً: استخدام القرآن الكريم للفظ

جاء في موضعين، الأول قوله تعالى: (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا)، والثاني قوله: (وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

## وحفظناهما بنخل:

أسند فعل (حفّ) إلى الله عزوجل، (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا)

قال الزمخشري: {وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ}: وجعلنا النخل محيطا بالجننتين، وهذا مما يؤثره الدهاقين في كرومهم: أن يجعلوها مؤزرة بالأشجار المثمرة. يقال: حفوه: إذا أطافوا به، وحففته بهم: أي جعلتهم حافين حوله، وهو متعدّ إلى مفعول واحد، فتزيده الباء مفعولا ثانيا، كقولك: غشيه، وغشيته به).

فعل (حفّ) يدل على ما ذكره العلماء: الإحاطة المستديرة، تقول: حفّ جنته بالنخل، أي: جعل النخل محيطة بها، بهيئة مستديرة، من جميع حوافها، وهي جوانبها. وقوله تعالى عن الملائكة: (وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ)، أي: محيطين به، من حوله، يسبحون بحمد ربهم.

وإسناد الفعل إلى الله عزوجل (وحفظناهما)، كإسناده في قوله: (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ)، فالإنسان يحرث الزرع، والله هو الذي يزرعه وينبته. فإسناده إلى الإنسان من حيث إنه فعل السبب (بذر البذرة في الأرض)، وإسناده إلى الله سبحانه وتعالى من حيث إنه الذي ينبت الزرع، ويخرجه نباتا من الأرض. فهو فائق الحب والنوى.

وكذلك (حفّ)، فالإنسان ينسق حديقته، ويحيطها بالنخيل

البهيح، حيث يضع البذور، والله سبحانه وتعالى هو الذي ينبت ذلك الحفاف المحيط بالحديقة، فنسبته إلى الله، باعتبار أنه الذي ينبت ويفلق، وهو الذي ينشئ ويتم الأمر بإذنه.

وقوله (وجعلنا بينهما زرعاً)، أي جعلنا بين جنتي الأعناب زرعاً، ومن ثم تبدو الصورة كما يلي:

جنتان من أعناب بينهما زرع، ويحف بالجنتين نخيل. وخلال الجنتين يجري نهر. فهو مشهد يصور النعمة التي يتقلب فيها صاحب الجنتين، وهو يغدو ويروح في نعمة الله عليه، فالله هو جعل له الجنتين، وهو الذي حفهما بالنخل، وهو الذي جعل بينهما الزرع، وهو الذي فجر خلالهما النهر. فكيف يكفر بربه الذي أنعم عليه؟!؟



## المبحث السابع: (فجر) و(فتق ورتق) في القرآن الكريم

سأتناول في هذا المبحث الألفاظ التالية: فجر. وفتق ورتق.





## المطلب الأول: فجّر

### أولاً: الدلالة اللغوية:

قال ابن فارس في مقاييس اللغة: (الفاء والجيم والراء أصل واحد، وهو التفتح في الشيء. من ذلك الفجر: انفجار الظلمة عن الصبح. ومنه: انفجر الماء انفجاراً: تفتح. والفجرة: موضع تفتح الماء. ثم كثر هذا حتى صار الانبعاث والفتح في المعاصي فجوراً. ولذلك سمي الكذب فجوراً. ثم كثر هذا حتى سمي كل مائل عن الحق فاجراً).

وقال الواحدي في التفسير البسيط: (انفجرت: انشقت، والانفجار: الانشقاق، وأصل الفجر في اللغة: الشق. وسمي فجر النهار لانصداعه، أو لشقه ظلمة الليل، ويقال انفجر الصبح، إذا سال ضوءه في سواد الليل، كانفجار الماء في النهر، ويقال: فَجَرَ وَأَفْجَرَ ينبوعاً من ماء، أي: شقه وأخرجه. وقال ابن الأعرابي: تَفَجَّرَ الرجل بعطائه، ورجل ذو فَجَرٍ، وأتيناها فأفجرناه، أي: وجدناه فاجراً، أي: معطياً. والفجور الذي هو المعصية من هذا، لأن الفاجر شقّ أمر الله أو شقّ العصا بخروجه إلى الفسق).

وقال الماوردي: (التفجير: تشقيق الأرض لينبع الماء منها ، ومنه سمي الفجر لأنه ينشق عن عمود الصبح ، ومنه سمي الفجور لأنه شق الحق بالخروج إلى الفساد). وقال: (وسمي الفجر؛ لانفجار الضوء منه).

وقال الراغب في المفردات: (الْفَجْرُ: شقّ الشيء شقاً واسعاً، يقال:

فَجَرَّتُهُ فَانْفَجَرَ وَفَجَّرْتُهُ فَتَفَجَّرَ... ومنه قيل للصَّبْحِ: فَجَّرٌ، لكونه فَجَرَ الليل... والفُجُورُ: شقٌّ ستر الديانة، يقال: فَجَرَ فُجُوراً فهو فَاجِرٌ. وقوله: {بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ}، أي: يريد الحياة ليتعاطى الفجور فيها).

وفي لسان العرب: (وفَجَرَ الْإِنْسَانُ يَفْجُرُ فَجْراً وَفُجُوراً: انْبَعَثَ فِي الْمَعَاصِي).

وقال الحَرَّالِيُّ: (الانفجار انبعث وحي من شيء موعى، أو كأنه موعى انشق وانفلق عنه وعاوّه، ومنه الفجر وانشقاق الليل عنه).

وفي المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم: (الفجر: انبثاق الماء المحتبس باندفاع وغزارة، فاتحا فرجة في محبسه... وكل ما في القرآن من التركيب إما من فجر العيون والينابيع أو تفجيرها، وإما من الفجور: شق حدود الشرع بارتكاب المعاصي، وإما الفجر: انبثاق ضوء الصبح من ظلام الليل).

وقال ابن عاشور: (والتفجير: إسالة الماء، يقال: تفجر الماء، إذا سال).

وفي أضواء البيان: (التفجير: إخراج الماء من الأرض بكثرة).

## ثانياً: التحقيق في دلالة (فجر) ومشتقاتها:

يتبين من تتبع لفظ (فجر) ومشتقاته، في القرآن الكريم، وكلام العرب، أن عملية (فَجْر) الشيء، عبارة عن شيء داخل وعاء، فيتشقق الوعاء، وينبعث الشيء الذي بداخله.

ومن ثم فلدينا ثلاثة عناصر: الشيء المنفجر، والشيء المنفجر منه، وطريقة التفجير.

الأول: (الشيء المنفجر)، وهو شيء محتبس منضغط بشدة، داخل وعاء. والأصل فيه أن يكون سائلاً، كالماء، وقد يكون غير سائل (كالهواء، أو غيره كالضوء)، فهو شيء قابل للتمدد والانتشار السريع، كما هو قابل للانكماش والانضغاط الشديد.

الثاني: (الشيء المنفجر منه)، وهو الوعاء الذي بداخله الشيء المنفجر. كالأرض التي يكون الماء محتبساً داخلها، أو غطاء قنبلة (تحتبس المواد القابلة للانفجار داخلها).

الثالث: طريقة التفجير، والتفجير له طريقتان، (الطريق الأول): تصديع الوعاء بتشقيقه تشقيقاً واسعاً متفرقاً وشديداً وسريعاً؛ مما يؤدي إلى اندفاع ما بداخله بشدة. و(الطريق الثاني) تمديد الشيء المنفجر نفسه، وتسليط قوة عليه بحيث يتمدد وينتشر بسرعة، فيضغط على الوعاء فيشققه.

فالخلاصة أن: (المنفجر) شيء منحبس منضغط داخل وعاء، وتفجيره إما بتشقيق وعائه تشقيقاً متفرقاً واسعاً سريعاً، وإما بدفعه من حبسه بطريقة ما. وانفجاره: اندفاعه من محبسه بقوة شديدة

وانتشار.

والأصل في استخدام اللفظ أن يقال للشيء السائل المنحبس،  
كالماء، ثم قيل لكل محتبس منضغط إذا اندفع من محبسه بقوة  
وانتشار: انفجر.

فالدلالة العامة لـ(انفجر)، هي: اندفاع الشيء المنحبس بقوة  
وانتشار، وتصدع وعائه.

وفجر الشيء، وتفجيره: دَفَع الشيء المنحبس بقوة وانتشار،  
وتصديع وعائه.

وسأبين تحقق هذه الدلالات في الألفاظ الواردة في القرآن الكريم،  
وهي: فَجَّرَ الأنهار والماء تفجيراً...، وفَجَّرَ الإنسانُ فجوراً.

وأما الفجر، فدلالته كذلك، فسمي الفجر؛ لأنه ضوء كان  
منحبساً في رَحْم الليل، وحين يأتي ذلك الوقت ينشق (وعاء) الليل،  
فيندفع الضوء اندفاعاً شديداً وسريعاً، وما هي إلا سويعة حتى يملأ  
الأرض.

فالفجر يطلق على أول النهار. وهو يقابل (غسق الليل)، فغسق  
الليل سيلاانه رويداً رويداً حتى يمحو أثر الشمس، وينتشر الليل.  
وكذلك الفجر، فهو اندفاع الضوء، وانتشاره في الأرض، وإزالته  
لظلمة الليل.



## ثالثاً: استخدام القرآن الكريم للفظ:

جاء اللفظ في القرآن الكريم على النحو التالي:

### (١) فجر الماء

- جاء الثلاثي في قوله: (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ

لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا)،

- (فَجَّرَ تَفْجِيرًا) المتعدي، على النحو التالي:

○ مسندا إلى الله، في ثلاثة مواضع: (وَفَجَّرْنَا

خِلَالَهَا نَهْرًا)، (وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ)،

(وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا).

○ مبني للمجهول (فَجَّرَ)، في قوله: (وَإِذَا الْبِحَارُ

فُجِّرَتْ).

○ مسندا إلى عباد الله في الجنة: (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا

عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا).

○ مسندا إلى الرسول، حين طلب ذلك منه

المشركون من باب التعجيز: (أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ

مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا).

- (تَفَجَّرَ يَتَفَجَّرُ) اللازم، وجاء في قوله: (وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ

لَمَّا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ).

- (انفجر) اللازم، في قوله: (فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ

عَيْنًا).

(٢) فجر الإنسان فجوراً، فهو فاجر:

جاء على الصيغ التالي:

- الفعل (فَجَرَ الإنسان) لازماً، في قوله: (بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ).

- المصدر (فجور)، في قوله: (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا).

- المشتق الفاعل: (فاجر) مفرداً، والجمع: (فجرة، وفجار)،

(فاجر) مرة في قوله: (وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا)،

(فجرة) مرة في قوله: (أُولَئِكَ هُمُ الْكُفْرَةُ الْفَجْرَةُ).

(وفجار) ثلاث مرات في قوله: (أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ

كَالْفُجَّارِ)، وقوله: (وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ)، وقوله: (إِنَّ

كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سَجِينٍ).

(٣) الفجر (الوقت)

ورد خمس مرات في أربع آيات، قوله: (حَتَّىٰ يَتَّبِعَنَّ لَكُمْ الْخَيْطُ

الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ)، وقوله: (وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ

الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا)، وقوله: (مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ)، وقوله:

(وَالْفَجْرِ)، وقوله: (حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ).



رابعاً: (فَجَّرَ) المسندة إلى الله

(فَجَّرَ) المسندة إلى الله، دلالتها هي:

إخراج الماء المنحبس في الأرض، بدفعه، أو تصديع الأرض.

ومن التعريف يتبين أن ثمة طريقتين لتفجير الله الماء:

**الأولى: دفع الماء المنحبس (وفجرنا نهراً)**

كما في قوله: (كَلَّمْنَا الْجِنِّيَّيْنَ آتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا  
وَفَجَّرْنَا خِلَالَهَمَا نَهْرًا)، وقوله: (وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ  
وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ).



**الثانية: تصديع الأرض**

**(وفجرنا الأرض عيوناً)**

وورد في قوله تعالى: (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا  
مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ  
السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ  
قَدُ قَدِيرٍ).

حمل المفسرون قوله (وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا) على المجاز، وقالوا  
أن التقدير: وفجرنا عيون الأرض، قال الزمخشري: (وجعلنا الأرض  
كلها كأنها عيون تتفجر، وهو أبلغ من قولك: وفجرنا عيون  
الأرض ونظيره في النظم: {وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا}).

وهو عندي على حقيقته، فتفجير الأرض: تصديعها صدوعا كثيرة متفرقة واسعة، مما يؤدي إلى اندفاع ما بداخلها من الماء بقوة شديدة، وغزارة، وانتشار.

وهذه الآية جاءت لبيان ما حدث لقوم نوح، فالله فتح أبواب السماء فانهمرت ماؤها، وصدع الأرض فانفجرت عيونها. فقد كانت حالة خاصة لتفجير الأرض.

أما الحالات السابقة، فإن التفجير يكون بإخراج الماء، وذلك بدفعه بشدة، فيصدع الأرض التي يخرج منها. وقد ورد في سياق الامتنان بتفجير الأنهار والعيون للناس، فتفجير الماء هو نعمة وامتنان، أما تفجير الأرض فكان غضبا وانتقاما.

وتصديع الأرض، يكون بتشقيقها تشقيقا سريعا، وتكون الشقوق متفرقة واسعة. وهذه العملية تكون بالغليان، أي تعرض الأرض لغليان هائل، حتى تتصدع تلك الصدوع. ولذلك قال تعالى: (وَفَارَ التَّنُّورُ)، فالتنور هي الأرض التي فارت، ففورانها غليانها؛ مما أدى إلى إحداث تصدعات هائلة فيها، فاندفع الماء الذي بداخلها، وانتشر بسرعة وغزارة وحرارة.

ويؤيد هذا قوله تعالى: (وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ)، وقال في سورة التكوير: (وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ). كما سأبينه لاحقا.

وكما بينت الآيات الطريقة التي تفجرت بها الأرض، فقد بينت الطريقة التي غاض بها الماء. قال تعالى: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلُغِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَلْقِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ)، فهذه معجزة أخرى،



فالأرض التي تصدعت وتشققت، أمرها الله أن تبلع ماءها الذي اندفع منها، وتلتئم به مرة أخرى، فعاد الماء الذي اندفع منها إلى محبسه، وغيض الماء. إنه تصوير بديع لعملية اندفاع الماء أولاً من محبسه بغزارة، ثم غيضه ورجوعه إلى محبسه، بعد أن أدى مهمته، فهو كالرسول الذي يبعثه الملك لأداء مهمته ثم يعود أدراجه.



### وإذا البحار فجرت:

قال تعالى: (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ).

فالأيات تصف الأحداث الواقعة عند قيام الساعة. وحديثي هنا عن تفجير البحار.

البحار بهذا الجمع لم ترد إلا في موضعين، هذه الآية، وقوله: (وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ)، وكلاهما يتحدثان عن تبدل نظام الخلق، ومصير المخلوقات عند قيام الساعة.

وقد جاء البحر مفردا، وجمع على (أبحر)، في قوله: (وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ)، وجاء مثني في قوله: (مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ)، وقوله: (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ) مرتين، وقوله: (وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ)، وقوله: (وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ)، وما عدا ذلك فقد جاء مفردا معرفا (البحر)، إلا في النور فجاء نكرة (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ).

وبالعودة إلى معاجم اللغة العربية، نجد أن المعنى الأصلي للفظ (بحر): المكان الواسع، في مقاييس اللغة: (الْبَحْرَةُ: الفجوة من الأرض تتسع)، وذكر كثيرا من استخدام العرب للفظ، وكلها ترجع إلى المكان الواسع. ولذلك سمي البحر بحراً، قال الخليل: (سمي البحر بحرا لاستبحاره وهو انبساطه وسعته). وفي لسان العرب: (سمي بذلك لعمقه واتساعه).

ثم أطلق على الماء الذي يكون في البحر: بحراً، والأصل أن التسمية للمكان، فسمي الشيء باسم مكانه، فالبحر، أي: ماء البحر، وقد شاع حتى لم تعد تلك العلاقة ملحوظة. وهذه العلاقة من باب قوله تعالى: (وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ)، أي: من أهل القرية، وقوله: (وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا). وتقول: احتفلت المدينة، وأنت تقصد: أهلها. وعليه فقوله تعالى: (وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ)، فالبحر هنا مكان الماء نفسه، وليس الماء، وتضجيرها يكون بمرحلتين:

المرحلة الأولى: سَجَرُهَا، حيث تتعرض لحرارة هائلة، وهو ما ذكر في قوله: (وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ).

المرحلة الثانية: تصديعها، فبفعل تلك الحرارة الهائلة تتمزق الأرض، بسرعة شديدة، فتتشقق شقوقا هائلة كثيرة واسعة، فيندفع الماء الذي بداخلها وينتشر بحرارة وغزارة، ويتطاير.



وبذلك يتبين أن تفجير الله (للوعاء: الأرض، البحار) لم يرد إلا في موضعين، وكلاهما في مقام إظهار قدرته سبحانه وتعالى بتحقيق

وعيده، سواء حين أغرق قوم نوح، أو حين يتبدل نظام الخلق كله.

أما تفجير الله للماء (للأنهار، العيون)، فجاء في سياق الامتتان على الناس، ومن ثم عليهم أن يشكروا المنعم الذي أنعم عليهم بذلك: (وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ).



**وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار:**

قال تعالى: (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ).

فقوله: يتفجر، الفاعل هو الحجارة، كما يبينه التقسيم، فالحديث عن الحجارة، فهو يقول: من الحجارة ما يتفجر فيخرج منه الأنهار، ومن الحجارة ما يشقق فيخرج منه الماء، ومن الحجارة ما يهبط من خشية الله. فالضمائر كلها تعود إلى بعض الحجارة، ولذلك جاءت مذكرة، أي: من الحجارة شيء يتفجر، ومن الحجارة شيء يتشقق، ومنها شيء يهبط.

ولذلك جاء بالفعل (يتفجر) مذكرا، فالفاعل ليس الأنهار، ولو كان (الأنهار) لجااء به مؤنثا، تتفجر الأنهار. كما قال: (تَجْرِي

مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ<sup>(٨)</sup>.

وعليه فالمعنى: الحجارة تتفجر، أي: تتصدع صدوعا واسعة، فتندفع الأنهار منها اندفاعا شديدا منتشرا. فالحجارة هي وعاء الأنهار. وهي التي تتصدع.

وفرق بين حالتين للحجارة، الحالة الأولى: تفجرها، والحالة الثانية: تشققها.

ففي حالة تفجر الحجارة، فإن الخارج منها أنهار مندفة متدفقة. وفي حالة تشققها، فإن الخارج منها ماء. فالتفجر يفيد معنى زائدا على التشقق، وهو التصدع الشديد السريع، وحصول الشقوق الواسعة، مما يؤدي إلى اندفاع ما بداخلها اندفاعا سريعا شديدا غزيرا، فينتشر. أما التشقق فليس فيه هذا المعنى، بل هو حدوث فتحات في الشيء المتشقق، يؤدي إلى تسرب ما بداخله، وليس اندفاعه.

ففي حالة تفجر الحجارة، فإن الماء يندفع ويتدفق بسرعة وغزارة. وفي حال تشقق الحجارة فإن الماء يسيل منها، ويتسرب دون اندفاع.

---

<sup>(٨)</sup> جاء في روح المعاني للألوسي: (والتفجر - التفتح بسعة وكثرة كما يدل عليه جوهر الكلمة وبناء الفعل، والمراد من الأنهار الماء الكثير الذي يجري في الأنهار، والكلام إما على حذف المضاف، أو ذكر المحل وإرادة الحال أو الإسناد مجازي، قال بعض المحققين: وحملها على المعنى الحقيقي وهم إذ التفتح لا يمكن إسناده إلى الأنهار اللهم إلا بتضمين معنى الحصول بأن يقال: يتفجر ويحصل منه الأنهار).

## خامسا: (فَجَّرَ) المسندة إلى البشر

### يفجرونها تفضيرا:

وقوله تعالى عن أهل الجنة: (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا).

قال الطبري: (يفجرون تلك العين التي يشربون بها كيف شاءوا وحيث شاءوا من منازلهم وقصورهم تفضيرا، ويعني بالتفجير: الإسالة والإجراء). وقال ابن عاشور: (والتفجير: فتح الأرض عن الماء، أي استنباط الماء الغزير، وأطلق هنا على الاستقاء منها بلا حد ولا نضوب، فكأن كل واحد يفجر لنفسه ينبوعا، وهذا من الاستعارة).

والذي يبدو أن الآية ليس من باب الاستعارة، فعباد الله في الجنة يعطيهم الله الإمكان الذي يجعلهم يستطيعون به أن يفجروا العيون حيث شاؤوا، ومتى شاؤوا. فهم لا يحملون همّ الحصول على الماء، أو البحث عن مواضع الماء. فأين جلسوا فجروا العيون، فشربوا وارتووا وتمتعوا به.

فالتفجير هنا بالطريقة الأولى، أي: إخراج الماء بدفعه من محبسه.

### فتفجر الأنهار:

قال تعالى:

(وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا).

قرئ في السبع: حتى تَجُرْ، وقرئ: تُجَرِّ، بالتخفيف والتشديد.

فقريش طلبت من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يفعل لهم هذه الأمور، كشرط لإيمانهم، وهم لا يقصدون أن يفعلها بنفسه، وإنما يطلبها من ربه، فقالوا: لو كنت نبيا لسألت ربك وأجابك.

وقال ابن كثير في تفسيره: (الينبوع: العين الجارية، سألوه أن يجري لهم عينا معينا في أرض الحجاز هاهنا وهاهنا، وذلك سهل يسير على الله تعالى، لو شاء لفعله ولأجابهم إلى جميع ما سألوها وطلبوا، ولكن علم أنهم لا يهتدون، كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ}، وقال تعالى: {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ}).

وورد في السير، أن رؤساء أهل مكة أرسلوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهم جلوس عند الكعبة فاتاهم فقالوا يا محمد إن أرض مكة ضيقة فسير جبالها لنتنعف فيها وفجر لنا فيها ينبوعا أي نهرا وعيونا نزرع فيها فقال لا أقدر عليه، فقال قائل منهم أو يكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا فقال لا أقدر عليه، فقيل أو يكون لك بيت من زخرف أي من ذهب فيغنيك عنا فقال لا أقدر عليه، فقيل له أما تستطيع أن تأتي قومك بما يسألونك فقال لا أستطيع، قالوا فإذا كنت لا تستطيع الخير فاستطع الشر فأسقط السماء كما زعمت علينا كسفا، أي قطعاً

بالعذاب.

وقال ابن عاشور: (والمراد بالأرض: أرض مكة، فالتعريف للعهد. ووجه تخصيصها أن أرضها قليلة المياه بعيدة عن الجنات... وخصوا هذه الجنة بأن تكون له، لأن شأن الجنة أن تكون خاصة لملك واحد معين، فأروه أنهم لا يبتغون من هذا الاقتراح نفع أنفسهم ولكنهم يبتغون حصوله ولو كان لفائدة المقترح عليه. والمقترح هو تفجير الماء في الأرض القاحلة، وإنما ذكروا وجود الجنة تمهيدا لتفجير أنهار خلالها فكأنهم قالوا: حتى تفجر لنا ينبوعا يسقي الناس كلهم، أو تفجر أنهارا تسقي جنة واحدة تكون تلك الجنة وأنهارها لك. فنحن مقتنعون بحصول ذلك لا بغية الانتفاع منه. وهذا كقولهم: أو يكون لك بيت من زخرف).



## سادسا: فجر الإنسان فجوراً:

الفَجْرُ، كما ذكرت: هو تصديق الوعاء الذي بداخله الشيء المنضغط المنحبس، مما يؤدي إلى اندفاعه منه بشدة. سأحدث عن مفهوم (الحافظ التدبيري، والحافظ الابتلائي للنفس)، ليتضح لنا مفهوم الفجور.

### ١/ الحافظ التدبيري:

لقد جعل الله لكل نفس حافظاً منه، فقال: (إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)، وقال: (لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ). فهذا إطار جعله الله يحفظ الإنسان، ولذلك وصفه (من بين يديه ومن خلفه)، فلا تستطيع نفس أن تعيش دون هذا الحافظ. وهذا الحافظ تدبيري، لا يستطيع الإنسان، ولا أي نفس، أن تصدعه، أو تنتهك حدوده.

ولذلك يظل الإنسان محاطاً بهذا الحفظ، حتى إذا جاء أجله خَلِّيَ بينه وبين الأجل، قال تعالى: (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا).

والله حفيظ على كل شيء، (إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ)، فما من شيء إلا وهو في حفظ الله، ولا يمكن أن يتعدى حدود حفظ الله.

### ٢/ الحافظ الابتلائي:

كذلك فقد جعل الله لكل إنسان حافظاً ابتلاه بالحفاظ عليه،



فأوكل إلى الإنسان مهمة الحفاظ على (الحافظ)، وحافظ الله هو أمانته التي حملها الإنسان. هذا الحافظ كل حدود الله ونعمه التي جعل للإنسان الاستطاعة في أن يحفظها أو لا يحفظها.

وهذا الحافظ هو حدود جعلها الله محيطاً بالإنسان، وهذه الحدود هي أوامره ونواهيه، ونعمه التي أنعم بها على الإنسان وأمره بالقيام بحقها، وعدم تبديلها لما خلقت له، وعدم التفريط فيها... فكل هذه حدود محيطاً بالإنسان.

فالإنسان يولد على الفطرة، وهو مُحاط بحافظ الله الابتلائي، حتى يبلغ، فإذا بلغ سن التكليف، فإنه يوكل إليه مهمة حفظ هذه الحدود، وعليه ألا ينتهكها، وألا يتجاوزها، فإن فعل ذلك فهو متقي، (أي: اتقى انتهاكها، فالمتقي هو الذي لا ينتهك الحواجز والحدود، والوقاية: توقي الوقوع في الشيء). وإن انتهك تلك الحدود، فهو فاجر.

فالفاجر هو الذي يصدع الحدود الحافظة، ويشققها، وينتهكها، ليندفع منها.

وقد جمع بين لفظي (التقوى والفجور)، فقال: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)، أي: ألهم النفس كيف تتقي تلك الحدود، وألهمها كيف تفجرها. فيعرف الخير فيأتيه ويعرف الشر فيتقيه، كما قال الشاعر:

عرفت الشرَّ لا للشر لكن لتوقيه  
ومن لا يعرف الشرَّ من الناس يقَعُ فيه

وقال تعالى: (أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ)، أي: كيف نجعل المتقين الذين حفظوا حدود الله ولم ينتهكوها، وظلوا محافظين على الوسيلة الآمنة الهادية، كمان فجروا تلك الحدود، ومزقوا الحافظ الذي يحفظهم، فسقطوا في جهنم.

والناس الحافظون لحدود الله، هم أبرار، بروا أي صدقوا فحفظوا الأمانة، ولم يتجاوزوا حدود ربهم، أما من اعتدوا على حدود الله فهم فُجَّار، أي: فجرُوا تلك الحدود، ومزقوها، ولم يرعوها، (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ). وقال: (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سَجِينٍ)، وقال: (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلِيَيْنَ). فالفجار سقطوا في سجين، أما الأبرار فقادتهم حدود الله الحافظة لهم إلى عليين.

وهذا يصور لنا أن الإنسان مؤتمن على هذه الحدود المحيطة به، فإن حفظها، فإنه ينجو، وإن فجرها فإنه يهلك.

وأضرب مثلاً:

لو أن إنسانا ركب منطادا وطار به في الهواء، فإن المنطاد إطار يحميه من السقوط، طالما حافظ عليه، ويوصله إلى هدفه آمناً، فإن شق المنطاد ومزقه، فإنه سرعان ما يسقط به.

وكذلك الإنسان في الدنيا، جعل الله له حدودا حافظة، فهو يسعى فيها، فإن حافظ عليها، نجا وأوصلته إلى الجنة، وإن فجرها (ومزقها، وانتهكها) سقطت ووقعت به في نار جهنم والعياذ بالله.

وعلينا ألا نتصور أن هذه الحدود مجاز، ولكننا لا نعي حقيقتها،

وألفاظ القرآن الكريم تبين لنا أنها حدود حقيقية، والإنسان محفوظ داخلها، وكلما مزقها فإنما يظلم نفسه.

ولذلك نجد القرآن الكريم يأمرنا بالحفاظ على هذه الحدود، قال تعالى: (وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ)، وقال: (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ)، وقال: (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ).

وقد بين الله للناس حدوده بيانا واضحا، (وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)، وأمر الناس ألا يقربوا حدود، أي: ألا ينتهكوها؛ فهي الأمان لهم كي يصلوا إلى بر الأمان، وإلا فإنهم يهلكون: (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرِبُوهَا)، وقال: (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)، أي يظلم نفسه، كمن يشقق المنطاد الذي هو فيه وهو في الهواء، فهو بفعله يعرض نفسه للهلاك، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه. قال: (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ).

وقال: (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا)، فمن يتعد حدود الله فإنه قد خسر (المنطاد) الذي ينقله إلى الجنة، فليس له إلا أن يسقط في أودية جهنم.

ويصور القرآن الكريم صورة الفاجر الذي شقق حدود الله، ولم يحفظها، فقال: (حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظَّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ). فشبهه براكب المنطاد الذي في السماء، ولكنه مزق منطاده فخر من

السماء، وهذه الصورة تبين لنا حقيقة الفجور، وتقريبه إلى وعينا وإدراكنا.

فالكافر انتهك حدود الله، فلم يعد من حوله حافظ يحفظه، ومن ثم فإنه قد فَقَدَ وسيلة النقل التي تنقله إلى الجنة، وكل من فقد هذه الوسيلة، فإنه يخر من السماء فيقع في جهنم. أما من يعظم شعائر الله فهو المتقي (من تقوى القلوب)، فلا ينتهك حدود الله، ولا يفسد أمامه.

إن حدود الله (هي أمان وهداية)، فهي أمان تحفظ من بداخلها، وتؤمنه من الهلاك، كما أنها وسيلة هداية، حيث تقوده حتى يصل إلى مبتغاه، وهو الجنة. فمن شقها فقد الأمان والهداية، قال تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ). فجمع بين الأمان والهداية.

وقال: (فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)، فهم لا يخافون؛ لأنهم محاطون بوسيلة نقل آمنة، وهم لا يحزنون؛ لأنهم مهتدون بهذه الوسيلة، وواثقون أنها تؤديهم إلى مسكنهم الأول. فالإنسان يحزن حين يفقد مسكنه الأصلي ولا يعرف كيف يرجع إليه، أما من وجد مرشدا يدلّه على العودة إلى مسكنه الأصلي فإنه يفرح ولا يحزن.

وكذلك الناس خرجوا من الجنة، وهي مسكنهم الأصلي، وبثهم الله في الأرض، وقد جعل لهم وسائل آمنة وهداية تنقلهم إلى الجنة، فتردهم إلى مسكنهم الأصلي، فمن اهتدى بها فاز ووصل، ومن

أبى شقي وخاب وهلك وانقطعت به السبل .

ولذلك فالإنسان يظل مهاجراً؛ لأنه يريد العودة إلى موطنه الأول، قال تعالى عن نبيه لوط: (فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي)، وقال: (وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ)، فسمى عمله الصالح هجرة إلى الله.



### واقٍ من الله:

قال تعالى: (لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ)، وقال: (فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ)، وقال: (وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ). فما الواقي الذي من الله؟

لقد جعل الله لكل نفس حافظاً يحفظها، وهذا الحافظ كما ذكرت: حافظ تدبيري وحافظ ابتلائي، وبينت ذلك. والقرآن الكريم يسمي الحافظ الابتلائي: (واقٍ)، فهو واقٍ جعله الله لكل نفس، فيحفظ الإنسان من مخاطر السير وضلال الطريق، فيضمن لهم الأمن والهداية. وهو نور من الله يحيط بالإنسان فيهديه إلى ربه، قال تعالى: (أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا). فهو نور يمشي به، أي يسير به فيكون له وقاءً آمناً، وهادياً، فلا يخاف ولا يحزن، أما من فجر ذلك الوقاء، فيكون في ظلمات لا يخرج منها؛ إذ لا وقاء يؤمنه من مخاطر السير، ولا هادي يهديه إلى نور ربه.

وأمرهم أن يحفظوا هذا الواقي، وألا يفجروه (ألا يصدعوه ويمزقوه ويخرقوه)، فمن فجر ذلك الواقي فقد أضاع واقي الله الذي منحه، فليس له من الله من واق، يقيه من عذاب الآخرة.

ويبين القرآن الكريم أن من فجر واقي الله، فإن الشيطان يتولاه، فيضله ويهديه إلى السعير، وبئس الهادي، قال تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ). وهذا ما تعهد به إبليس، أن يحيط بالإنسان، فإذا مكنه الإنسان من نفسه؛ بأن خرق له الوقاء الذي يقيه؛ فإن الشيطان ينفذ من تلك الشقوق، بحسب سعتها وكثرتها: (قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَأَتَيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ).



والفاجر من كثرت معاصيه، فلا يقال لمن عصى معصية واحدة فاجر؛ إلا إذا كانت المعصية كبيرة من الكبائر، كالكفر أو الزنا، أو شرب الخمر.. فهذه المعصية تمزق الحدود تمزيقا هائلا، وتشققها تشقيا سريعا. أما الصغائر فإن كل معصية منها تحدث شقا في الحدود، وكلما عصى أحدث فرجة في الحدود المحيطة به.

والتوبة هي وسيلة الإنسان في رتق الصدوع، ولأم الشقوق، وردم الفجوات، التي أحدثها في الحدود الحافظة له.

قال تعالى: (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ

إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ  
أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى

فجاء بلفظ (واسع)، فكما أن الكبائر تحدث صدوعا واسعة في  
جدار حدود الله، فإن الإنسان إذا تاب منها، فإن الله واسع المغفرة،  
فيغفر تلك الذنوب. وختم الآية بقوله: (هو أعلم بمن اتقى)، أي: من  
اتقى حدود الله فلم ينتهكها، وهو أعلم بمن فجر فانتهكها.



### ليفجر أمامه:

قال تعالى: (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ  
(٢) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ  
بَنَانَهُ (٤) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ)

يقسم المولى سبحانه وتعالى بيوم القيامة، وبالنفس اللوامة،  
والنفس اللوامة، هي تلك النفس المؤمنة التي تذب فتتوب، وتذب  
فتتوب، وكلما أذنبت أحدثت توبة، وهكذا. فالنفس تذب فتتقب في  
ذلك الوقاء الذي جعله الله نورا يحفظها ويحيطها، ثم تتوب فتسد  
الثغرات التي أحدثتها. فهي نفس مجاهدة، تدركها الغفلة فتشق  
حدود الله، ثم يدركها الخوف فتسد ما أحدثته من خرق.

ثم قال: أيحسب الإنسان ألن نبعثه مرة أخرى إلينا؟ هل يظن  
الإنسان أن حياته الدنيا هي نهاية الأمر؟ ألا يدري أنه سائر إلينا،  
فإن قدم علينا وهو محاط بنورنا أمن واهتدى إلى الجنة، وإن قدم

إلينا وقد هتك أستار نورنا، خاب وخر إلى سجين.

ثم قال: بل يريد الإنسان ليفجر أمامه، أي (يُصدِّع) حدود الله وحافظه الذي جعله وقاءً آمناً وهادياً للإنسان؛ لأنه يعتقد أنه إذا فجر ذلك الواقي فإنه يتمتع بملذات الدنيا، وشهواتها، التي يراها وهو داخل وقاته، فلا يصبر على أن يظل رهين وقاته، بل يشققه فيندفع منه اندفاع الماء المحبوس في باطن الأرض، يندفع كالثور الهائج؛ فتلقفه الشياطين، ويتخبط في الظلمات، فتزيده ضلالاً، وتهديه إلى أسوأ المصير.

قال تعالى: (قُلْ أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرُدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى اثْتِنَا)، فهو بعد أن انتهك حدود الله وخرق وقاته، تتلقفه الشياطين وتستهويه في الأرض، أي تضله في مهاوي التيه، فيظل حيران، لا يهتدي إلى نور الله، ولا يأمن من وعورة الطريق.

وقوله: (أمامه)، أي يفجر وقاء الله ونوره الذي أحاطه به، وهو سائر في طريقه إلى الله؛ لأن كل إنسان مرده إلى الله، فإما يتقي وإما يفجر. فالأمام هو الطريق الذي هو سائر فيه، والقرآن الكريم يصور سير الإنسان إلى أجله بالسائر باتجاه الأمام لا الخلف، ولذلك يستخدم لفظ (التقديم)، كما قال تعالى: (وَنَكُتُبُ مَا قَدَّمُوا)، (بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)، (وَلَتَنْظُرُنَّ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)، (يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي).





فالإخلاصة أن دلالة لفظ فجور الإنسان هي الدلالة العامة للفجر، وهي تصديق الوعاء يندفع ما بداخله بشدة؛ فالإنسان محاط بحدود حافظة له، وهذه الحدود هي وسيلته التي تنقه إلى عليين بأمان، وتهديه في جنة ربه. فإن شقق هذه الحدود ومزقها وقطعها فإنه فجرها، فهو فاجر، وهذا هو الفجور. وإن حافظ عليها فهو متقي، وهذه هي التقوى.



## المطلب الثاني: فتق ورتق

الفتق: شق متدرج، يبدأ بإحداث فرجة ضيقة، تتسع شيئاً فشيئاً، حتى تصبح شديدة الاتساع.  
قال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا). فهو يتحدث عن الفتق، والفتق كان بعد الرتق.

أولاً: الرتق:

١/ في معاجم اللغة:

في العين: (كل شيء متصل مستو فهو رتق، فإذا انفصل فهو فتق)، وفي الجمهرة: (رتق الشيء: ضم بعضه إلى بعض). وفي اللسان: (الراتق: الملتئم من السحاب)، وفي الجمهرة: (الرتاق: ثوبان يرتقان بحواشيهما). وفي الصحاح: (امرأة رتقاء: التصق ختانها، فلم تُنل؛ لارتتاق ذلك الموضع منها. وقال أبو الهيثم: الرتقاء: المنضمة الفرج التي لا يكاد الذكر يجوز فرجها لشدة انضمامه).

يتبين لنا أن الرتق: حالة اتصال بين شيئين، وهذا الاتصال: انضمام شديد، بحيث يخلو من أي فرجة بينهما، حتى لكأنهما شيء واحد مستو.

٢/ في كتب التفسير:

وإذا نظرنا في كتب التفسير:

قال في زاد المسير: (وللمفسرين في المراد به ثلاثة أقوال: أحدها:

أن السموات كانت رتقا لا تمطر، وكانت الأرض رتقا لا تنبت، ففتق هذه بالمطر، وهذه بالنبات، رواه عبد الله بن دينار عن ابن عباس، وبه قال عطاء، وعكرمة، ومجاهد في رواية، والضحاك في آخرين. والثاني: أن السموات والأرض كانتا ملتصقتين، ففتقهما الله تعالى، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وسعيد بن جبير، وقتادة. والثالث: أنه فتق من الأرض ست أرضين فصارت سبعا، ومن السماء ست سموات فصارت سبعا، رواه السدي عن أشياخه، وابن أبي نجیح عن مجاهد).

وقال ابن كثير: (كان الجميع متصلا بعضه ببعض متلاصق متراكم، بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه). وقال البقاعي: ("رتقا" أي ملتزقتين زبدة واحدة على وجه الماء، والرتق في اللغة: السد، الفتق: الشق، "ففتقناهما"، أي: بعظمتنا، بأن ميزنا إحداهما عن الأخرى بعد التكوين المتقن).

### ٣/ التحقيق في دلالة اللفظ:

الدلالة الدقيقة للفظ (الرتق)، تبين أنهما كانتا: ملتصقتين التصاقا تاما، قال ابن كثير: بعضه متراكم فوق بعض، وقال البقاعي: زبدة واحدة.

وعليه فالرتق هو حالة وليس مادة، كما توهم بعض المعاصرين، وقالوا بأن السماوات والأرض خلقتا من كتلة الرتق، والله لم يقل ذلك، بل قال: (كانتا رتقا ففتقناهما)، أي كانتا في حالة الرتق، وهي الالتئام الشديد، ففتقهما الله: فصلهما. فقابل بين الحالتين:

الرتق والفتق. وأما خلق السماوات والأرض فلم يذكر لنا القرآن مم خلقتا، وهل خلقتا من شيء أو من غير شيء. وما أقوله هنا أن الله خلق السماوات والأرض كلها فكانتا رتقا، ثم فتقهما الله.

وهذا يعني أن السماوات والأرض كانتا معا في جرم واحد، ملتصقتين، متصلتين، ولم تحدد الآية حجم الجرم، وإنما حددت طبيعته (رتقا)، غير أن ذكر لفظ (السماوات) يفيد ضآلة حجم الجرم إلى حد لا يمكن تصويره، فالسماوات كانت في رحم السماء الأولية (لم تسوّ بعد)، وهذا يعني أن المدى الذي تسوت إليه السماء الأولية فأصبحت سبع سماوات هو مدى هائل، كما أن الحجم الذي كانت فيه السماء الأولية والأرض ضئيل جدا، ذلك الحجم هو الذي أصبح السموات والأرض، وضآلة ما كان عليه إلى ما أصبح عليه كضآلة السماء بالنسبة للسماوات. ولعل هذا يكشف عن سر ذكر لفظ (السماوات) بصيغة الجمع.

ويؤيد هذا قوله تعالى (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)، فثمة إيساع، وإيساع الشيء يدل على أن جرمه كان أصغر وأضيق، فهو يتوسع رويدا رويدا.

كما يدل مفهوم الرتق، على أن الشيء كان بحالة لا يستفاد منها، فالرتقاء هي التي لا يستطيع الذكر وطأها؛ لانضمام فرجها. وهذا ما فهمه أهل التفسير حين قالوا أن السماء كانت رتقا لا تمطر، والأرض رتقا لا تنبت. وهو فهم صحيح، غير أن دلالته لا تقتصر على هذا، بل دلالته أن السماوات والأرض في حالة الرتق لم

تكن مهیئة لحياة الكائنات علیها، وما خلقت الكائنات الحية إلا بعد  
الفتق، ولعل هذا ما یفسر قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ  
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ  
شَيْءٍ حَيًّا)، فذكر الحياة بعد الفتق.

## ثانياً: الفتق:

### ١/ في معاجم اللغة:

الفتق، في المعاجم، بعضهم فسر الفتق بالفصل بين الشئيين ملتئمين، وبعضهم فسره بالشق. وسوف أعرض بعض النصوص؛ حتى نصل إلى الدلالة الدقيقة للفتق.

[سأقسم النصوص المعجمية إلى مجموعات متجانسة دلالياً].

(١) في العين: (كل شيء متصل مستو فهو رتق، فإذا انفصل فهو فتق)، وفيه: (الفتق: انشقاق عصا المسلمين بعد اجتماع الكلمة). وقال العسكري في الفروق: (الفتق بين الشئيين اللذين كأنا ملتئمين أحدهما متصلاً بالآخر فإذا فرق بينهما فقد فتقا، وإن كان الشئ واحد ففرق بعضه من بعض قيل قطع وفصل وشق ولم يقل فتق)، وفي الصحاح: (فتقت الشيء: شققته).

(٢) في تاج العروس: (فتقه تفتيقاً فتفتق أي تشقق. وانفتق: انشق. ومفتق القميص: مشقه)، وفي جمهرة اللغة: (وتفتقت الماشية شحماً إذا سمت)، وفي الصحاح: (جمل فتيق، إذا تفتق سمناً)، وفي اللسان: (الفتق: داء يأخذ الناقة بين ضرعها وسرتها فتفتق، وذلك من السمن). وفي الحديث: «في الفتق الدية»، قال الحربي في غريب الحديث: (وهو انفتاق المئانة).

وفي العين: (الفتاق: خميرة ضخمة لا يلبث العجين إذا جعلت فيه أن يدرك)، وقد بين الزمخشري في أساس البلاغة أن تسميته (لأنه ينفخ العجين، ويفتقه). ويقال عام الفتق: أي الخصب، قال الزمخشري: (لأنه يفتق المواشي سمناً)، وفي اللسان: (سمي عام الفتق؛ لانشقاق الأرض بالنبات). وفي عيون الأخبار: (قال شبيب بن شيبه لبعض فرسان بني منقر: ما مطلت مطل الفرسان ولا فتقت فتق السادة)، وهو كقول آخر: (ما أنت بأرصح فتكون فارساً ولا بعظيم الرأس فتكون سيداً).

(٣) في تهذيب اللغة: (الفتاق: أصل الليف الأبيض، يشبه به الوجه لنقائه وصفائه)، وفي المحكم لابن سيده: (الفتاق: أصل الليف الأبيض الذي لم يظهر).

(٤) قال ابن السكيت: (أفتق قرن الشمس، إذا أصاب فتقا في السحاب فبدا منه)، أي: شقا. وفي جمهرة اللغة: (وأفتقت الشمس إذا بدت من فتوق السحاب)، فالسحاب تفتق، أي تشقق. وفي أساس البلاغة: (فتق الفجر: انشقاؤه). وفي اللسان: (الفتاق: الشمس حين يُطبق عليها ثم يبدو منها شيء). قال المبرد في الكامل: (يقال: أفتق السحاب، إذا انكشف انكشافه فكانت منه فرجة يسيرة بين السحابتين. تقول العرب: دام علينا الغيم ثم أفتقنا، وإذا نظر إلى الشمس

والقمر من فتق السحاب فهو أحسن ما يكون وأشدّه  
استنارة).

(٥) جاء في وصف مسير النبي صلى الله عليه وسلم إلى  
بدر: «خَرَجَ حَتَّى أَفْتَقَ بَيْنَ الصَّدْمَتَيْنِ»، قال ابن  
الأثير: (أَيْ خَرَجَ مِنْ مَضِيقِ الْوَادِي إِلَى الْمَتْسِعِ. يُقَالُ:  
أَفْتَقَ السَّحَابُ إِذَا انْفَرَجَ، وَفِي صِفَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ: «كَانَ فِي خَاصِرَتَيْهِ انْفِتَاقٌ»، أي: اتساع). وفي  
الحديث (يَسْأَلُ الرَّجُلُ فِي الْجَائِحَةِ أَوْ الْفَتْقِ)، قال  
ابن الأثير: (أي الحرب تكون بين القوم، وتقع فيها  
الجراحات والدماء، وأصله: الشق أو الفتح). وفي تاج  
العروس: (الفتق: شق عصا الجماعة، ووقوع الحرب  
بينهم وتصعد الكلمة).

(٦) في العين: (الْفَتْقُ: انْفِتَاقُ رَنْقٍ كُلِّ شَيْءٍ مُتَّصِلٍ  
مُسْتَوٍ)، وفي أساس البلاغة: (ومن المجاز: كرهت أن  
أفتق عليك فتقاً لا ترتقه أبداً)؛ إذ لا تعرف كيف  
ترتقه. وفي اللسان: (فتق الخياطة يفتقها)، وتفسيره  
كما في معجم العربية المعاصرة: فتق الثوب: نقض  
خياطته حتى فصل بعضها عن بعض.

(٧) في العين: (فَتَّقْتُ الْعَجِينَ أَي جَعَلْتُ فِيهِ فِتَاقًا)، فأنت  
تفتق العجين بالفتاق. وفي أساس البلاغة: (وتقول:  
تفتق باللحم، حتى تفتق بالشحم). وفي الصحاح:



(فتق المسك بغيره: استخراج رائحته بشيء تدخله عليه). وفي الأثر عن علي مرفوعا: (أول من فتق الله لسانه بالعربية إسماعيل). وفي اللسان: (سمي عام الفتق؛ لانشقاق الأرض بالنبات). وفي أمالي القاضي يروي عن الأصمعي أنه سمع أعرابيا يدعو، وفي دعائه: (يا من فتق العقول بمعرفته، وأطلق الألسن بحمده).

## ٢/ التحقيق في دلالة اللفظ:

ومن هذه النصوص يمكن القول أن (فتق) يتميز بمجموعة من الدلالات، تبين ثلاثة أمور: الأول: طبيعة الشيء المفتوق، والثاني: طبيعة الفتق نفسه، والثالث: بم يكون الفتق؟

### أ: الشيء المفتوق

الشيء المفتوق قد يكون شيئا واحدا، وقد يكونان شيئين التحما فأصبحا في حكم الشيء الواحد. خلافا لما ذكره العسكري من أن الفتق لا يكون إلا بين شيئين، فالنصوص السابقة من سائر المعاجم اللغوية، تبين أن الفتق يكون للشيء الواحد أو للشيئين، بل إن الشيء الواحد هو الأصل في إيقاع الفتق عليه، ويحمل عليه الشيطان إذا اتصلا واستويا وأصبحا في حكم الشيء الواحد.

ثم إن الشيء المفتوق، يكون في إحدى حالتين، أو فيهما معا:

(١) الحالة الأولى: أن يكون شديد الالتئام، إذا كانا

شيئين، فيكون التئامهما شديدا كما لو كانا شيئا واحدا، والشيء الواحد يكون متصلا مستويا، كالثوب. [نصوص المجموعة ١].

وقد يكون التئامه أشبه بالنسيج (الليف)، والشق الذي يكون فتقا، يشبه حالة تشقق النسيج، ولذلك سمى العرب: الليف بالفتاق، حيث يتشقق تدريجيا، ويتسع الشق اتساعا كبيرا. فيكون الفتق تشقيقا له، كما تشقق النسيج. [نصوص المجموعة ٣].

(٢) الحالة الثانية: أن يكون شديد الامتلاء، فالفتق لا يكون إلا إثر امتلاء مضطرب، فالشيء إذا امتلأ حتى بلغ غاية الامتلاء، ثم بدأ يتشقق، فهذا هو الفتق. كفتق المثانة بعد امتلائها، أو فتق الجمل بعد سمنته، أو فتق العجين بعد انتفاخه. [نصوص المجموعة ٢].

### ب: طبيعة الفتق:

أما الفتق فهو: شق متدرج، يبدأ بإحداث فرجة ضيقة، تتسع شيئا فشيئا، حتى تصبح شديدة الاتساع.

وعليه فبداية الفتق يكون بالتشقق، وهو لا يكون إلا عن حالة الامتلاء الشديد، فيبدأ يتشقق شيئا فشيئا، فهو ليس فصلا يتم مرة واحدة، بل هو انشقاق تدريجي يتم شيئا فشيئا. وكما ينفثق الفجر من الليل، فهو لا يظهر فجأة، بل يبدو تدريجيا، فيتسع ضوء الفجر،

وتضييق الظلمة، شيئاً فشيئاً، حتى يصبح الفتق واسعاً شديداً  
الاتساع. [نصوص المجموعة ٤].

ثم حين يأخذ الفتق مداها، فإنه يصبح واسعاً شديداً الاتساع،  
وتتصدع بنيته الأساسية، حتى تختفي المعالم الأولى للشيء المفتوق.  
[نصوص المجموعة ٥].

كما أن الفتق يختص بحالة نقض عرى الشيء الملتئم، فهو  
ليس مجرد تفريق عشوائي، بل عادة ما يكون نقضا لما تم حبكه، أو  
فتقا لما تم رتقه، وهذا يشبه تشقيق النسيج، أو نقض خياطة الثوب.  
[نصوص المجموعة ٦].

#### ج: بم يكون الفتق؟

ورد فعل الفتق في اللغة العربية، على وجهين: (فتق، وفتق ب)،  
الأول نحو: فتقت الثوب، والثاني: نحو فتقت المسك بالعنبر، أو فتق  
العقول بمعرفته.. [نصوص المجموعة ٧]

والفتق إذا كان لشيء شديد الالتئام، كالثوب، فلا يؤتى  
بالباء؛ لأن الفتق يتعلق بالنقض، فتقول: فتقت الثوب، أما إذا كان  
لشيء شديد الامتلاء، فيتعلق غالباً بالباء، نحو: فتقت العجين،  
وتفتق بالشحم... الخ.



### ٣/ بيان الآية (كانتا رتقا ففتقناهما):

قوله (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا)،

(كانتا رتقا)، أي: كانتا ملتحمتين واتسما بثلاث خصائص:

الأولى: شدة الالتئام بينهما، كأنهما شيء واحد، والثانية: شدة الامتلاء، وهذا يشير إلى الكثافة الهائلة للجرم الصغير الذي حوى السماوات والأرض، فهو جرم ممتلئ بهما. والثالثة: الحالة النسيجية لهذا الجرم. فهو شيء ملتئم ممتلئ محبوك شديد الحبك.

(ففتقناهما)، أي: شققنا ذلك الجرم، كما يشق النسيج، وهذا الشق بدأ بفرجة تتسع شيئاً فشيئاً، حتى أصبحت شديدة الاتساع. (وإنا لموسعون). وفتقهما أشبه بنقض عرى المحبوك، بتوسيعها والتفريق بينها، وتباعدها باستمرار، كما تتباعد خيوط الثوب المشقق، بعد أن كانت شديدة التماسك والتقارب (في حالة الرتق).

(بم فتقتا؟):

قال الزجاج: فتقهما الله بالهواء، وقال ابن عباس: فتق السماء بالمطر، والأرض بالنبات. وقال كعب: خلق الله السموات والأرض ملتصقتين ثم خلق ريحا توسطتهما ففتقهما بها، ونقل رازي عن بعضهم: فتقهما الله بإظهار النهار المبصر.

وإذا عدنا إلى الدلالة اللغوية، فنجد أن الشيء الممتلئ يتفتق بما امتلأ به، حيث إنه لشدة امتلائه يبدأ بالتشقق، وكأن ما داخله

بحث له عن مدى أوسع، بعد أن ضاق به حاله الأول. وكذلك السماوات والأرض، خلقهما الله وخلق ما فيهما، وكان الجرم الذي هما فيه ممتلئ بهما وبالمخلوقات التي فيهما، ففتق الله ذلك الجرم، فأخذ ما كان فيه بالتوسع والامتداد. فالله فتقهما بما امتلأ به من خلق، وبعد الفتق بدأ كل جرم يكبر ويتسع، ويتباعد عن الأجرام الأخرى، وما بينهما مخلوقات خلقها الله، وليست فراغا، كما قال تعالى: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا).

وبهذا نعلم أن السماوات والأرض كانتا معا في الرق، ولا نعلم ضائلة حجم الجرم الذي كانتا فيه، ولا نعلم نسبة ضائلة الأرض وهي في ذلك الجرم إلى السماء، وحين يتحدث العلماء اليوم أن الأرض خلقت بعد السماء، فإنما يتحدثون بحسب علمهم، وحسب ما توصلت إليه آخر التطورات الممكنة، وقد يأتي غدا بأجهزة أكثر تطورا ودقة، فتكون أدق في تحديدها، وفي أحكامها، وهكذا تتطور علوم البشرية باستمرار. وما أقوله هنا أن الأرض كانت بحجم من الضائلة لا يمكن حتى الآن تصوره، فتخلقت هي والسماء في رحم واحدة، وانفتقا، واستمر تخلقها وتخلق ما فيها، ونمت حتى أصبحت بالحجم الذي رصدته أجهزة البشرية أولا. والله أعلى وأعلم.



## المبحث الثامن: (بديع) و(صنع) في القرآن الكريم

سأتناول في هذا المبحث الألفاظ التالية: بديع، وصنع.

### المطلب الأول: بديع

#### أولاً: الدلالة اللغوية والمصطلحية:

في مقاييس اللغة: (الباء والبدال والعين أصلان: أحدهما ابتداء الشيء وصنعه لا عن مثال، والآخر الانقطاع والكلال. فالأول قولهم: أبدعت الشيء قولاً أو فعلاً: إذا ابتدأته لا عن سابق مثال. والله بديع السماوات والأرض. وقوله: { قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ }، أي: ما كنت أول. والأصل الآخر قولهم: أُبْدِعَتِ الرَّاحِلَةُ: إذا كَلَّتْ وَعَطِبَتْ).

وقال الراغب في المفردات: (الإبداع: إنشاء صنعة بلا احتذاء واقتداء، ومنه قيل: ركيّة بديع أي: جديدة الحفر، وإذا استعمل في الله تعالى فهو إيجاد الشيء بغير آلة ولا مادّة ولا زمان ولا مكان، وليس ذلك إلا لله، والبديع يقال للمُبْدِع... وقوله: { قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ } قيل: معناه: مبدعاً لم يتقدّمني رسول، وقيل: مبدعاً فيما أقوله. والبدعة في المذهب: إيراد قول لم يستنّ قائلها وفاعلها فيه بصاحب الشريعة وأمثالها المتقدمة وأصولها المتقنة).

وقال العسكري في الفروق اللغوية: (الابتداع: إيجاد ما لم يسبق إلى مثله، يُقَالُ أْبَدِعَ فُلَانٌ إِذَا أَتَى بِالشَّيْءِ الغَرِيبِ، وأبدعه الله فهو مبدع وبديع، ومنه قوله تعالى { بديع السموات والأرض }، وفعل من

أفعل مَعْرُوفٍ فِي الْعَرَبِيَّةِ يُقَالُ بَصِيرٌ مِنْ أَبْصَرَ وَحَكِيمٌ مِنْ أَحْكَمَ،  
وَالْبَدْعَةُ فِي الدِّينِ مَا خُوذَتْ مِنْ هَذَا، وَهُوَ قَوْلٌ مَا لَمْ يَعْرِفْ قَبْلَهُ، وَمِنْهُ  
قَوْلُهُ تَعَالَى { مَا كُنْتُ بَدْعًا مِنَ الرُّسُلِ } . وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ بَدِيْعَ مَنْ  
بَدَعَ، لَا مِنْ: أَبْدَعَ، كَمَا سَأَبِيْنُهُ.

وقال الكفوي في الكليات: (بديع السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) : عديم  
النظير فيهما).

وقال الجرجاني في التعريفات: (الإبداع: إيجاد الشيء من لا  
شيء؛ وقيل: الإبداع: تأسيس الشيء عن الشيء، والخلق: إيجاد شيء  
من شيء، قال الله تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} وقال: { خَلَقَ  
الْإِنْسَانَ } . وَالْإِبْدَاعُ أَعْمُ مِنَ الْخَلْقِ، وَلِذَا قَالَ: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ  
وَالْأَرْضِ}، وَقَالَ: { خَلَقَ الْإِنْسَانَ } وَلَمْ يَقُلْ: بَدِيعُ الْإِنْسَانِ).

وقال الجرجاني في التعريفات في تعريف الابتداء: (الابتداء:  
إيجاد شيء غير مسبوق بمادة ولا زمان، كالعقول، وهو يقابل  
التكوين لكونه مسبوقاً بالمادة، والإحداث لكونه مسبوقاً بالزمان،  
والتقابل بينهما؛ تقابل التضاد إن كانا وجوديين، بأن يكون الابتداء  
عبارة عن الخلو عن المسبوقية بمادة، والتكوين عبارة عن المسبوقية  
بمادة، ويكون بينهما تقابل الإيجاب والسلب إن كان أحدهما وجودياً  
والآخر عديمياً، ويعرف هذا من تعريف المتقابلين).

وقال التهانوي في كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: (الإبداع  
في اللغة إحداث شيء على غير مثال سبق. وفي اصطلاح الحكماء  
إيجاد شيء غير مسبوق بالعدم، ويقابله الصنّع وهو إيجاد شيء

مسبوق بالعدم). ونقل عن السيّد السند قوله: (الإبداع في الاصطلاح إخراج الشيء من العدم إلى الوجود - بغير مادة).

وفي المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن: (بديع: منشئ خالق للأشياء على غير مثال سابق). وابتدع: (ابتكر واستحدث: { وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا }).

وفي معجم اللغة العربية المعاصرة: (إبداع: ابتكار، إيجاد شيء غير مسبوق بمادّة أو زمان. وفي المعجم الوسيط: (الإبداع: إيجاد الشيء من عدم، فهو أخصُّ من الخلق).

وفي المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم: (إنشاء الشيء جديداً على غير أصل سبق).



### ثانياً: استخدام اللفظ في القرآن الكريم

جاء المشتق (بديع) موصفاً به الله سبحانه وتعالى، مضافاً إلى السماوات والأرض في موضعين، (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ).

وجاء لفظ (بدع)، وهو مفرد (جمعه: أبداع وُبدع)، في قوله: (قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ)، والبدع هو الأول الذي لا نظير له، والمعنى: ما كنت مخالفاً لمن تقدمني من الرسل، فأنا لم آت بشيء يخالف ما أتوا به.

وجاء الفعل: (ابتدع) في مقام ذم النصارى، قال تعالى: (وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا



عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا).



### ثالثاً: بديع السماوات والأرض:

ورد اللفظ مرتين، في قوله: (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) [سورة البقرة].

وفي سورة الأنعام: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ).

وبتدبر هذه الآيات نجد ما يلي:

١/ جاء بالوصف (بديع)، دون غيره من الأوصاف، فلم يقل: مبدع.

٢/ أضيف اللفظ في الموضعين إلى (السماوات والأرض).

٣/ جاء الوصف في الموضعين في سياق الرد على من ادعى أن الله اتخذ ولداً. وفي سورة الأنعام كان الارتباط واضحاً، فهو يقول لهم: كيف يكون له ولد وهو بديع السماوات والأرض، وهو خالق كل شيء أيضاً.



ونؤكد مجموعة من المسائل:

المسألة الأولى: (بديع) من (بَدَع) لا من (أبدع):

لفظ (بديع) هو فاعل الفعل الثلاثي: بَدَع يَبْدَع بَدْعاً، فهو بديع.

وأما (مبدع) فهو فاعل من الفعل الرباعي: أبدع يُبدع إبداعاً فهو

مبدع.

فلا يصح أن نقول: أبدع الله السماوات والأرض، أو إبداع الله

للسماوات والأرض، أو الله مبدع السماوات والأرض، فلم يرد هذا

الاستخدام.

بل نقول: الله بديع السماوات والأرض، ونقول: بَدَع الله السماواتِ

والأرض. ونقول: بَدَع الله للسماوات والأرض.



المسألة الثانية: (بَدَع) و(بدأ):

ولفظ (بديع)، يرتبط لغوياً مع لفظ آخر، وهو (بدأ)، تقول: بدع

الشيء وبدأه، فالعين والهمزة كلاهما من حروف الحلق، والفعالان

يعنيان: البدء في الشيء.

وقد بينت في المبحث الأول الفرق بين قوله: بدأ الخلق، وخلق،

فدلالة: (يبدأ الخلق)، أخص من دلالة: (يخلق)؛ فبدء الخلق، هو

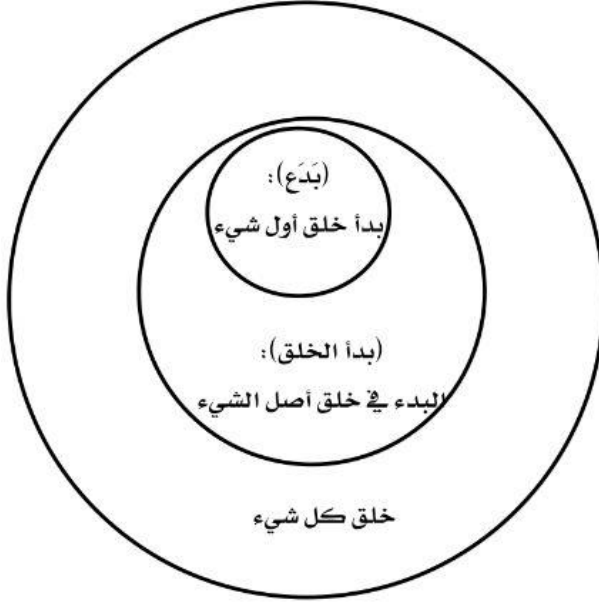
البدء في أول خلق، والبدء فيه هو أول إظهار له. أما دلالة (خلق) فهي

عامّة لأول خلق، ولخلق النسل بعد ذلك. وعليه فخلق الإنسان في

بطن أمه، هو خلق، ولكنه ليس بدءاً في الخلق. وباختصار فالبدء في

الخلق: هو خلق أصل الشيء لا نسله، والخلق: هو خلق أصل الشيء ونسله.

أما دلالة (بديع) فتعني البدء، ولكن ليس في خلق أصل الشيء، بل البدء في الخلق الأول. ويبين الشكل التالي الفرق بين (بَدَع الخلق)، و(بدأ الخلق)، و(خلق).



(خلق) أعم من (بدأ الخلق) ومن (بَدَع الخلق)، ف(خلق) تشمل كل خلق، سواء أول خلق، أم أول المخلوقات.

أما (بدأ الخلق)، فهي أعم من (بَدَع الخلق)، وأخص من (خلق)، ف(بدأ الخلق) تشمل بدء خلق الأصل الأول من كل مخلوق.

أما (بَدَع) فهي الأخص، وتعني: بدء خلق أول مخلوق.



المسألة الثالثة: وقوع الفعل على (السموات والأرض)، فالله بديع  
السموات والأرض، ولا نقول: بديع الخلق، ولا بديع الإنسان.

فلماذا السموات والأرض؟

تحدث القرآن الكريم كثيرا عنهما، وبين عظمة خلقهما،  
ونشأتها، ومصيرهما، وأول فتقهما... إلخ. (انظر بحث: السماء  
والسموات في القرآن الكريم).

فالسموات والأرض هما المخلوقان الأكبران (بعد العرش  
والكرسي)، وهما المخلوقان اللذان تدور فيهما أحداث الدنيا منذ أن  
خلقهما الله، وحتى قيام الساعة، فيهما عالم الغيب والشهادة، وفيهما  
الظلمات والنور. ومن ثم فالقرآن الكريم لم يحدثنا عن (العرش  
والكرسي) كثيرا، وإنما حدثنا عن السموات والأرض، فذلك ما  
يعني الناس، وما يرتبط بهما نشأتهم ومصيرهم، ونشأة المخلوقات  
ومصيرها.

وقد أعظم القرآن الكريم فرية المفترين الذين زعموا أن الله اتخذ  
ولدا؛ فقال لهم: كيف يتخذ ولدا وهو بديع السموات والأرض، وإذا  
قضى أمرا فإنما يقول له: كن فيكون.



مفهوم دلالة بديع:

مما سبق يتبين أن (بديع) لا يدل على مطلق الخلق، وإنما على  
بدء الخلق، ولا يقع على كافة المخلوقات. بل يقع على أول المخلوقات

وأعظمها.

ومن ثم فالبدع هو: البدء الأول في خلق أول الأشياء.

والتحقيق في الدلالة يبين ما يلي:

١/ نقول (بدع) لا إبداع، كما درجت عليه التعريفات السابقة.  
ولا نقول (ابتداع) ففعله: ابتداع، والله لا يبتدع الخلق، كما لا نقول:  
(ابتداء)، بل: بدع.

٢/ لا نقول: إيجاد شيء، بل: خلقه، أو إنشاؤه، وقد بينت هذا سابقاً.

٣/ لا نقول: إيجاد شيء مسبق بالعدم، أو من العدم، وقد بينت أن هذا غير صحيح. وقول بعضهم في التعريفات: (ابتداء الشيء لا عن مثال سابق). هو أصح في الدلالة من قولهم (مسبق بالعدم).

٤/ بدع وبدأ، كلاهما يدلان على البدء في إنشاء الشيء

إلا أن (بدأ) تختص بالبدء في إنشاء أول الشيء الأصل دون إتمامه. فبدأ الله خلق الإنسان من طين، أي: بدأ في إنشاء أصله (وهو الخلق الأول منه) من طين. وبدء الخلق للمرحلة الأولى من خلقه (أي من طين)، ثم المراحل اللاحقة نقول: خلق الله الإنسان.

أما (بدع) فتعني: البدء الأول في الفعل. فالله بدع السماوات والأرض، فهو الخلق الأول، وخلقهما قبل خلق ما فيهما ومن فيهما.

وعليه نقول: بدأ الله خلق الإنسان من طين، (أي: الإنسان الأول، وهو الأصل)، ونقول: بدأ خلق الأسد، وبدأ خلق النمل... إلخ، وبدأ

خلق النخيل، فدلالة ذلك خلق الأصل الأول من هذه المخلوقات.

ولا نقول: بدأ الله خلق السماوات والأرض؛ إذ لا نسل لهما.

ونقول: بدع الله السماوات والأرض، فالله بدأ الخلق بخلق السماوات والأرض، وهذا بدعهما.

ولا نقول: بدع الله الإنسان؛ لأن قبل الإنسان مخلوقات كثيرة خلقها الله. فلفظ (بدع) يطلق على المخلوق السابق لغيره من المخلوقات الأخرى. أما (بدأ) فيطلق على المخلوق الأصل، ولا يطلق على النسل.

وأقصد بـ(الفاعل) في التعريف: الخلق، فالبدع: البدء الأول في الخلق، أي خلق أول الأشياء، وهي السماوات والأرض، أما الخلق بعد ذلك لغيرها كالإنسان والحيوانات والنباتات، فلا نقول: بدع؛ لأن الخلق قد سبق.

وعليه يتحرر التعريف، فليس كما قالوا أن (الإبداع) خلق الشيء لا عن مثال، فاعتبروا أن الأولية في الشيء المفعول.

بل التحقيق أن الأولية في الفعل نفسه، فالخلق لأول مرة هو الذي نسميه: (بدعاً)، أما الخلق بعد ذلك فلا نسميه (بدعاً). ولذلك وقع (بديع) على السماوات والأرض؛ إذ هي أول الخلق.

**فالبديع هو: البادئ الأول في خلق أول المخلوقات.**



وهذه الدلالة لـ(بدع) تنطبق على استخداماتها المختلفة: البدء

الأول في الفعل.

فالسيارة مثلاً، لا نقول: أبدعها إلا للشخص الذي اخترع أول سيارة، أما من أتى بعد ذلك فنقول: صنعها فهو صانع، وإن أنتج خطوطاً جديدة، فيمكن أن نقول: ابتكر، لا: أبدع.

ونقول: أبدع الشعرَ للشاعر الأول من البشر الذي أبدع هذا النوع من الكلام، أما من قال شعراً بعد ذلك فلا نقول له: أبدع الشعر.



## المطلب الثاني: صنُع

أولاً: الدلالة اللغوية والمصطلحية:

قال ابن فارس في مقاييس اللغة: (الصاد والنون والعين أصل صحيح واحد، وهو عمل الشيء صنعا. وامرأة صنَاع ورجل صنَع، إذا كانا حاذقين فيما يصنعانه).

وقال الراغب في المفردات: (الصُّنْعُ: إجادَةُ الفعل، فكلَّ صنُعٍ فَعْلٌ، وليس كلَّ فعلٍ صنُوعاً، ولا ينسب إلى الحيوانات والجمادات كما ينسب إليها الفعل).

وقال العسكري في الفروق اللغوية مفرقاً بين العمل والصنع: (الصنع ترتيب العمل وإحكامه على ما تقدم علم به، وبما يُوصل إلى المراد منه، ولذلك قيل للنجار صانع ولا يُقال للتاجر صانع؛ لأن النجار قد سبق علمه بما يُريد علمه من سرير أو باب وبالأَسباب التي توصل إلى المراد من ذلك، والتاجر لا يعلم إذا اتَّجر أنه يصل إلى ما يُريده من الربح أو لا، فالعمل لما يقتضي العلم به يعلم له، ألا ترى أن المستخرجين والضمناء والعشارين من أصحاب السُلطان يسمون عمالاً ولما يسمون صناعاً؛ إذ لما علم لهم بوجوه ما يعملون من منافع عملهم كعلم النجار أو الصائغ بوجوه ما يصنعه من الحلي والآلات. وفي الصنّاعة معنى الحرفة التي يتكسب بها وليس ذلك في الصنع، والصنع أيضاً مضمن بالجودة، ولهذا يُقال ثوب صنيع وفلان صنيعَة فلان إذا استخسه على غيره، وصنع الله لفلان أي أحسن إليه وكل ذلك كالفعل الجيد).



وقال التهانوي: (الصنع: إيجاد شيء مسبق بالعدم).

وقال الماوردي في تفسير قوله: (صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَّ كُلَّ شَيْءٍ):  
(أي فعل الله الذي أتقن كل شيء). وقال ابن عاشور: (الصنع يطلق  
على العمل المتقن في الخير أو الشر).

وفي المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، أن الصنع  
يطلق على العمل الذي فيه تدبير واحتيال أو إحكام. وأصله: جمع أو  
تحصيل في هيئة جديدة، أو تعظيم نفس الهيئة، بتدبير واحتال أو  
إحكام)، فالصُّنْعُ هو السُّفُودُ تُنْظَمُ فيه قطع اللحم، والمصانع: أحباس  
تتخذ للماء، وقوم صَنَاعِيَّةٌ: يصنعون المال أي يجمعونه ويكثرونه،  
وصنع الرجل فرسه: علفه وسمَّنه. والمصانعة: الرشوة، فهي حيلة  
للحصول على شيء.



ثانياً: استخدام القرآن الكريم للفظ:

(١) المسند إلى الله:

ورد اللفظ مسندا إلى الله في ثلاثة مواضع، الأول قوله تعالى:  
(وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)، وجاء بفعل ما لم يسم فاعله في قوله:  
(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)، والخطاب فيهما  
لموسى عليه السلام. والثالث قوله: (صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَّ كُلَّ شَيْءٍ).

(٢) المسند إلى البشر:

جاء في سبعة عشر موضعا، وجاء بالمعاني والصيغ التالية:

(الفاعل) المقصود به عملهم، والجزاء المترتب عليه في الآخرة، قوله: (وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)، وقوله: (قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَعْزُبُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)، وقوله: (اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)، وقوله: (فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ). وقوله: (لَوْ لَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ اللَّاتِمَ وَآكَلِهِمُ السَّحْتِ لَإِيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ). وقوله: (وَحِيطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَيَاطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)، وقوله: (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا).

وقد يكون الجزاء المترتب عليه في الدنيا، في قوله: (فَادْأَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)، وقوله: (وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا نُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً).

(الفاعل) مقصودا به صناعة معينة، كصناعة الفلك: (وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا)، (وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ)، أو صناعة السحر: (وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى)، أو صناعة الدروع: (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ)، أو صناعة القصور والبنيان: (وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ).

وجاء جمعا للاسم، (مصانع)، وفعلة (اتخذ) في قوله: (أَتَبْنُونَ

بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ).

وجاء المصدر في قوله: (وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا).



### ثالثاً: التحقيق في دلالة اللفظ:

لفظ (فعل) أسند إلى الله كثيرا، سواء فعل الانتقام والأخذ، كقوله: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)، أو غيره وهو العفل العام، كقوله: (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ). وأسند إلى البشر، سواء فعل الخير، أو الشر، كقوله: (وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ)، (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً)، (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيهِ نَارًا).

أما لفظ (عمل) فلم يسند إلا إلى البشر، في الخير وفي الشر. ولم يسند إلى الله.

ولفظ (صنع) أسند إلى الله، وأسند إلى البشر.

والصنع - كما يتبين من استخدام العرب للفظ، يقتضي مجموعة عناصر دلالية:

الصانع، ويتوفر فيه عنصران:

١. العلم السابق بما يفعله، ووجوه الفعل، وأسبابه، ونتائجه.
٢. القصد والإرادة لما يفعله، فهو فعل قصدي يكون بتدبير

وتخطيط، وليس فعلا غير مقصود.

الثاني: الصنع، وتوفر فيه عنصر: إجادة الفعل، وإتقانه، فلا يقال لأي عمل إنه صنع.

الثالث: المصنوع، وهو الشيء المفعول، سواء كان ذاتا (كصنع السفينة)، أو معنى (كعمل الخير أو الشر). بخلاف المخلوق فلا يطلق إلا على الذات. كما أن المصنوع قد يكون مصنوعا لا عن مثال سابق (كالمخلوق، أو المبتدع)، وقد يكون مصنوعا عن مثال سابق.

فالدلالة الجوهرية في لفظ (صنع)، لا ترتبط بالشيء المصنوع، ولكنها ترتبط بالصنع نفسه، فالصنع: إتقان الفعل، مع العلم التام بأسبابه ونتائجه ومآلاته. فهذا هو الصنع، فإن تكسب بهذا الصنع، فيسمى عمله: (صناعة)، فالصناعة هي التكسب بالصنع.

وبهذه الوجوه يتبين اختلاف دلالة الصنع عن الفعل والعمل والخلق.

وهذه الدلالة تسري في جميع استخدامات اللفظ، فمثلا:

(وَأَصْنَعُ الْفُلُكَ)، وقوله: (صَنْعَةَ لُبُوسٍ لَكُمْ)، وقوله: (إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدًا سَاحِرًا). فالصنع في كذلك هو عمل يتقنه فاعله، ويعلم سابقاً أسبابه التي تؤدي إلى الفعل، ونتائجه التي يصير عليها، ويعلم منافعه ومضاره.

وقد يكون الفعل هو الكسب، كما في قوله: (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)، أي: ما تفعلونه، وأنتم تعلمون أسبابه ونتائجه، وتعلمون

منافعه ومضاره، وتعلمون خيره وشره.

ولذلك رتب عليه جزاء الله لهم في الدنيا، كقوله: (فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)، وقوله: (وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ)؛ فالعقوبة جاء لأفعالهم المقصودة التي يعلمون أسبابها ونتائجها ومآلاتها.

وقوله: (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)، قال ابن عاشور: (من سابق أعمال عاد أنهم كانوا بنوا في طرق أسفارهم أعلاما ومنارات تدل على الطريق كيلا يضل السائرون في تلك الرمال المتنقلة التي لا تبقى فيها آثار السائرين واحتضروا وشيدوا مصانع للمياه وهي الصهاريج تجمع ماء المطر في الشتاء ليشرب منها المسافرون وينتفع بها الحاضرون في زمن قلة الأمطار، وبنوا حصونا وقصورا على أشرف من الأرض). فالمصانع هي صهاريج الماء.

و(الصناعة) سماها القرآن الكريم: صنعة، قال تعالى: (وَعَلَّمَآهُ صِنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ)، أي: صنعة الدروع. فسماها: صنعة، وبين أن داوود أوتيها بتعلم، حتى اكتسب العلم بها، وبين نتائجها (لتحصنكم من بأسكم).



رابعاً: صنع المسندة إلى الله:

قوله: صنع الله الذي أتقن كل شيء:

قال تعالى: (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ).

اختلف المفسرون في دلالة الآية (وترى الجبال..) والمقصود بها، فبعضهم ذهب إلى أنها تتحدث عن مصير الجبال عند قيام الساعة، وعليه فقوله (صنع الله)، أي: صنعه في تبديل نظام الخلق، ودك الجبال، والنفخ في الصور...

قال أبو السعود: {صنع الله} مصدر مؤكد لمضمون ما قبله، أي صنع الله ذلك صنعا، على أنه عبارة عما ذكر من النفخ في الصور وما ترتب عليه جميعا. قصد به التنبيه على عظم شأن تلك الأفاعيل وتهويل أمرها والإيذان بأنها ليست بطريق إخلال نظام العالم وإفساد أحوال الكائنات بالكلية من غير أن يدعو إليها داعية أو يكون لها عاقبة، بل هي من قبيل بدائع صنع الله تعالى المبنية على أساس الحكمة المستتعبة للغايات الجميلة التي لأجلها رتبت مقدمات الخلق ومبادئ الإبداع على الوجه المتين، كما يعرب عنه قوله تعالى {الذي أتقن كل شيء}، أي أحكم خلقه وسواه على ما تقتضيه (الحكمة).

وقال الشنقيطي في أضواء البيان: (وتسيير الجبال وإيجادها

ونصبها قبل تسييرها، كل ذلك صنع متقن).

والقول الثاني أن المقصود بالآية هو خلق الله الذي خلقه وأنشأه،  
وأن الآية معترضة بين الآي. قال ابن عاشور (بتصرف):

(واعلم أن الصنع يطلق على العمل المتقن في الخير أو الشر.  
ووصف الله ب {الذي أتقن كل شيء} تعميم قصد به التذليل، أي ما  
هذا الصنع العجيب إلا مماثلاً لأمثاله من الصنائع الإلهية الدقيقة  
الصنع. وهذا يقتضي أن تسيير الجبال نظام متقن، وأنه من نوع  
التكوين والخلق واستدامة النظام وليس من نوع الخرم  
والتفكيك)... (وقوله: صنع الله الذي أتقن كل شيء المقتضي أنه  
اعتبار بحالة نظامها المألوف لا بحالة انخرام النظام؛ لأن خرم النظام  
لا يناسب وصفه بالصنع المتقن، ولكنه يوصف بالأمر العظيم أو نحو  
ذلك من أحوال الآخرة التي لا تدخل تحت التصور)، وقال: (الإتقان  
إجادة، والهدم لا يحتاج إلى إتقان).



وأرى ألا وجه لتخصيص (صنع الله) بأحد الأمرين، (أي: الخلق،  
أو تبديل الخلق). فالخلق مثله مثل تبديل الخلق، كلاهما صنع،  
وليس كما قال ابن عاشور، وكلاهما يحتاج إلى إتقان وإجادة وعلم  
وقصد.

فصنع الله المتقن، يتجلى في ما خلق، ويتجلى في ما قضى وقدر،  
ويتجلى في ما أمر.

الصنع كما حققت، لا يقتصر على الشيء الذات، بل يشمل

الذات والمعنى. وصنع الله لا يقتصر على خلقه، بل يشمل: خلقه وأمره، قال تعالى: (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)، فالله أتقن خلقه، وأحكم أمره. فالخلق من صنع الله، والأمر من صنعه أيضاً.

والخلاصة أن صنع الله: فعل الله المتمثل في الخلق والأمر. وقد وصف الله نفسه بأنه (أتقن كل شيء)، فصنعه يقوم على العلم النهائي التام بكل شيء، سبب وجوده، ومقتضيات وعلاقاته، ونتائجه، ومآلاته، وكذلك علمه النهائي بكل أمر. سبحانه وتعالى.



### قوله: ولتصنع على عيني:

قال تعالى: (إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنْ اقْنِصِي فِي التَّابُوتِ فَاقْنِصِي فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَا خُدَّةَ عَدُوِّ لِي وَعَدُوًّا لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي).

قال بعض المفسرين معنى: (ولتصنع)، من التربية والنشأة، والمعنى: (تربى وتعدى على مرأى مني) وقال بعضهم: كل ما يحدث لك من أفعال (جعله في التابوت، وإلقاء التابوت في البحر، والتقاط فرعون له..) فكل ذلك بأمر الله. قال الشوكاني: (وقرى: "ولتصنع" بفتح التاء. والمعنى وليكون عملك على عين مني لئلا يخالف به عن



أمري).

وقوله: (واصطنعتك لنفسي)،

قال الواحدي: (الاصطناع: اتخاذ الصنعة وهي الخير تسديه إلى الإنسان، وهذا افتعال من الصنع)، ونقل عن الكلبي أن المعنى: اخترتك بالرسالة لنفسي، لكي تحبني وتقوم بأمري)، وقيل: اخترتك بالإحسان إليك لإقامة حجتِي). ونقل عن الزجاج: اخترتك لإقامة حجتِي، وجعلتك بيني وبين خلقي حتى صرت في الخطاب عني والتبليغ عني بالمنزلة التي أكون أنا بها لو خاطبتهم واحتججت عليهم). وقال البغوي: (أي اخترتك واصطفيتك لوهي ورسالتِي، يعني لتتصرف على إرادتي ومحبتِي وذلك أن قيامه بأداء الرسالة تصرف على إرادة الله ومحبتِهِ).

وفي تفسير القرطبي: (قال ابن عباس: أي اصطفيتك لوهي ورسالتِي. وقيل: اصطنعتك: خلقتك، مأخوذ من الصنعة. وقيل: قويتك وعلمتك لتبلغ عبادي أمرِي ونهِي).

وقال ابن عاشور: (والاصطناع: صنع الشيء باعتناء. واللام للأجل، أي لأجل نفسي. والكلام تمثيل لهيئة الاصطفاء لتبليغ الشريعة بهيئة من يصطنع شيئاً لفائدة نفسه فيصرف فيه غاية إتقان صنعه).



## التحقيق في الآية:

بتدبر سياق الآيات نجد أن الحديث عن موسى وهو في مرحلة معينة من حياته، حين وضعته أمه في التابوت، فألقت التابوت في اليم، فأخذه فرعون، فتبعته أخته، فردّ إلى أمه، ثم عاد إلى قصر فرعون فنشأ فيهم، ثم قتل القبطي، ثم فر من مصر، ثم لجأ إلى مدين، ثم جاء على وقت قدره الله له، فأوحى إليه.

فتسلسل هذه الأحداث، قد يبدو للإنسان أنها مصادفة، ولكن الله سبحانه وتعالى يبين أنها صنعه سبحانه وتعالى. وكذلك كل إنسان تسلسل أحداثه هو صنع الله به، وهو ما يقتضيه أمره، والصنع هو الخلق والأمر.

والصنع كما ذكرت هو: إتقان الفعل مع العلم التام بأسبابه ونتائجه ومآلاته، والفعل يشمل: الخلق والأمر.

فالله يصنع كل إنسان وفق ما قدر له أن يكون، ووفق الهدف الذي يصير إليه، ووفق الغاية التي ينتهي إليها.

ولذلك فالأنبياء يصنعهم الله صنعا يناسب الوظيفة التي يعدهم الله لها، فتكون الأحداث التي في حياتهم أحداثا تناسب مقامهم الذي اختارهم الله له، فالله يصطفيهم على الناس، أي يختارهم لما صنعوا لأجله، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)، وقال: (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ). فعقب على

ذكر الاصطفاء بالأمر لها أن تفعل ما يناسب اصطفاءها .

ولذلك فالله يأمر مصطفاه بأن يفعل الأفعال التي اصطفى لها، وأن تكون أفعاله متوائمة مع الصنع الذي صنع له: (يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)، أي: اصطفيتك وخصصتك برسالاتي وبكلامي، فهذه صنعة اختصتكم بها، ولذلك خذ ما آتيتك وكن من الشاكرين .

وقوله: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ)، أي: اخترناهم وصنعنا لهم الأحداث وفق اختيارنا، فبعضهم ظالم لنفسه وبعضهم مقتصد وبعضهم سابق بالخيرات، فالاصطفاء لا يعني بإطلاقه: المزية والتشريف والتفضيل، ولكنه يعني: اختيار شيء لشيء، فالله يصطفى من الناس رسلاً، أي يختار منهم من يرسله، ومن ثم يصنعه صنعا يناسب ما اصطفاه له .

وهذا يفسر قوله: (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١) اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تُنِيَا فِي ذِكْرِي)، فهو يقول: يا موسى صنعتك صنعا يناسب ما اصطفيتك له، فقد اصطفيتك لرسالاتي وكلامي، ولذلك صنعتك صنعا مناسباً للرسالة، فلا تظن أن الأحداث مصادفة، بل على قدر يا موسى. ثم يبين له هذا المعنى فيقول: (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)، أي أن ما ذكرته من صنعك على عيني إنما هو لأنني اصطنعتك لنفسِي، أي: لتكون رسولا ناطقا باسمي

وبكلامي. ولذلك جاء التوجيه له: اذهب أنت وأخوك بآياتي.. فهذا ما اصطنعتك واصطفيتك له.



وكذلك قد امتن الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، بأنه صنعه على عينه، واصطنعه لنفسه، فقال: (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ). فهو يقول له أن الأحداث التي مر بها ونتائجها، كلها بصنع الله، الذي صنعه فأحسن صنعه، ثم أمره بمجموعة من الأوامر التي تناسب ما اصطنعه له: ألا يقهر اليتيم، وألا ينهر السائل، وأن يحدث بنعمة ربه.



### خامساً: وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا:

وقوله: (وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)، أي: يظنون أن ما يعملونه قد أحسنوا أسبابه ونتائجه ومآلاته، فهم لا يعتقدون أن مآلات أعمالهم ستقودهم إلى الهلاك والمصير السيء. كالصانع الذي يصنع العمل وهو مستيقن أن عمله سيؤدي إلى نتائج محددة.

فهؤلاء المشركون أو غيرهم ممن كفروا بآيات الله، يظنون ألا بعث ولا جزاء، ومن ثم فما يفعلونه سيحصدون ثماره في الدنيا، ويعتقدون أن ذلك منتهى الفعل. فهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، ولكنهم لا يعلمون أن ذلك بئس الصنع. فنتائج الفعل لم يحتسبوها، وسيجدونها فيندمون. (وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ).

وقوله: (وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)، تهكم واضح بهم، فهو يقول لهم: رأيتم ما صنعتم، وظننتم أنه صنع متقن، وأنكم تعلمون نتائج أفعالكم!! فذلك الصنع قد حبط، وأنتم كنتم تحسبون أنكم تحسنون صنعا، والحقيقة أنكم كنتم واهمين.

فمثل ذلك كمثل صانع يصنع شيئا، ويقضي في صناعته عمره، ثم يأتي لبيعه للناس، فيكشف له خبراء الصناعة أن ما أنتجه من مصنوع فاسد، وأنه لا يصلح لما صنع له، وأن عليه أن يعيد الصنع من جديد.

فهذا حال أولئك الصانعين (الكفار)، الذين صنعوا في الدنيا أعمالاً، واعتقدوا أنهم أحاطوا بأسبابها ونتائجها ومآلاتها، وأنهم علموا منافعها ومضارها، ولكن حين يأتون إذا بتلك الأعمال

محبطة، قال تعالى: (وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً  
مَّنْثُورًا)، وقال: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ  
الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا)، وقال: (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا  
بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ  
مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ).